أنيسة عصام حسونة

بدون سابق إنذار

قصتي مع السرطان

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا
sa7eralkutub.com

إهداء

هذا هو كتابي الأول الذي أهديه إلى كل مَن أحبوني وأحببتهم، والذين بدونهم لم يكن بمقدوري أن أتقدم في الحياة مدعومةً بأفكارهم الإيجابية ورعايتهم الفائقة.

- إلى والدي ومَثلي الأعلى: المستشار عصام الدين حسونة؛ القاضي النبيل والوزير العادل، الذي غرس في نفسي كل ما أعرفه عن القِيَم العُليا واحترام الآخرين، والثقة بالنفس، وسِيرته العَطِرة ترعانا حتى اليوم.
- إلى والدتي: الطبيبة فتحية المرصفاوي، التي منحت كل حياتها لعائلتها وعملها، ووقفت بصلابة إلى جانب والدي في جميع المواقف الحياتية والسياسية الصعبة، وضربت لنا أروع المثل في الدفاع عن المبادئ مهما كان الثمن.
- إلى شقيقاتي: زينب ومها ومنال، اللاتي هُن الصديقات الأقرب والملاذ عند الشدائد، فلم تخذل

إحدانا الأخرى عبر السنوات، ولم تفرقنا الظروف مهما حدث.

• إلى زوجي العزيز: شريف، الذي كان وما زال سَندي الأول منذ ارتباطنا، والذي شاركني حياتي لما يقارب أربعة عقود من الزمن يرعاني ويحميني.

• إلى بنتيّ الحبيبتَيْن: سلمى ومها، اللتين أفخر بهما، ولا تستقيم حياتي للحظة بدون محبتهما الغامرة.

• إلى أحفادي، قُرة العين: علي وفريد وشريف وداليدا، عسى أن يتذكروا كم أحبّتهم جدتهم.

شكر خاص لكلٍّ من:

السيد محمد السعدي

الدكتور حسين بكر

الأستاذة مها ناجي

تمهيد لا بد منه

من أنـا؟

أتذكّر منذ كنت طفلة أنَّ والدي الحبيب كان حريصا دائمًا على وجود مكتبة كبيرة بمنزلنا تضم جميع أنواع الكتب في مختلف المجالات، وكان يشجعنا منذ كنا صغارًا أن نقرأ كل شيء، ويشرح لنا ما يستعصي على فهم عقولنا الصغيرة من روائع الأدب المحلي والعالمي، وكُتب التاريخ والعلوم، والاكتشافات والاختراعات، وكنا ونحن في المدرسة الابتدائية نحظى إلى جانب قصص الأطفال من إصدارات المكتبة الخضراء الملونة التي تتحدث عن سندريلا والأقزام السبعة وأرنوب والكنز والبطة السوداء وذات الرداء الأحمر، أقول كنا نحظى أيضا بكتب مؤسسة فرانكلين للنشر حول أهم المكتشفين والمخترعين وما أضافوه إلى التاريخ الإنساني، أمثال «كريستوفر كولومبوس» و«توماس كوك» و«جراهام بل» و«توماس أديسون»... وكثيرين

غيرهم، وكذلك الشخصيات التاريخية مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، ولذلك تربينا على أهمية المعلومات العامة للدرجة التي كان والدي الحبيب يعقد بين بناته الأربع مسابقات في المعلومات العامة على مائدة الطعام، ويضع بجانبه أوراقًا نقدية جديدة من فئة الخمسة والعشرين قرشًا لمَن تنجح في معرفة الإجابة الصحيحة بداية من صفات الأسد ملك الغابة وما هو أكبر أنواع الحيتان، إلى تاريخ ثورة «ماو تسي تونج» في الصين ومَن هم ملوك إنجلترا وإسكتلندا عبر العصور.

وكان من ضمن الكتب التي قرأتها وأنا في المدرسة كتاب شهير، به مجموعة هامة من المقالات أشرف على جمعها «ج. دونالد آدمز»، وترجمها إبراهيم زكي خورشيد، وقدم لها الدكتور محمد عوض محمد، ونشرتها دار النهضة العربية في ستينيات القرن الماضي، وقد أثَّرت في نفسي وتفكيري تلك القصص المتنوعة التي كانت عبارة

عن مجموعة من المقالات التي تشيد بروح الإنسان التي لا تُقهر، وتوضح النضال الدائم للروح البشرية من خلال كيفية انتصار العزم والجلَد والشجاعة على الخطوب الجسام التي تتجاوز ما يتعرض له الإنسان عادة من الشدائد والكوارث، وكأن في بعض النفوس البشرية جوهرا لا تظهر قوته إلا إذا امتُحنوا امتحانًا قاسيًا وتعرضوا لنكبة هائلة، مستعرضًا في تلك المقالات أن الإرادة البشرية خليقة أن تأتي بما يشبه المعجزات في جهادها ونضالها ومقاومتها لكل الصعاب والعقبات؛ وذلك بهدف بث روح الإيمان والعزيمة في النفوس.

وكانت فلسفة الكِتاب قوامها إظهار ما للروح البشرية من القوة الهائلة الخليقة بأن تقهر كل شدة وتنتصر على كل ابتلاء، فبالرغم من أن الإنسان بلا شك كائن ضعيف وجسده سرعان ما يغتاله مرض أو حادث أو غيرهما، فإن الروح البشرية بجرأتها وجلَدها وقوة احتمالها تستطيع أن تجعل من الموت نفسه نصرا باهرا وفوزا مبينا، فقوة الروح هي التي

تتيح للجسد قدرة على المقاومة وصبرًا على المكاره وثباتًا عند الفواجع والمِحَن، ما يبدو وكأنه ضرب من المعجزات، والقصص الواردة في الكتاب اعتمدت على مؤلفي السِّير وكُتاب التاريخ والسجلات الحقيقية للوقائع التي حدثت بالفعل، وعلى الفعال التي جرت حقا ودلت على أن روح الإنسان التي لا تقهر تزداد تألقا ولمعانا كلما ادلهمت الخطوب.

وقد تذكرت محتوى هذا الكتاب في فترات عديدة من رحلة مرضي واسترجعت ذاكرتي قصصَ الألم والمقاومة وشجاعة النفس البشرية في الخروج من المُلمات والتغلب على الشدائد، مدللة على أن قدرة الإنسان على الاحتمال ليس لها حدود متى واجهت الاختبارات المؤلمة والأيام المظلمة أو الظروف القاسية غير المتوقعة، وأننا غالبا لا نعرف حدود قدراتنا الحقيقية لأن الظروف لا تضطرنا إلى استخدامها إلى أقصى حدود احتمالها، ولكن ساعة الجد نجد أنفسنا نكتشف آفاقا جديدة لم تكن في

مخيلتنا بشأن قدراتنا على التحمل والمقاومة وتخطي الصعاب؛ ولذلك اخترت أن أستهل كتابي بهذه الملاحظات.

كما لا شك أن مقولات والدي حول الشخصيات التاريخية الشهيرة كانت دائمًا موضع اهتمامي، فمثلا حكايته عن أنه كان هناك شخص أيام الإمبراطورية الرومانية مهمته أن يسير خلف الإمبراطور وهو مُحاط في موكبه بالهتافات المؤيدة التي تصل عَنان السماء، ليقول له هامسًا في أذنه بين الحين والآخر: «تذكر أنك بشر»؛ لحثّه على التواضع وتذكيره بأن حياته لها نهاية محتومة، وكانت أمثال تلك المقولات تفتح أبواب الخيال حول حكمة القرون المتوارثة بشأن الحكام العظام وأساليب حياتهم، ونهاياتهم السعيدة نادرًا، والدراماتيكية في أغلب الأحيان؛ ولذلك أصبحت وأنا في سنوات الشباب المبكر، وكذلك أخواتي، قادرات بفضل هذه المعلومات الثرية المتراكمة عبر السنوات على أن ندلي بدلونا في حديث الكبار

بحماسة واقتدار مقارنة بمن هم في مثل عمرنا الصغير، ولذلك فهو ووالدتي لهما الفضل الكبير في تكوين شخصياتنا بهذا الشكل؛ لأنهما كانا على استعداد دائم للإجابة برحابة صدر على جميع أسئلتنا بصبر لا نهائي، وكانت كل إجابة تفتح الباب لأسئلة أخرى يتم الرد عليها بابتسامة من خلال الموسوعة البريطانية أو الموسوعة العربية الميسرة التي كان إصدارها الأول في الستينيات من القرن العشرين في مجلد ضخم، وكانت هذه الطريقة في التربية مصحوبة بقدر هائل من الحب والحنان إضافة إلى الانضباط والالتزام، وقد اتبعنا أنا وأخواتي نفس النهج مع أولادنا، ونحاول الآن أن ننتهجه مع أحفادنا الأحباء بقدر الاستطاعة، بالنظر إلى أهمية تكوين الشخصية في سن مبكرة.

وكان والدي يقول لنا دائمًا عند مجابهتنا للصعاب والمشكلات إن ما نشكو منه سيمر حتما بعد فترة من الوقت، وحينئذ سيبدو لنا صغيرًا لا يستحق الاهتمام، فنحن أقوى مما نظن بكثير. وكان

يستخدم تعبيرًا يقول فيه أن نرفع أنفسنا إلى مستوى السُّحب وننظر من أعلى وكأنه قد مرت سنوات على الحدث الذي يؤرقنا في الحاضر فنجده حدثًا عابرًا لا يستحق ما أحسسنا به سابقًا من حزن وقلق، ولكن بقدر ما تعلمناه من الوالدين الحبيبين فإننا نكتشف بمرور الزمن عندما تداهمنا الأخبار الحزينة أو تفاجئنا الأمراض الخبيثة أنْ لا شيء يؤهلنا حقيقة لنتغلب على ذلك سوى رحمة الله، ومشاعر الحب التي يحيطنا بها محبونا.

وجاءت فكرة هذا الكتاب الذي بين أيديكم بعد شهور طويلة من مشاعر متضاربة تتراوح بين الصدمة والحزن والفزع وفقدان التوازن، يصاحبها الألم الذي بدا وكأنه لن ينتهي، ترافقه في ذهني العشرات من الاحتمالات المرعبة التي لا يعلم أحد ما إذا كانت ستتحقق أم أن الدعوات الصالحات يمكن أن تصرفها بعيدا عني، وبعد مناقشات طويلة مع عائلتي الحبيبة التي وقفت بجانبي وساندتني دائما في الطريق المليء بالأشواك، اقتنعت بناء على

طلبهم وحماستهم أن أحاول كتابة قصتي التي بدأت في السنة الأخيرة (٢٠١٦)، لعلها تنفع أحدًا غيري أو تخفف عنه أو تشجعه على الصبر والمقاومة، أو تخبر أحفادي بالمزيد عن جدتهم التي امتلأ قلبها بحبهم، وتترك لابنتَيّ المزيد من ذكرياتنا معا وكيف كنا مترابطين، أو ربما تُلهم البعض أن الآمال يمكن أن تتحقق، وأن الشفاء التام قد يحدث أحيانا فنعيش ونكافح ونحارب المرض اللعين بهذا الأمل وهذه الروح الوثابة للانتصار على الصعاب.

وقبل أن أبدأ قصتي، يجب أن أذكر أنني من إحدى عائلات الطبقة الوسطى التي كانت تعتمد على عمل الأب والأم رحمهما الله وأدخلهما فسيح جناته، فكان والدي ومَثلي الأعلى وكيل نيابة نابهًا، ثم قاضيا محترما، ثم محافظا مخلصا في أداء واجبه، ثم وزيرا مستنيرا للعدل أيام الرئيس جمال عبد الناصر، وما زلنا نحن بناته الأربع نعيش على سمعته الطيبة ونفخر بأننا بنات ذلك القاضي النبيل والرجل العظيم الذي عُرف بمصداقيته وعدالته،

وحظي باحترام جميع أقرانه، أما والدتي الحبيبة فكانت طبيبة أطفال متميزة، ولكنها لم تفتح أبدا عيادة خاصة بسبب شغل والدي للمناصب العامة، ووقفت دائمًا مساندة له في جميع مواقفه، وأدت عملها في وزارة الصحة حتى وصلت إلى أن تكون وكيلا لها، ورعتنا جميعا بحنان وحزم في آنٍ واحد، وكل ما اكتسبناه من خصال طيبة واحترام للآخرين هو نتاج لتربية الوالدين الحبيبين، وكان أهم ما علمانا هو أن نعامل الناس بمثل ما نحب أن يعاملونا، وأن تكون قلوبنا مفتوحة للتسامح حيث خير الناس هم أنفعهم وأعذرهم للناس، وقد سِرنا دائمًا على نهجيهما، آملين أن نكتسب رضاهما عنا حتى نلقاهما في الجنة بإذن الله.

وتبدأ أول سطور هذه القصة في عام ٢٠١٦ الذي بدا لي كعام يحمل الكثير من الأخبار الطيبة، وأنا إنسانة متفائلة بطبعي مقبلة على الحياة، ودائما أتوقع الأفضل، وأقبل الأسوأ عندما يحدث استنادًا على أننا لو علمنا الغيب لاخترنا الواقع، وأنا

وأخواتي تربينا مثل الكثيرين في منزل يحيطه الحب والاحترام، ثم تزوجت ممن يشاركني نفس المشاعر، وسعدت بإنجاب فتاتين جميلتين تزوجتا بشابين أعتبرهما كأولادي، أهدونا أربعة من الأحفاد الأحباء الذين هم بمثابة «مكافأة نهاية الخدمة»، وكان دائمًا لديَّ إحساس ما بأن الحياة ما زالت طويلة أمامي، وأن الله سبحانه وتعالى سيكرمني بمشاهدة الأحفاد الأحباء يكبرون وربما يتخرجون ويتزوجون، وأنه لا يسعني أن أطلب أكثر من ذلك.

وإضافة إلى ابنتَيَّ وأحفادي فلديَّ زوجٌ مُحب وداعم، كنت قد كتبت عنه مقالا مؤخرا قبل المرض بعنوان «ربنا يجعل يومي قبل يومه»، كما يقول المثل الدارج، وفي سنة ٢٠١٥ أتاحت لي الظروف أن أقوم وزوجي برحلتين طويلتين غير مُخطط لهما؛ إحداهما للولايات المتحدة في بداية العام، والأخرى إلى الشرق الأقصى في نهاية العام، وقد رأينا خلالهما أماكن جديدة وزرنا مواقع لا نراها إلا في الأفلام السينمائية؛ ولذلك قلت لعائلتي قبل بداية

٢٠١٦ ضاحكة: أخشى أن يكون موعد رحيلي عن هذا العالم قد اقترب؛ لأن الله أكرمني برؤية كل ذلك في عام واحد، ومَزحنا جميعا بشأن ذلك فصحّتي كانت على ما يرام وكنت قد أجريت تحاليلي الدورية في وقت قريب ولم يكن بها شيء يثير القلق أو يشير إلى أنني على وشك أن أواجه وعائلتي محنة صعبة ستؤثر على حياتنا بطريقة دراماتيكية، وتغيز مسارها إلى الأبد، كما سيظهر في الصفحات التالية.

الصفحة ما قبل الأولى

نُذر العاصفة

بدت سنة ٢٠١٦ وكأنها سنة تحمل لي الخير والأحداث السعيدة، ففي بداية شهر يناير تلقيت مكالمة غير منتظرة من الرئاسة المصرية تبشرني بأنه قد تم اختياري ضمن قائمة المُعينين من قِبل السيد الرئيس عبد الفتاح السيسي كأعضاء في مجلس النواب الجديد، وكانت تلك مفاجأة سعيدة للغاية، وخاصة أنه قد تم تعييني وفقا لوظيفتي في المجتمع المدني كمدير تنفيذي لإحدى المؤسسات الخيرية الكبرى، واستبشرت بذلك خيرا لأنه سيدعم أنشطة المؤسسة التي شاركْت منذ عام ٢٠٠٩ في تأسيسها وأحببتها وتفانيت في خدمتها عبر السنوات الطويلة، وأعطيتها أقصى جهدي وخبرتي منذ اختياري لشغل هذه الوظيفة، وتضمنت مسئولياتي منذ اليوم الأول الترويج لنشاط تلك المؤسسة لتحتل مكانها اللائق في المجتمع المدني

إلى جانب العمل للحصول على التبرعات اللازمة لدعم النشاط وعلاج المرضى بالمجان من الأطفال والكبار على حد سواء.

وكنت في ذلك الوقت أبدأ السنة الثامنة من عملي بالمؤسسة بتفاؤل وأمل في المزيد من النجاح في خدمة المرضى؛ لأنني كنت أعتبر هذا المشروع جزءًا من حياتي لا يمكن الاستغناء عنه، وتشغلني تفاصيله ليل نهار، وأحب فريق العمل معي كما يحبونني، ويلهمنا هذا المشروع جميعا لخدمة المواطنين والفئات الأقل حظا، ولأننا أخلصنا في عملنا، فبفضل الله أحبنا الناس مثلما أحببناهم وأصبحت هناك علاقة ثقة متبادلة بيننا وبين الجمهور المصري تقوم على الإيمان بنبل الهدف والقضية التي نعمل من أجلها، فبماذا يمكن أن يطمع الإنسان في أكثر من ذلك؟!

وإضافة إلى ذلك فلا شك أن لحظة أدائي اليمين في مجلس النواب كانت لحظة مليئة بالسعادة

والفخر وكثير من الشجن في آنٍ واحد؛ فتحت نفس هذه القبة وقف والدي الحبيب كوزير للعدل مدافعا عن المرأة المصرية عندما أصدر قراره التاريخي بوقف تنفيذ حكم الطاعة بالقوة الجبرية (عن طريق قوات الشرطة، كما كان يظهر قديمًا في أفلام السينما المصرية)، وكما حكى لنا بعد ذلك فقد كانت شرفات المجلس الموقر تزدحم بالنساء من الشخصيات العامة وقادة الرأي المؤيدات لقراره، وفي تلك اللحظة المؤثرة عند قراءتي لليمين تصورت أن والدي رحمه الله يشاهدني واقفة تحت نفس القبة أؤدي دوري في خدمة وطني بقدر ما أستطيع، وتمنيت أن يكون فخورا بي.

إضافة إلى ذلك، فإن شهر يناير يشهد احتفالي مع زوجي العزيز وابنتَيّ وأحفادي، إضافة إلى شقيقاتي، بيوم ميلادي الذي نلتقي فيه جميعا في جو من المحبة والألفة، وضحكات الأبناء ومعاكسات الأحفاد وتلعثمهم المحبب في كلماتهم الأولى، وفي تلك الاحتفالات العائلية نلتقط الصور ونطفئ

الشموع ونتبادل الأخبار والحكايات؛ ولذلك كنت دائمًا أتطلع إلى هذا الاحتفال العائلي البسيط المليء بالدفء والسعادة في بداية العام.

وفي تلك الأيام المبشرة بالخير سعدت للغاية بتهنئة الجميع لي بعضويتي في مجلس النواب، ومنهم أعضاء مجلس أمناء المؤسسة الذين كانوا دائمًا يمازحونني بتوقعاتهم بتعييني في المجلس، نظرا، كما يقولون، لكفاءتي وسمعتي الطيبة، وقد أرسلوا لي جميعا مراسلات تهنئني وتفخر بأن مديرة مشروعهم قد تم اختيارها للتعيين بالمجلس الموقر.

وفي ضوء ما سبق بدأت العام ٢٠١٦ بتفاؤل شديد وحماسة بالغة لبذل كل جهدي للموازنة بين دوري الوظيفي الذي أحبه من أعماق قلبي ومسئولياتي في مجلس النواب، مع حرصي البالغ على عدم التقصير في أيهما، وتولدت لديَّ طاقة إيجابية لا توصف وكأني قد عدت إلى سن العشرين بآماله

وأحلامه، خاصة أننا كنا نتأهب لعرض نتائج الأعمال في عام ٢٠١٥ على مجلس الأمناء، وكان فريق العمل وأنا سعداء للغاية أن حققت المؤسسة للمرة الأولى رقما غير مسبوق من تبرعات المصريين لأنشطتنا الخيرية بلغ مئات الملايين، ولذلك قمنا بتجهيز الوثائق والصور والرسومات اللازمة لمشروع التوسع في خدماتنا الطبية حتى نتغلب على مشكلة قائمة الانتظار الطويلة من المرضى؛ وبناء عليه توقعنا اجتماعا ناجحا ومبشرا لمجلس الأمناء في بداية العام.

وبالتالي دخلت اجتماع مجلس الأمناء في مدينة أسوان الجميلة في نهاية يناير ٢٠١٦ بابتسامة عريضة كعادتي، متوقعة اجتماعا إيجابيا هادئا، ولكن للأسف، ولصدمتي الشديدة انتهى هذا الاجتماع الدوري بأولى اللطمات المؤلمة التي تلقيتها في عام ٢٠١٦، وقد تكون في اعتقادي الشخصي، هي السبب في إصابتي باللطمة القاتلة التالية بعدها بأشهر معدودة، فلدهشتي البالغة طلب

مني اثنان من أعضاء المجلس الموقر بعد جلسة مغلقة عقداها منفردين أن أتقدم باستقالتي من منصبي في المؤسسة، وعندما دهشت لذلك وقلت إنني أتمسك بوظيفتي التي أعتز بها من كل قلبي وأكدت لهم صادقة أنه إذا خُيرتَ بين وظيفتي في المؤسسة وتعييني في البرلمان فإنني سأختار دون تردد المؤسسة التي ساهمت في إنشائها منذ اللبنة الأولى وشهدت تطورها عبر السنوات الطويلة، ولكن لذهولي الشديد رد نائب رئيس مجلس الأمناء قائلا ولكننا لا نريدكِ معنا في المؤسسة ومستعدون أن نعرض عليكِ مكافأة مالية سخية لتستقيلي!

ومهما حاولت أن أصف لكم الألم الصارخ الذي أصابني، وكأنه سكين حاد نفذ في صدري فجأة على غير انتظار ليستقر في أعماق قلبي مسببًا ألمًا جسديًا بالغًا، بينما أجلس في مقعدي في شبه ذهول أنظر للأعضاء الرافضين لاستمراري، ومهددين بالرحيل إذا استمر تواجدي في المؤسسة، فلن أستطيع أن أنقل مدى الإحساس بالصدمة والقهر أن

يكون هذا هو جزائي بعد كل ما فعلته من أجل هذه المؤسسة، وشعرت أنني أعيش كابوسا قاسيا لا أستطيع أن أستيقظ منه، وأن مَن عملت معهم بإخلاص قد طعنوني غدرا دون مبرر منطقي، ولم أكن قد مررت بمثل هذه التجربة القاسية طيلة حياتي العملية التي لاقيت فيها دائمًا الاحترام والتقدير بقدر إخلاصي في العمل.

قد يتساءل البعض عن أهمية هذه التفاصيل في قصتي؟ ولماذا أشغلكم بها؟ وردّي على ذلك هو أنه بهذه السطور المعدودة تبدأ القصة الحقيقية التي يعرفها كل مَن يعمل في المؤسسة؛ فمجلس الأمناء قد شهد مفاجأة كبيرة خلال مناقشاته في أسوان بعد أن هدد نائب رئيس مجلس الأمناء بدفع مؤسس المشروع الشهير لمغادرة مصر والتخلي عن المشروع إذا لم يتم فسخ عقدي مع المؤسسة، برغم أنه كان ما زال ساريًا حتى نهاية عام ٢٠١٧ (أي كان ما زال متبقيا منه حوالي عامين)، والحقيقة أنني ما زلت غير متأكدة حتى الآن من دوافعه لذلك؛ سواء

كانت سياسية أو غيرها، كما أخبرني آخرون من داخل المجلس، ولكن ما كسر قلبي بالفعل هو أنني قد رجوت رمز المؤسسة الشهير أن يسمح لي بالاستمرار في أداء وظيفتي، ولكنه خذلني دون مبرر، وأحزنني الأمر أكثر حين أبلغني بعض أعضاء فريقه من الأطباء بعد هذا الاجتماع أنه قد أخبرهم في اليوم التالي له أنه لم يكن راضيا عن تخليه عني؛ ولكن اضطر لذلك حيث كانت عليه ضغوط شديدة من عضوَي المجلس اللذَيْن تربطهما به علاقات أخرى خارج المؤسسة وخارج مصر، المهم أن المجلس قد قرر إنهاء عقدي قبل موعده بـ ٢٢ شهرًا مع امتناعهم عن صرف مستحقاتي حتى هذه اللحظة مما أعتبره ظلما شديدا.

وعندما تم إبلاغي بالقرار لم أصدق نفسي من الصدمة، ورجوت أعضاء المجلس أن يجربوني لمدة ٦ أشهر، وإذا وجدوا أن مستوى أدائي في المؤسسة قد تأثر بعضويتي في البرلمان فإنني سأتقدم باستقالتي من أحدهما عن طيب خاطر؛ لأن

المؤسسة هي جزء أساسي من حياتي وسيكسر قلبي تركها جبرًا وغصبًا، ولكن نائب الرئيس رفض رجائي رفضا قاطعا لأسباب لا يعلمها سوى الله، وربما يأتي اليوم الذي أستطيع فيه الإفصاح عن كثير من الأسرار والخفايا في هذا الموضوع.

وبرغم أن رئيس المجلس وبعض الأعضاء قد جلسوا بجانبي بعد الاجتماع محاولين تبرير ما حدث، ومعتذرين عن عدم قدرتهم على تغيير القرار دون تأييد مؤسسها الصريح لبقائي، وأشاروا إلى أنه جلس ساكنا مطرقا رأسه إلى أسفل بينما قام نائب رئيس مجلس الأمناء بهجومه الظالم ضدي لأسباب لم يفهموها ولم ينبس هو بكلمة واحدة في صالحي برغم عملي معه بإخلاص لمدة ثماني سنوات.

غادرت بعد ذلك مكان عقد الاجتماع مُنكسرة الخاطر وذهبت وحيدة إلى الفندق برغم ضغط فريق العمل المقرب لكي يذهبوا معي وعيونهم ملأى بالدموع، ولكني كنت أحس بالوحدة الشديدة

وانهيار عالمي من حولي، وأن الود والتقدير قد انتهيا من هذا العالم، وأن المشاعر الإنسانية قد اختفت، وأن مَن أخلصت لهم العمل قد وجهوا لي طعنة غادرة بقسوة بالغة غير مبررة، وكنت أود الانفراد بنفسي حتى لا أضعف أمام الآخرين، خاصة وأنا على بُعد آلاف الكيلومترات من أحبائي؛ زوجي وابنتيّ.

وقضيت ليلة حالكة السواد حتى صلاة الفجر وقد انهمرت خلالها دموعي الساخنة على وجهي دون توقف، داعية الله أن يقف بجانبي حتى أتخطى هذه اللحظات المؤلمة، ولم أستطع الحديث إلى زوجي من كثرة البكاء والشعور بالقهر الشديد، ولم أنم لحظة واحدة في تلك الليلة القاسية التي أخذت خلالها أسترجع رغما عني أحداث هذا اليوم الحزين الذي جاءتني أحداثه غير المتوقعة على حين غرة وأنا سادرة في أحلامي المتفائلة عن مستقبلي مع المؤسسة، ولم أكن قد واجهت مثل هذا الموقف طيلة حياتي؛ فقد كنت دائمًا موظفة

ملتزمة للغاية بالقواعد والنظم، ولم أقصر قط في واجباتي، وأبذل دائمًا أقصى جهدي في أدائها؛ ولذلك لم أستطع استيعاب ما حدث لي، ولم أجد له مبررا، فجلست وحدي في ظلام الغرفة وسكونها القاتل وكأنني في كابوس ثقيل، متمنية مرور الدقائق البطيئة حتى الصباح المبكر لأستقل طائرة السادسة صباحا وحدي للعودة إلى القاهرة.

شعرت منذ تلك اللحظات وكأنني قد انفصلت عن هذا العالم الظالم من حولي وأخذت أتصرف بطريقة ميكانيكية لتجهيز حقيبتي الصغيرة ومغادرة الغرفة والابتسام في وجه موظفي الفندق الودودين، وأحسست وأنا في المطار الذي أحفظ كل ركن فيه عن ظهر قلب وكأنني وحيدة في هذا العالم برغم كثرة مَن يحيونني بحرارة فيه لمعرفتهم بشخصي في أسوان، ولكنني كنت أحس وكأنني في عالم آخر غير الذي كنت أعرفه وأطمئن إليه، ومرت عليّ الساعة التي قضيتها في الطائرة وكأنها دهر كامل، وأغمضت عينيّ محاوِلة النعاس لتمرير الوقت،

ولكنني فشلت، وظلت تدور في ذهني وقائع اليوم السابق وكأنها كابوس يُطْبِق على أنفاسي وأتمنى أن أستيقظ منه دون جدوى.

وعُدت إلى المنزل والدموع تملأ عينيَّ لأرمي نفسي في أحضان زوجي الذي ظل يربت على ظهري في محاولة لتهدئتي، ولأول مرة منذ ٢٤ ساعة أشعر بالأمان بعد أن كان يحيطني شعور أن العالم تملؤه وحوش جاحدة القلوب ومتحجرة المشاعر، ولازمت غرفتي يومَي الجمعة والسبت غير راغبة في الحديث إلى أحد، بينما توافدت ابنتاي وشقيقاتي في محاولة للشد من أزري ورفع معنوياتي، مؤكدات أن هذه المعاملة المتسمة بالغدر ونكران الجميل لا يجب أن تقضي على ثقتي بنفسي وثقتي بالناس الذين صدّقوا رسالتنا في المؤسسة.

ولكنني ظللت لأسابيع طويلة لا أصدق أن بعض البشر لديهم هذه القدرة الخارقة على إيذاء الآخرين

عن عمد ودون أن يهتز لهم جفن، فقد وضع بعض أعضاء مجلس الأمناء نهاية مفاجئة محزنة وصادمة وظالمة لوظيفتي التي أحبها؛ وقد حال قرارهم ليس فقط بيني وبين الاستمرار في مشروع خيري ساهمت بإخلاص وتفانٍ في إنشائه ونجاحه، ولكنه أيضا قد حرمني من دخلي الشهري الذي أعتمد عليه؛ فأنا لست سيدة أعمال وإنما عملت طوال حياتي معتمدة على نفسي.

وللأسف، فقد زاد من حزني قيام المؤسسة بممارسة ضغوط شديدة ومستمرة هدفها أن أقوم بإصدار بيان إعلامي يعلن أنني مَن قررت الاستقالة وترك المؤسسة من تلقاء نفسي، وبالتالي أظهر أمام الرأي العام وكأنني ضحيت بعملي الخيري، للذهاب إلى مجلس النواب، معلنين بصراحة وبوجه مكشوف أنني إذا فعلت ذلك فسيقومون بصرف كل مستحقاتي؛ لأنهم يريدون بذلك المحافظة على صورة المؤسسة أمام الرأي العام لكي لا يقال إن المؤسسة الخيرية التي منحتُها جزءًا هامًّا من

حياتي قد قررت الاستغناء عني فجأة، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إنهم أبلغوني من خلال سكرتيرتي بعدم ذهابي إلى مكتبي منذ اليوم التالي للقرار، وفتشوا مكتبي وغيروا مفاتيح غرف المكتب، بالرغم من أنني لا أحتفظ بنسخة من تلك المفاتيح، وقد قضيت أسابيع طويلة لا أستطيع الخروج من حالة الحزن والقهر التي لم أعايشها من قبل، ولولا الدعم المعنوي من زوجي وابنتَيّ وأخواتي وصديقاتي لما استطعت استعادة سلامي النفسي.

وقد فوضت أمري لله، ولم أتحدث في الموضوع علنًا حتى هذه اللحظة، حيث مر على ما حدث ما يقارب العامين، ومهما يمر الزمن فلن أنسى أبدا هذين الوجهين القاسيين اللذين قررا إنهاء مصيري المهني بلا شفقة ولا رحمة، وأتذكر ملامحهما الباردة وابتسامتيهما الصفراء عندما أبلغاني القرار المحتوم، وإنني أثق أن الله سبحانه وتعالى سيأخذ لي حقي وسينصفني، سواء في هذه الدنيا الفانية

أو في الآخرة.

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فلا بد أن أعرب هنا عن مدى امتناني وشكري العميق لفريق العمل العزيز الذي عمل معي في المؤسسة كفريق واحد، وكان بينهم تناغم وصداقة وتعاون، واعتبرتهم دائمًا كعائلتي، وقد تأثر البعض منهم عندما حدثت تلك التطورات في المؤسسة فتركوا العمل بها بعدي بأشهر قليلة، وقد وفقهم الله في وظائف أخرى، وهم يساندونني معنويا طيلة الوقت، ويسألون عني بصفة مستمرة، وأنا أسعد بهم جدًّا عندما يزورونني ونتبادل الأخبار وأحاديث المودة في إطار الصداقة الخالصة، ولا شك أن بعضهم قد أصبحوا الأقرب إليّ بحكم طول فترة عملهم معي بصورة مباشرة، ولذلك فأنا أعتز بهم جميعا وأتمنى لكل فريق العمل الخير في مستقبلهم، كما أنني أعتز بصداقتي بالفريق الطبي المتميز في المؤسسة وأتمنى لهم المستقبل المُشرق الذي يستحقونه عن جدارة، ويجب أن أذكر أنني قد سعدت بجميع الجهات التي

تعاونت معنا لتحقيق هدفنا في خدمة المرضى، ورسم الصورة الجميلة لخدمات المؤسسة التي سأظل دائمًا أتمنى لها الاستمرار في خدمة المرضى، بغض النظر عن تصرفات بعض القائمين عليها.

وأنا أؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يحدد لنا أقدارنا، وبقدر ما انكسر قلبي مما حدث لي من المؤسسة فإنني قد حمدت الله كثيرا على تعييني في مجلس النواب، وعاهدت نفسي أنني سأبذل كل طاقتي لأداء مهامي الجديدة؛ محاوِلة خدمة المواطن البسيط؛ كما كنت أفعل في المؤسسة، ولكن بطريقة أخرى، وقررت أن أفتح صفحة جديدة، وأن أرمي، كما يقال، حمولي على الله سبحانه وتعالى.

وتابعت عملي في مجلس النواب ونشاطي التطوعي في المجتمع المدني دون مشاكل، لتمر بضعة أشهر ويأتي موعد التحاليل الدورية التي أجريها كل ستة أشهر، والتي كان آخرها في ديسمبر

٢٠١٥ وكانت والحمد لله كلها على ما يرام حينها، ولكنني تأخرت في إجرائها عن يونيو ٢٠١٦ نظرا للظروف، فأجريتها في آخر يوليو، ثم سافرت إلى أحد المؤتمرات قبل ظهور النتائج ونسيت الموضوع تماما عند عودتي بعد أيام من السفر، وهنا لاحظت أن زوجي يلاحقني بطلب متكرر يوميا بضرورة الذهاب إلى المعمل لعمل تحليل للسيولة في الدم؛ بدعوى أنهم قد نسوا قياسها وأنا أعاني منها منذ سنوات، وبعد الكثير من المماطلة نظرا لانشغالي ذهبت للمعمل (والذي اكتشفت بعد ذلك أن زوجي كان متفِقا معهم ليؤيدوا قصته)، وفعلا أخذوا العينة ونسيت الموضوع كالمعتاد، ولم أسأل عن النتائج، ولم تخطر ببالي في زحمة العمل، وعندما كنت أسأل شريف عنها كان يقول إنني نسيتها في السيارة أو نسيتها في المكتب، وهكذا.

وبينما كان الوقت يقترب من تاريخ ذهابنا إلى المصيف مع الأحفاد في شهر أغسطس وجدت زوجي يلاحقني من جديد لأذهب إلى الدكتورة

نجلاء عبد الرازق المتخصصة في أشعات الأورام؛ وهي طبيبة نابهة ذات سمعة ممتازة تقع عيادتها في منطقة المهندسين، وأتواصل معها دوريًا لأطمئن أنني على ما يرام، وقد أقنعني بالذهاب إليها بعد مقاومة شديدة مني وبتكراره أن هذا هو الموعد الدوري للمراجعة ولا يجب إهماله، وقد وافقته في نهاية الأمر تخلصا من هذا الإلحاح ظنا مني أنه قلَق غير مبرر على سلامتي الصحية، وقد اندهشت عندما أخذ موعدا فوريا في اليوم التالي؛ حيث إن مواعيد الدكتورة نجلاء دائمًا شديدة الازدحام، وذهبت وأنا متضررة اعتقادًا مني أن هذا إهدار للوقت دون داعٍ، واكتشفت بعد ذلك أنهما كانا متفقَين على توجيهي لإجراء أشعة متقدمة (التصوير المقطعي بالانبعاث البوزيتروني ـ Pet Scan) بعد اطلاعهم على نتائج التحاليل التي تتضمن دلالات الأورام التي وصل مؤشرها إلى ٢٥٦، وهذا رقم شديد الارتفاع؛ حيث إن حدودها الآمنة من المفروض ألا يتعدى مؤشرها ٣٥، ولذلك فقد

أصرَّ زوجي على تكرارها تأكدًا من الأمر الذي أعطى مؤشرات على خطورة الإصابة، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن استمرت تحاليل دلالات الأورام تسبب لي رعبا شديدا في انتظار نتائجها، وكأنها حكم بالإعدام قيد الانتظار.

ومنذ تلك اللحظة الفارقة تم فتح باب جديد مجهول الهوية في طريقي، وبدأت صفحة غامضة من حياتي لأدخل في حياة أخرى كانت تختبئ وراء ستار الزمن الغادر، فقد كنت حتى ذلك التاريخ أعيش حياة عادية ليست بها هواجس مَرَضية، ولم يهزني أو يؤلمني خلال تلك السنة إلا ما حدث مع المؤسسة في بداية العام، وباستثناء ذلك كنت مطمئنة لنمط حياتي، وسادرة في أحلامي حول مستقبل الأحفاد وما قد تأتي به الأيام من أحداث سعيدة، وكانت عائلتي العزيزة تحيط بي ونخطط لقضاء إجازة الصيف معا ومعنا أحفادي الأحباء، ولا يخطر ببالي أن حياتي على وشك أن تأخذ منحنى آخر شديد الاختلاف سيؤثر جذريا على حياتي

ومشاعر كل مَن حولي إلى الأبد.

وعليه؛ فمنذ النصف الأول من شهر أغسطس ٢٠١٦ بدأ القدر كتابة الصفحة الأولى من سطور قصتي هذه التي سأحاول أن أسردها بصفتي مريضة أصيبت فجأة بهذا المرض الخطير الذي كانت لا تعرف عنه شيئًا سوى العناوين العريضة، وسوف أحاول أن أصف مشاعري تجاه ما مرَّ بي من أحداث معظمها حزينة، ولكن تتخللها أحيانًا خيوط مضيئة من البهجة تتسبب فيها عائلتي وأحفادي الذين أُطلق عليهم دائمًا «مكافأة نهاية الخدمة»، آملة أن تجدن في هذه الكلمات الصريحة المباشرة حول تجربتي القاسية ما قد ينفعكن، أو يخفف عنكن، أو يلهمكن الأمل في لحظاتكن الحزينة؛ فأنا في النهاية واحدة منكن تقودنا جميعًا مشاعرنا، وأتوجه بالدعوات لله سبحانه وتعالى أن يُحسن ختامنا ويخفف عنا، ويمد في عمرنا لتطول رحلتنا قدر الإمكان مع الأحباء لنتمتع بهم ويحظوا برعايتنا أطول وقت ممكن.

ولذلك أرجو أن تصل إلى مشاعركن كلماتي البسيطة في الصفحات التالية؛ لأنها من القلب، وأتمنى أن تعكس لكُن مشاعري كما عايشتها بالتفاصيل اليومية خلال الشهور الطويلة الماضية دون تنميق؛ فأنا لست طبيبة أو خبيرة في هذا المجال، وحتى الآن لا أعرف معلومات دقيقة أو مؤكدة عن هذا النوع المحدد من سرطانات النساء الذي أصبت به، ولكني أعلم تمام العلم ما شعرت به عندما واجهتني هذه المفاجأة الصاعقة، وكيف تراوحت مشاعري صعودا وهبوطا في منحنيات حادة وكأنني أركب إحدى ألعاب مدينة الملاهي التي تصعد بكِ إلى أقصى ارتفاع ممكن ثم تقذف بكِ في لحظة واحدة إلى الأسفل، بحيث تكادين تصطدمين بالأرض، في رحلة رعب لا تقوى عليها القلوب الضعيفة، وهذه التجربة الشخصية هي ما سأحكيه لكُن في الصفحات التالية لتعِشن معي جزءًا من حياتي.

الصفحة الأولى

سرطان!!! أكيد مش أنا

تبدأ سطور الصفحة الأولى من تجربتي مع هذا المرض اللعين كما نقرأ عن صفات وملامح «السرطان» الذي يخشاه الجميع ويتحدثون عنه بقلق وخوف بإجراء الأشعة التي ألحَّ زوجي على الدكتورة نجلاء عبد الرازق أن تطلب مني إجراءها بأسرع ما يمكن دون أن تخبرني بتفسير لذلك سوى أننا نراجع بعض نتائج التحاليل لا أكثر ولا أقل، وقد قالت لي ذلك بابتسامة جميلة، وبالتالي لم يساورني أي قلق، واعتبرت المسألة استمرارًا لهواجس زوجي التي اعتبرتها غير مُبررة في ذلك الحين، وبالفعل تم أخذ ميعاد عاجل بوساطة الطبيبة في صباح اليوم التالي في «ألفا سكان»؛ وهو أحد المراكز الشهيرة للأشعة، وطيلة الطريق إلى المنزل أخذت ألوم شريف في غضب على هواجسه المبالغ فيها، وتشاجرنا بسبب ضغطه المستمر لإجراء أشعات

وتحاليل دون سبب مقنع في نظري، واحتمل المسكين عصبيتي وانفعالي لأنه لم يكن قادرا على إخباري بدوافعه الحقيقية المؤسسة على نتائج تحاليل الأورام، التي اطلع عليها سابقا وأفزعته، وكان يأمل أن تثبت الأشعة في اليوم التالي أن الأمر أبسط مما يظن، أو أن المرض الخبيث ما زال في مراحله المبكرة. وعندما أفكر في الأمر الآن أقول لنفسي ربما كان شعوري الداخلي أو حدسي يخشى من نتائج مخيفة للتحاليل؛ وبالتالي نفّست عن قلقي بالانفعال على شريف.

قضيت ليلتي قلقة لأنني أكره الذهاب للأطباء بصفة عامة، وفي الصباح ذهبت مع شريف إلى المركز وأنا واثقة تماما أنه ليس هناك شيء يبرر هواجسه؛ فقد أجريت تحاليل سابقة منذ ثمانية أشهر فقط، في ديسمبر ٢٠١٥، ولم يكن بها أي شيء يدعو للقلق. ودخلت قاعة الانتظار المكتظة بالمرضى الذين كان معظمهم من الطاعنين في السن، وواضح أنه يرافقهم بعض الأقارب الأصغر

سنا كنوع من الدعم المادي والمعنوي، وتأملت الجدران النظيفة ذات الألوان الحيادية والصور الملونة لمناظر طبيعية جميلة، ولفت نظري الحركة الدائبة المنظمة لفريق العمل بين أخذ الأوراق وتصنيفها في ملفات، ثم النداء على المريض الذي سيغادر غرفة الانتظار إلى مكان الكشف وأخذ صور الأشعة، ورغم أن الوقت كان في الصباح المبكر، فإن الازدحام الشديد أجبرنا على الانتظار لفترة طويلة قبل أن يتم النداء بالاسم لأخذ دوري في إجراء أشعة الـ«pet scan»، فجلسنا باطمئنان ولكن بملل وإحساس بلوم داخلي لزوجي حيث كان شعوري طيلة الوقت وكأنني أشاهد فيلمًا ليس لي دور فيه.

بعد انتظار قصير أتت إحدى الممرضات لدعوتي للداخل لإعدادي لإجراء الأشعة المطلوبة وشرب كمية من الماء مخلوطة بمحلول يساعد على وضوح الأشعة، وأظن أنه كان محلولا يحتوي على الصبغة، ثم استدعيت لغرفة أخرى بدون شريف، بها ستائر تقسمها إلى مساحات صغيرة لانتظار كل مريض،

وتمر الممرضات بين الحين والآخر للتأكد من شرب السائل قبل دخول غرفة الأشعة، وهذه كانت فترة مملة وطويلة لا تمر بها الدقائق إلا بصعوبة شديدة، خاصة وأنني كنت وحدي وبدون شريف، وكلما فُتح الباب آملت أنه دوري، ولكن لم يحدث ذلك إلا بعد فترة طويلة، ويبدو أن السبب في ذلك أن هذه الأشعة تستغرق وقتًا أطول من غيرها، وكان كل ما يشغل بالي خلال فترة الانتظار هو أن هذه الأشعات تستلزم الاستلقاء على الظهر في أسطوانة مفتوحة من الجانبين ولكنها مغلقة من الأعلى تكاد تطبق على صدرك مما يسبب لي التوتر، ناهيك عن أن الجهاز يُصدر بين الحين والآخر تعليمات ذات صوت معدني بارد يطلب كتم النفَس لأسباب التصوير الإشعاعي، وهو الأمر الذي يُشعرني أنني على وشك الاختناق.

لذلك فأنا في مثل هذه الأحوال عادة ما أغلق عينيّ وأقرأ الفاتحة وسورًا قصيرة من القرآن حتى ينتهي الوقت الطويل لإجراء الأشعة، وأحيانا كنت

أغفو لدقائق، وهذا ما حدث لي أيضا في هذه المرة حيث غيرت ملابسي وارتديت ثوب الكشف الأزرق وطلبث مني الممرضة الصعود إلى سرير الأشعة وتثبيت ذراعيّ في وضع معين، مؤكدة على ضرورة الثبات على ذلك الوضع لنجاح صور الأشعة، فأومأت برأسي موافقة على كلامها. وبعد دقائق قليلة بدأ الجهاز الأسطواني الكئيب عمله في رتابة وأنا أفكر في الطبيب الذي يجلس في الغرفة الزجاجية يتابع صور الأشعات التي يثبت بعضها سلامة صحة أصحابها أو إصابتهم بعوارض يمكن علاجها والشفاء منها، بينما البعض الآخر يشير إلى مصيرهم المحتوم، وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على نفسية ذلك الطبيب، ولكني تذكرت حينها واحدا من أقاربي الأطباء الشبان الذي قال لي إنه بعد العمل في غرفة الطوارئ لفترة من الوقت تفقد تأثرك بما تراه أيًا كانت خطورته وتتعامل مع الأمر بصفته روتينًا يوميًا.

وبدأت كالعادة أقرأ الفاتحة وسورًا قصيرة، وبدأ

النعاس يراودني بعد قليل، ولكن المختلف هذه المرة أنني قد فوجئت بعد إغلاق عينيّ بفترة لا أعرف مدتها وكأني أشاهد للحظات أمامي على اليسار سُحبًا بيضاء وشخصًا يرتدي رداء أبيض طويلًا ويخاطبني قائلًا ما مضمونه إنكِ يجب أن تستعدي للذهاب لأن الوقت قد أوشك على الانتهاء ويتبقى لكِ ثلاث دقائق ثم تذهبين إلى مكان جميل، فأجبت قائلة: «وهل سيحبونني هناك؟»، قال: «نعم؛ فإنكِ ستقومين بأشياء طيبة، ولذلك سيرحبون بكِ»، ولا أعلم كم استغرق ذلك من الوقت ولكني شعرت فجأة بيد الممرضة تربت على كتفي قائلة إن الأشعة قد انتهت، ففتحت عينيّ وأنا في دهشة بالغة، فقد كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي يحدث لي فيها شيء مثل ذلك، فأنا في العادة لا أحلم، وإن حلمت فلا أتذكر أي شيء من أحلامي، فما بالك بأن أرى شيئا يشبه الرؤيا والله أعلم!

شعرت وأنا أنهض من على سرير الأشعة بالقلق؛ لأنني تذكرت أنه عندما كانت والدتي في

المستشفى، ولم نكن نعلم أن أمامها بضع ساعات فقط ثم تكسر قلوبنا إلى الأبد بمغادرتها لدنيانا، كان شريف يقف في ركن الغرفة يصلي، وعندما رفع رأسه للركعة الثانية رأى والدي رحمه الله واقفا أمامه في رداء أبيض مبتسما دون أن يتكلم، ولم يخبرنا شريف بذلك في حينه، وإنما أدرك في داخله أن والدي هناك لاصطحاب والدتي، فنزل مسرعا إلى غرفة الرعاية قرب الفجر ليجد أن والدتي قد انتقلت بالفعل إلى رحمة الله.

سألت نفسي إذا كان ما رأيته هو إشارة إلى قرب رحيلي عن هذه الحياة! أم أنه كان مجرد خاطر عابر للحظات، وقد حكيت لشريف عندما خرجت من غرفة الأشعة ما رأيته قبل أن أنساه؛ لأنني من أصحاب الذاكرة الضعيفة، ولكنه لم يَبدُ عليه شيء ولم يعطِ إجابة شافية، وعرفت بعد ذلك أنه قد أخفى الأخبار عني طوال تلك الأيام وتحمل وحده الصدمة والألم وخوفه على رفيقة حياته وهواجس احتمالات رحيلها المحتوم، ولذلك قرر أنه لن

يخبرني خلال فترة سفري ما اكتشفه من التحاليل حتى لا أواجه الأمر وحدي وأنا على بُعد آلاف الأميال.

أخبرَنا مركز تشخيص الأشعة أننا سنعرف النتائج بعد يومين، فغادرنا وعُدنا إلى المنزل دون أن يخطر ببالي أن حياتي توشك أن تشهد تحولا جذريا في مسارها، وأنها لن ترجع أبدا لما كانت عليه، واستمر شريف في مفاجآته ليخبرني مساء نفس اليوم أن النتائج قد ظهرت بالفعل نتيجة لاتصاله بكل مَن يعرفهم من الأطباء ذوي النفوذ بحيث أسرع المركز في إصدار النتيجة، كما أنه قد حدد موعدا مع أحد أكبر معالجي الأورام في مصر، الدكتور تامر النحاس، في ظُهر اليوم التالي، وقد بدا لي حينها وكأن شريف يسابق الزمن بإصرار غير مفهوم، ولكني مع ذلك استسلمت للذهاب دون أن أفهم شيئا من صور الأشعة التي كانت معنا، وحملنا صور الأشعة كبيرة الحجم واتجهنا إلى حي المهندسين لمركز الدكتور النحاس، (مركز سفنكس للتشخيص

المبكر وعلاج الأورام) في الدور الأول من إحدى العمارات الكبيرة في شارع أحمد عرابي المتفرع من ميدان «سفنكس».

وبدا لي المركز مختلفا عن مظهر العيادات النمطية؛ فالغرف متسعة ومقاعد الجلوس متوافرة، وهناك كثير من العاملين في الاستقبال، وقد حياني أحدهم قائلا بابتسامة: «أهلا سيادة النائبة»، ولم أسعد بذلك؛ فلم أكن في الحالة النفسية التي تسمح بتبادل الحديث، ولكني فوجئت بإحضاره لي عددا من مجلة «٧ أيام» وجريدة «المصري اليوم»، ليخبرني أنه متابع لمقالاتي بانتظام، فشكرته على اهتمامه ومجاملته، واتجهت إلى أماكن الانتظار حتى يأتي دوري في الكشف مترقبة وصول زوجي الذي كان آتيا من مكان آخر على اتفاق باللقاء في العيادة، وعندما استدرت لأجلس فوجئت بوجود ابنتي الكبرى سلمى التي حضرت من الساحل خصيصًا جالسة هناك بالفعل، ثم بعد بضع دقائق لحقت بها ابنتي الصغرى مها، وقد فوجئت بذلك لأن

موعدنا مع الطبيب كان في يوم عمل بالنسبة لها، وبعد دقائق أخرى وصل شريف، ونظرت لهم جميعا باندهاش لأنها بدت كزيارة عائلية موسعة للطبيب، وبدأت في التوتر والإحساس بأن هناك شيئا لا أعرفه ولا أفهمه، فسكتُّ عن الحديث ولاحظت أنهم جميعا ليس لديهم شيء يقولونه بعد تبادل القُبل وكلمات الترحيب، خاصة أنني عندما سألتهم عن سبب تركهم لعملهم والقدوم إلى العيادة، قالوا أحببنا أن نكون معكِ فقط، ومع ذلك لم يخطر ببالي على الإطلاق أنني مصابة بمرض خطير، وإنما تصورت أننا سنكتشف أنها مجموعة من الأورام الليفية الحميدة، أو بعض القُرح والالتهابات، وليس أكثر من ذلك.

وبعد فترة قليلة طُلب منا الدخول إلى غرفة صغيرة لطبيب شاب بها مكان واحد للجلوس، وبالتالي جلست محاطة بزوجي وابنتيّ سلمى ومها، وجميعنا مترقب لما سيحدث، وبدأ الطبيب يتحدث مفترضا أنني أعلم ما بالأشعة فاستمعت

إليه دون إدراك لمغزى كلماته ثم فجأة سألته هل معنى كلامك أن عندي«Cancer»؟ لأنني لم أستطع نُطق كلمة «سرطان» باللغة العربية؛ لأنها بدت في حينه مرعبة، ومجرد نطقها يعني أنني سأسير في طريق الموت المحتوم، وتصورت لا شعوريا أن قولها بالإنجليزية سيبعد عني خطرها، فأجابني الطبيب ببساطة: نعم عندكِ سرطان، بينما أنا أنظر إليه في ذهول وكلماته النمطية الصاعقة تنزلق على إدراكي كقطرات ماء على الزجاج لا تترك أثرا ولا تعني لي شيئا ولا أستوعبها على الإطلاق!

وظللت جالسة أمامه في سكون، وشريف والبنتان مثلي، وعقلي يدور بسرعة ٣٦٠ درجة في الثانية بين مختلف الاحتمالات، وأنا غير مصدقة أن ذلك يحدث لي في الواقع، وأنني قد أصبت بهذا المرض الخطير فعلا، واستمررت في النظر إلى وجهه وهو ما زال يتحدث وأنا أتساءل في ذهني ماذا أفعل هنا؟ لا بد أن هذه الأشعات وتقاريرها تخص مريضة أخرى، وأن خطأ قد حدث بتسليمها

لي كما يحدث في الأفلام السينمائية، وأن شخصا سيفتح باب الغرفة فجأة ويعتذر عن هذا الخطأ الجسيم ويخبرني أن نتائج الأشعة الخاصة بي جيدة، وأنني على ما يرام، وبالتالي سنتنفس الصعداء ونغادر جميعا المركز الطبي سعداء ونعود لحياتنا العادية، ويمكنني بعد ذلك أن أضيف هذه القصة إلى محصول القصص الكوميدية التي نحكيها عما يحدث لنا!

ولكن الوقت أخذ يمر دون أن يدخل الغرفة أحد، ورأيت اسمي ما زال مطبوعا بوضوح على حقيبة الأشعات، واسمي الرباعي ما زال مذكورا في التقارير باللغة الإنجليزية، وعندئذ ساورني شعور جارف بأنني يجب أن أغادر تلك الغرفة فورا، وأنني لا أريد أن ألعب دورا في هذه القصة المرعبة، وأنه من غير المعقول أن تكون مسطورة في قدَري، ولكني تسمَّرت في مقعدي أنتظر أن يساعدني أحد في الاستيقاظ من هذا الكابوس الذي لا يُصدَّق، وبدا لي وكأن الزمن قد تجمد عند هذه اللحظة

ورفض أن يغادرها إلى الأمام أو الخلف، ونظرت للطبيب الشاب وتعلقت بآخر أمل وهو أن الدكتور الكبير سيشرح لي أن ما أُصبت به في واقع الأمر هو شيء محدود وهيّن، وأن الطبيب الشاب قد بالغ في تفسيراته، وأن المسألة بسيطة ولا تحتاج إلى هذه الجلبة، ولن تغير من نمط حياتي، وسينتهي الأمر بأخذ بعض الأدوية ليرجع كل شيء كما كان، وذلك لقناعتي بأنه بالرغم من أنني أسمع عن السرطان طوال الوقت وأعرف الكثير من مرضاه، إلا أنني لم أتصور أن يصيبني أنا بالذات.. مستحيل!

وبعد قليل دخلنا للدكتور تامر النحاس الذي وقف لنا مُرحبا وعلى وجهه ابتسامة مُشرقة توحي بالثقة، وكأنه يعالج مرضاه من الأنفلونزا البسيطة، وليس هذا المرض المرعب، وعندما صافحني بحرارة ذكّرني بأننا كنا قد التقينا من قبل فبادلته الابتسام دون أن أتذكر؛ لأنني لم أكن في حالة تسمح لي بالتركيز، ثم جلسنا جميعا أمامه في إنصات عميق وكأنه يقرر مصيري ومصير عائلتي

إلى الأبد، وبدأ الطبيب البارع كلماته مهونا عليّ، ومؤكدا أنه قد مرت عليه العديد من الحالات التي أصيبت بنفس نوع السرطان الذي أعاني منه، ولكنهم بعد العلاج والعملية قد شفوا تماما وأصبحوا في خير حال، مضيفا إلى أننا يجب أن نبدأ العلاج فورا، فسألته بقلق: تعني العلاج الكيميائي؟! ففي ذهني أن هذا النوع من العلاج سيئ السمعة يضر بالمرضى ويصيبهم بالاكتئاب ويهلك أعضاءهم الداخلية ويغير من شكلهم الخارجي، وله آثار جانبية سلبية جدًّا، ولكنني لم أستطع أن أنبس ببنت شفة وأقول هذه التعليقات قلقًا من أن تتحقق مخاوفي في إجاباته، فأومأ الطبيب برأسه مؤكدا بنعم، إنه الكيماوي، لا أتذكر ماذا قلت أو فعلت في تلك اللحظات الصعبة سوى الإيماء برأسي خلال حديث الطبيب دون استيعاب أو فهم، وذهني الحائر ما انفك يتساءل لماذا حدث لي ذلك!

ونظرت إلى ابنتيَّ فرأيت شحوب وجه سلمى

وهي تمسك بصور الأشعة وهي جالسة على حافة الكنبة أمام مكتب الطبيب، بينما ترقرقت الدموع في عينَي مها، وعندما وصلت نظراتي إلى شريف رأيته متماسكا وكأنه كان متأهبا لسماع الأخبار السيئة ومستعدا لتأييد كلام الدكتور تامر من أنني سأتغلب على المرض وأصبح في أفضل حال بإذن الله، وهنا أكد الطبيب مرة أخرى على ضرورة أن نبدأ فورا في جلسات العلاج الكيماوي (كما اعتدنا أن نسميه)؛ لأن المرض قد تعدى مراحله الأولى، شارحا أن درجات المرض أربع درجات وفقا لخطورة الحالة، وبطبيعة الحال أسوؤها وأخطرها الدرجة الرابعة، واستطرد قائلا إن جلسات العلاج يبلغ عددها ٩ جلسات في مرحلة العلاج الأولى التي تُجرى كل أسبوع على ثلاث مجموعات، كل مجموعة من ثلاث جلسات، وبين كل مجموعة والأخرى أسبوع راحة من الأثر السلبي للعلاج الكيميائي.

ثم أضاف أننا ندخل بعد ذلك في المرحلة الثانية

من العلاج. وهي إجراء العملية الجراحية لإزالة الأجزاء المصابة بالسرطان، على أن تكون هناك فترة معينة تتراوح بين ستة وثمانية أسابيع بين نهاية المرحلة الأولى وإجراء العملية حتى نتجنب الآثار السلبية للعلاج الكيماوي في الجسم قبل الجراحة؛ لأنه كما قيل لنا يؤثر على سرعة التئام الجروح، ثم يلي ذلك ٩ جلسات أخرى بنفس النظام لنكمل عدد ١٨ جلسة، ثم يتطلب الأمر أخذ ١٧ جلسة، بمعدل واحدة كل ٣ أسابيع، ويستغرق ذلك أكثر من سنة بقليل. والهدف من تلك الجلسات الإضافية هو محاولة ضمان القضاء على أي خلايا خبيثة كان من الصعب استئصالها، أو لم يرها الأطباء أثناء إجراء العملية الجراحية، وبحسبة بسيطة فإن العلاج سيستغرق حوالي عامين.

وقد حرص الطبيب على التأكيد بأفضلية إجراء العملية بالخارج؛ إذا كانت مواردنا المالية تسمح بذلك، نظرًا لتعقدها ووجود الأورام في أكثر من مكان، والحاجة إلى فريق جراحي متكامل من

مختلف التخصصات، وضمان وجود طاقم تمريض مؤهل لهذا النوع من الجراحات، وناقشنا مع الدكتور تامر الدول المحتمل إجراء الجراحة بها دون أن يحدد دولة بعينها، فطُرحت أسماء دول مثل فرنسا أو بريطانيا، وكان طبيبنا العزيز في خلال كل ذلك محتفظا بابتسامته المهذبة، وتقف إلى جانبه إحدى الممرضات المسئولات عن تنفيذ العلاج، إضافة إلى أحد المساعدَيْن من الأطباء الشبان اللذين سيتابعان الحالة في جلسات العلاج القادمة، والاثنان يحتفظان أيضا بابتسامة محايدة، مما جعلني أتساءل في ذهني عن ماهية هذه المؤسسة العلاجية المرحة والمتفائلة، رغم أنها تكافح مرضا «عضالًا» يهدد حياة المريض تهديدا خطيرا! بينما استمر الطبيب في تخفيف وقع المرض على نفسي مؤكدا أن المرض يمكن هزيمته، وأن نسب الشفاء خلال المراحل المذكورة للعلاج تصل إلى ٧٠٪ من الحالات التي مرت عليه وتعالجت عنده، وعرض عليّ أن أقابل بعض هؤلاء السيدات لأتعرف على

قصصهن ونجاحهن في هزيمة المرض، ولكنني ابتسمت ابتسامة لا لون لها تدل على أنني لست على استعداد في هذه المرحلة من الصدمة أن أستمع لمآسي الأخريات وتجاربهن الصعبة ورحلة مرضهن، وأنا ما زلت لا أصدق ما حدث لي شخصيًّا!

وكلما أكد الطبيب على الأفكار المتفائلة ظللت أتساءل في ذهني وأنا جالسة أمامه إذن مَن الذين يموتون من السرطان ونسمع عنهم يوميا في محيط الأصدقاء والمعارف؟! ولماذا عندما نقرأ عن وفاة الشخصيات المعروفة يقال: «إن فلانًا أو فلانة قد تُوفوا إلى رحمة الله بعد صراع طويل مع المرض»؛ وبذلك نفهم جميعا دون شرح أنهم كانوا مصابين بمرض السرطان وحاولوا مصارعته وهزيمته في كفاح طويل ولكنه انتصر عليهم في نهاية الأمر، ونعرف قطعا أنهم لم يكونوا يعانون من القلب أو غيره من الأمراض؛ فهذه العبارة مصكوكة لتعني بالذات مرض السرطان وليس غيره، ثم خرجت جزئيا من حالة الذهول التي أصابتني حيث بدأ

ذهني يتساءل لماذا أصابني أنا السرطان؟ وكيف؟ ولماذا أنا بالذات؟ فأنا لم أتسبب في إيذاء أحد طوال حياتي، وعاملت الناس دائمًا بالحسنى كما أحب أن يعاملوني، وكنت دائمًا ودودة لأن الابتسامة صدقة! فهل الإصابة بهذا المرض عقاب على ذنب ارتكبته؟ أم أن معاناتي المتوقعة ستكون في ميزان حسناتي وتقلل من ذنوبي في الآخرة؟ أيا كان الأمر فأنا لا أرغب أن أكون مصابة بالسرطان، وبالرغم من إدراكي أنني قد أغادر الحياة في أي لحظة ولأهون سبب، إلا أنني لا أريد أن أعرف أن مصيري قد أصبح محتومًا بسبب المرض.

وهل معنى ذلك أنني لن أعيش لأشاهد أحفادي يكبرون وأفرح بنجاحهم؟ وهل سيتذكرني الأحفاد الأحباء إذا رحلت عن عالمهم وهم في هذه السن الصغيرة؟ وماذا سيجري لي نتيجة العلاج شديد الوطأة والذي أسمع أنه يهاجم الخلايا السليمة مثلما يهاجم الخلايا الخبيثة؟ وهل سأحتمل ذلك كله أم ستتدهور صحتي وأصبح جِلدا على عظْم وتتحطم

مناعتي؟ وهل سأصبح عبئا ثقيلا نفسيا على عائلتي نتيجة لقلقهم على صحتي؟ وهل سأضفي عليهم الحزن والخشية من فقد والدتهم التي هي أيضا صديقتهم الحميمة؟ وماذا سأفعل الآن، هل أخبر الصديقات والأصدقاء أم لا؟ وهل سأحتمل نظرات الشفقة ممن يحيطون بي؟ وهل سيشمت بي البعض ممن لا يحبونني لسبب أو لآخر؟ وهل ذهبت أحلامي حول خططي المستقبلية مع عائلتي أدراج الرياح؟

وسألت الطبيب عن المناطق المصابة بالسرطان في جسدي، فأفاد أن الورم يوجد بالرحم والمبايض، وعلى الغشاء البريتوني الذي انتقل إليه المرض الخبيث، وهناك أيضا شكوك في بقعة قريبة من الكبد، وبالتالي ستكون العملية الجراحية من العمليات الكبرى، وأضاف أن هذا النوع من السرطان عادة ما تكون له مظاهر خارجية مثل تضخم البطن نتيجة لوجود سوائل، ونحافة الذراعين بشكل ملحوظ، وأنا لا يظهر على جسدي ذلك، وبالتالي

حاول رفع معنوياتي، موضحًا أن بعض السيدات ممن كانت لديهن هذه الأعراض التي تدل على تقدم المرض قد تعالجن وشُفين، ومرت عليهن سنتان أو ثلاث وهن يراجعن الطبيب دوريا ويقمن بالتحاليل وصحتهن جميعا في أفضل حال، وأن واحدة منهن كانت في زيارته اليوم، وأضاف أن من الأشياء الجيدة أن الأشعة تبين أن لديَّ سوائل قليلة في منطقة البطن، ولكن الأمر يستلزم أخذ عينة من تلك الخلايا التي تسبح في السائل للتأكد ما إذا كان المرض قد أصاب الغشاء البريتوني أيضا (الذي لم أكن أعرف ما هو، وما هي وظيفته) أو غيره من أعضاء الجسم؛ لأن الطبيب أيضا يلاحظ في الأشعة التي أمامه شيئا قريبا من الكبد، وهو متشكك في سلامته.

جلسنا مستمعين إلى كل هذه الإجراءات والخطوات والمعلومات في استسلام تام وعدم قدرة على التفكير الصائب غير المشوش؛ ولذلك طرحنا أسئلة محدودة تتعلق بالأمل بالشفاء في

نهاية الأمر؛ سعيًا من شريف والبنتين، ومنى بالطبع، لطمأنة قلوبنا بعد هذه الصاعقة المفاجئة التي أصابتنا دون إنذار.

فحتى الأمس كانت حياتي طبيعية مثل باقي الناس، وهمومي مثل همومهم الحياتية، تجري في مسارها المعتاد، ثم فجأة وعلى غير انتظار بعد ظهر ذلك اليوم انهار عالمي الذي أعرفه على رأسي وتبددت آمالي في أن يكون مرَضي شيئا آخر غير السرطان المميت، أو أن تكون إصابتي به في منطقة محدودة، أو أن يكون المرض في مراحله الأولى التي تحتاج فقط لبعض الأدوية، كل هذه الآمال ذهبت أدراج الرياح، وهكذا فقد واجهتني الحقيقة المُرة التي تقول بوضوح قاطع إنني قد أصبت بالسرطان، دون أن أفهم لماذا! كما أنه في منطقة حساسة ومعقدة وتدل الأشعات أنه ليس في المراحل الأولى، ونحتاج إلى أخذ عينة من السائل في تجويف البطن لمعرفة درجة خطورة المرض وانتشاره في جسدي.

وأصبحت تائهة وعاجزة عن استيعاب كل هذا الكم من المعلومات المزعجة ولا أعرف لمن ألجأ وإلى أين أذهب هربًا من هذه المفاجآت، أو كما نقول في لغتنا الدارجة «أروح فين يا ربي؟!»، ولا أستطيع تصوُّر أن يُغيبني الموت عن أحبائي على حين غِرة، وهنا سألت الطبيب عن فترة بدء تكوّن السرطان في جسدي خاصة أن تحاليلي السابقة منذ ثمانية أشهر (ديسمبر ٢٠١٥) كانت سليمة تماما، فرد الطبيب بأن فترة بداية المرض بدأت منذ حوالي ٦ ـ ٨ أشهر، ولكن لأنه من النوع شديد الشراسة فقد تطورت الأمور سريعا، وهنا فاجأنا شريف جميعا بسؤال آخر للطبيب قائلا له وهل الضغط النفسي والعصبي الشديد يمكن أن يسبب هذا المرض؟ (وشرح لي بعد ذلك في المنزل أنه قد ربط بين القهر والظلم الذي تعرضت له من المؤسسة منذ سبعة أشهر وما حدث لي من ظهور المرض الخبيث فجأة في جسدي لاحقا)، رد الطبيب على السؤال بأن هناك في جسم الإنسان أكثر من جدار للمناعة، وأن التعرض لضغط

شديد الوطأة أو لحزن أو قهر عميق وما إلى ذلك يمكن أن ينعكس جسديا بإسقاط أحد جدارات المناعة؛ فيسهل اختراق نظام مناعتنا، وبالتالي الإصابة بمرض السرطان، ولكن لا توجد دلائل علمية على ذلك.

لا أتذكر تفاصيل أخرى عن هذه الجلسة الطويلة الكاشفة لصفحة جديدة مجهولة من حياتي، ولكنني فجأة أحسست بأنني قد بدأت في بناء جدار من الزجاج بيني وبين من حولي لأمنعهم من الكلام معي عما حدث لأنني لا أستطيع مواجهته بعد، ولم أستوعبه بالكامل، وخوفا من بكائي أمامهم إذا تناقشت معهم في الأمر، وبدأت في التفكير عما إذا كانوا قادرين على الصمود معي في هذه الرحلة المجهولة حتى نهايتها؛ رغم تأكدي من محبتهم البالغة، ولكنني بدوت وكأني تراجعت إلى الوراء لأنزوي نفسيا في مكان بعيد حتى أكون وحدي وأحاول التفكير في كيفية مواجهة هذا الطارئ المخيف الذي جدّ على حياتي، واستسلمت

لمخاوفي ومشاعري المحبطة، وأصبحت رغبتي الوحيدة في تلك اللحظة هي الرجوع إلى المنزل والانفراد بنفسي لأنني غير راغبة في الاستماع من شريف والبنتين لما أتوقع أن يقال لي؛ من أنني قطعًا سأنجح في التغلب على السرطان، وأن إرادتي قوية وقادرة على هزيمة المرض وأن أنيسة كما يعرفونها تستطيع ذلك بكل تأكيد، وأن الحالة المعنوية هي أهم عامل في هزيمة المرض؛ ولذلك يجب أن أظل مبتسمة ومتفائلة وقوية؛ لأن ذلك سيساعدني على الشفاء الكامل (وقلت لنفسي ما هي الدلائل العلمية على ذلك؟ لا أعرف!).

وأنا أدرك بطبيعة الحال أنهم سيقولون ذلك لأنهم يحبونني وحياتهم مرتبطة بحياتي، ويرغبون في دعمي معنويا وبث الأمل في نفسي وإحاطتي بمشاعرهم الإيجابية الصادقة في هذه اللحظات الصعبة بعد معرفتي بإصابتي بالمرض الخبيث، ولكن مشاعري كانت مختنقة وخشيت انهياري أمامهم لشعوري أنني أقف على عتبات مرحلة

مجهولة غامضة الملامح، ولا نعلم عنها شيئًا، ففضّلت الانفراد بنفسي؛ ولذلك شجّعتهم على السفر إلى المصيف كما كنا قد خططنا، ووعدت بأنني سألحق بهم في مساء اليوم التالي بعد أخذ العينة المطلوبة في العيادة المحددة لذلك.

وافق شريف على خطة السفر بهذا الشكل، مؤكدا أنني في جميع الأحوال لن أستطيع بدء جلسات العلاج العاجلة إلا بعد أن تظهر نتائج تحليل العينة، والتي ستستغرق بضعة أيام، وبالتالي فإنه من الأفضل أن نلحق بالعائلة ونذهب إلى مكان هادئ لتغيير الجو المحبط الذي يحيط بنا، وتغيير المناظر، ورؤية البنتين والأحفاد لنسعد بوجودنا بينهم ونحاط بحبهم، ووافقت على ذلك دون مناقشة رغم الانغلاق النفسي الذي وضعت نفسي في إطاره، واستسلمت لمصيري أيًا كان؛ مقتنعة بأن الأمر لله، من قبل ومن بعد، والغريب أنني بدأت أراقب في أثناء ذلك ما يحدث لأنيسة المريضة وكأنها شخص آخر غير أنيسة القديمة، بل كان لديّ

شعور بالغضب نحو أنيسة المريضة ولوم تجاهها؛ فكيف تسمح بأن يصيبها هذا المرض الخطير وتعذبني معها؟! وفي ذات الوقت كنت كأنيسة المريضة أشعر بالذنب لنفس السبب.

* * *

وأثناء عودتي للمنزل مستغرقة في أحزاني وهواجسي تعجبت من أنني كنت أنظر إلى الشارع فأندهش أن كل شيء طبيعي؛ فالناس يسعون إلى مقاصدهم ويذهبون إلى أعمالهم، والطرق مزدحمة كما هي، والأتوبيسات تكاد تقع على جانبها من كثرة راكبيها، والإعلانات تملأ الشوارع عن عروض الأفلام المرتقبة، وكل شيء طبيعي وكأنه لم يحدث لي شيء جلل، وكأني لم أواجه صدمة عمري باحتمال نهاية حياتي في يوم قريب! وتساءلت في ذهني، ألن يختلف شيء في العالم من حولي بسبب ذلك التغيير الجذري في حياتي؟! وكيف تسير الحياة في مسارها الطبيعي بينما أنا على وشك الخروج من

ذلك المسار؟ وتذكرت أن نفس ذلك الشعور قد ساورني بعد وفاة الوالدين الحبيبين، كلٌّ في حينه، فقد تخيلت حينئذ أيضا أنني سأنزل إلى الشارع فأجد الحياة قد تغيرت بعد أن اختفى أعز الأحباء، وكنت أيامها أنظر للناس باندهاش لأنهم يمضون في حياتهم «عادي كده» دون أن يُلقي أحد بالًا إلى الكارثة التي حلت بالحياة بعد وفاة والدي، ثم وفاة والدتي بعده بسنوات.

وقد تكرر هذا الشعور يومها بعد معرفتي بحقيقة مرضي عندما وجدت الحياة تمضي في مسيرتها المعتادة دون تغيير، وشعرت وكأنني على وشك أن أسأل الناس من حولي ألا تعرفون أني قد أصبت بسرطان خطير؟ ألن يؤثر ذلك في حياتكم، أو يدفعكم للتعاطف معي في هذه الكارثة؟ وتذكرت أنني منذ سنوات طويلة كنت قد ذهبت للعزاء في وفاة صديقة عزيزة توفيت فجأة بعد صراع قصير مع مرض السرطان، وعندما دخلت منزلها الذي كانت قد جددته حديثا قبل دخولها المستشفى لاحظت أن

الأثاث الجديد موجود، وسيعيش سنوات طويلة قادمة برغم أن صاحبته قد ذهبت إلى الأبد، ولفت نظري بصفة خاصة طاقم شاي من الفضة، واضح أنه وصل من التلميع منذ أيام وما زال ملفوفا بالأكياس النايلون للحفاظ عليه، مستقرا على البوفيه دون أن يتأثر بحقيقة أن صاحبة البيت التي اشترته قد مضت إلى حيث لا رجوع.

وهذه قضية أفكر فيها كثيرا؛ وهي اعتقادنا أننا محور الحياة، وأنها لن تستمر بدون وجودنا فيها، والحقيقة الصادمة أن الحياة لا تتوقف عندنا أو عند أي شخص آخر مهما كانت غلاوته ومكانته، فأشياؤنا تعيش وتستمر بعدنا بكثير، وقيمتها المادية تزيد كلما زاد عمرها؛ بعكس الإنسان الذي عادة ما تقل قيمته ودوره كلما مر الزمن عليه، فالإنسان يتم استهلاكه سريعا، بينما الكثير من الأشياء لا يحدث لها ذلك، وبالتالي فإننا نشتري تلك الأشياء ونتفاخر بها أمام بعضنا البعض ليرثها غيرنا في نهاية الأمر، فكم عدد الأشياء التي اشتريناها

لأنها تضفي السعادة علينا فعلا وتحقق فرقا في حياتنا حقا وصدقا مقارنة بمشتريات التفاخر الاجتماعي والخيلاء؟

وواقع الأمر أنني الآن في مرضي أحس يقينا أن أهم الأشياء هي المشاعر المتبادلة والتواصل المستمر مع مَن نحب، وتبادل الحديث معهم، والبكاء على صدورهم، والتواجد معهم وحولهم لرعايتهم بقدر الإمكان؛ لأن ذلك هو العالم الحقيقي، وليس الآخر القائم على المظهرية أكثر من المشاعر الحقيقية، والعالم الأول هو الذي يسمح لكِ من خلال أحبائكِ وأصدقائكِ أن تنقلي الخبرات الإنسانية الإيجابية إلى أجيال أخرى بعدكِ فتعيش ذكراكِ الحسنةُ من خلال الأعمال الطيبة والقِيمة المضافة لغيركِ من البشر، سواء من خلال النصائح أو القصص أو الفن أو الثقافة وغيرها من القِيم المعنوية التي سيفخر الأحفاد بنقلها عنكِ من خلال ما سيعايشونه معكِ، وهذه خاطرة محفزة لاستغلال الوقت الباقي المتاح في عمل جيد تنقلينه لغيركِ

وتستمتعين بذلك في نفس الوقت، فلا تخشَي على ذكراكِ الشخصية لأنها ستكون دائمًا مصدر فخر وسعادة لهم، ولو عند الحد الأدنى فهناك ما يتبقى ليُذكرهم أنكِ كنتِ هناك وأحدثتِ فرقا ولو ضئيلا في حياتهم، ثم فارقتِهم مستريحة النفس راضية عما تركتِ وراءكِ.

* * *

في اليوم التالي سافرت البنات لضمان حجزنا في المصيف، وذهبت مع شريف إلى العيادة لأخذ العينة المطلوبة في مساء نفس اليوم ومعنا حقائب السفر لننطلق من هناك إلى الساحل مباشرة، ووجدنا أنفسنا في عيادة ضيقة للغاية لا تسمح بجلوس أكثر من ستة مرضى، وهناك فوجئت بوجود شقيقتيَّ الحبيبتين زينب ومنال اللتين أتيتا لدعمي معنويا، بينما كانت شقيقتي الثالثة مها خارج القاهرة، وكانت الأخبار السيئة قد وقعت على أخواتي وقوع الصاعقة؛ فأنا الشقيقة الكبرى لهن، ونحن أربع

أخوات علاقتنا وثيقة جدًا. تأثرت للغاية عند رؤيتهما، وبدأ يستقر في وعيي أكثر فأكثر أنني مصابة بمرض خطير، و«صعبت عليَّ نفسي» كما يقال، و«صعبوا عليَّ أخواتي العزيزات» اللاتي لم أستطع التواصل معهن خلال اليومين السابقين، وعندما احتضنتاني امتلأت عيناي بالدموع تأثرًا من مشاعرهما الدافئة نحوي وخوفا من المستقبل الذي لا توجد لي سيطرة عليه، وهنا قامت إحداهما لأجلس مكانها برغم أنني لم أكن متألمة جسديا، ولكن كان يبدو على وجهي ما أعانيه نفسيا، وبعد قليل ونتيجة لتوصية طبيبي دخلت إلى الطبيبين المسئول أحدهما عن التخدير الموضعي والآخر عن أخذ العينة.

ودخلت مع شريف إلى غرفة ضيقة أخرى، وبعد حديث المقدمات وما هو المطلوب وفقا لتعليمات الدكتور تامر النحاس؛ طبيبي الخاص، وجهنا نفس السؤال للطبيب الجديد عن تفسيره لسبب إصابتي المفاجئة بهذا المرض، وسأل شريف عن علاقة

السبب النفسي المتعلق بالظلم والضغط العصبي بظهور هذا المرض، ورد الطبيب نفس الرد الذي سمعناه سابقًا، وأنه يشهد ذلك في كثير من الحالات النسائية التي تأتي إليه وبعضها تكون إصابتها تالية لوقائع قهر خاصة بالطلاق أو الخلافات حول الأطفال أو العمل أو غيرها، ولكنه أضاف أنه لا توجد إثباتات علمية قاطعة تدل على ذلك.

وبعد هذه الجلسة المختصرة طلب الطبيب خروج شريف من غرفة الكشف أثناء أخذ العينة، وبالفعل تم تخدير بطني موضعيا استعدادا لأخذ العينة، ولكنني أصابني الرعب من منظر الحقنة الكبيرة، أو الأداة المعدنية التي سيقوم بإدخالها لأخذ عينة من السائل بالقرب من الغشاء البريتوني، وقد خجلت من إبداء خوفي أمام الطبيبين؛ حيث إنني أخاف من الحقنة العادية عند أخذ عينات تحاليل الدم وأُمسك بيد شريف أو ابنتَيّ عند رؤية منظر الحُقن بأنواعها، فما بالك بهذه الحقنة الضخمة؟!

رجوت الطبيبَيْن الترفق في إدخال الحقنة في جدار البطن، فطلبا مني النظر إلى الناحية الأخرى وعدم مشاهدة ما يحدث، مؤكدَيْن أنني لن أشعر سوى ببعض الضغط على البطن، وبدأت محاولات إدخال الإبرة مرتين أحسست فيهما بالألم، ومن خلال مناقشات الطبيبين حول ما يظهر على شاشة العرض الـ«Monitor» وضح عدم النجاح في الحصول على عينة، وأخبراني أنه لا توجد سوائل كافية، وسيكون من الصعوبة الحصول على العينة المطلوبة، وبالتالي أغلقا فتحة أخذ العينة فتنهدت ارتياحا وخرجت إلى عائلتي المنتظرة في الخارج؛ شريف وزينب ومنال، وحكيت لهم ما حدث، وردت إلينا الممرضة المبلغ الذي دفعناه لأخذ العينة.

وفي أثناء توجهنا إلى المصعد للمغادرة لحقت بنا الممرضة للعودة مرة أخرى إلى العيادة حيث كان الطبيبان قد أبلغا طبيبي الخاص بما حدث، فنصحهما بإجراء محاولة أخرى (مؤلمة) لضرورة

الحصول على العينة، فدخلت الغرفة مرة أخرى لتخديري ثم اتخاذ نفس الإجراءات للمرة الثانية، وبعد محاولتين نجح الطبيب في الحصول على العينة وأعدنا النقود إلى الممرضة، وغادرنا العيادة بعد أخذ العينة. وقمنا بعد ذلك بإرسالها إلى معمل الدكتور إيليا أنيس إسحاق؛ وهو معمل تحاليل شهير بميدان رمسيس، في نفس المساء للاستفادة من الوقت، والحصول على النتائج في أسرع وقت ممكن؛ حتى نستطيع بدء العلاج فورا، وودعت شقيقتيّ بالأحضان والقبلات الممزوجة بالشجن على أمل باللقاء في المصيف بعد أيام إذا سارت الأمور على ما يرام.

في تلك الأحيان كانت العينة قد وصلت إلى المعمل المذكور، ورغم محاولاتنا لاستعجال استلام نتائج التحليل، فقد تم إخبارنا أن النتائج لن تظهر إلا بعد ثلاثة أيام بالنسبة لهذا النوع من الأورام، فحجزنا موعدا مع الدكتور تامر النحاس في نفس اليوم المحدد لاستلامنا نتائج العينة واتجهنا في

طريقنا للمصيف حيث إنه لا يوجد ما نفعله في القاهرة في اليومين التاليين. وكان شريف قد أحضر معه وسادة وملاءة سرير ووضعهما في الكنبة الخلفية للسيارة، وأصر على ألا أجلس في المقعد الأمامي لضمان مزيد من الراحة لي في رحلة السفر الطويلة؛ لأنه توقع الإجهاد الشديد الذي سأتعرض له بعد أخذ العينة، ورغم اعتراضي في البداية لخشيتي من أن يغلبني النوم في الطريق، وبالتالي أترك شريف وحيدًا دون ونيس يتحدث إليه خلال المسافة الطويلة، إلا أنه صمم على جلوسي في الخلف حفاظًا على راحتي، وبالفعل فإنني عندما تمددت في الكنبة الخلفية تحسن إحساسي بالألم.

وكان الليل قد أسدل ستائره على الطريق وفتح شريف الراديو، وعلى نغمات الموسيقى أخذت أراجع في ذهني أحداث اليومين السابقين اللذين تخللتهما تحاليل وأشعات وإجراءات جراحية، ووجدتني حتى تلك اللحظة ما زلت آمل في أن نكتشف من خلال تحليل العينة أن درجة المرض

عندي ليست الدرجة القصوى، وأخذت في قراءة القرآن والدعاء لكي يخفف الله عني ويرحمني، وسعدت أن شريف قد أقنعني بالسفر، وأخذني التفكير في ابنتيّ وأحفادي ومفاجأتي لهم برؤيتنا في الصباح عندما يستيقظون، وإفطارنا معهم واستمتاعنا بحكايات أكبرهم علي الذي كان عمره سبع سنوات في حينه، وبالكلمات المتعثرة المضحكة للحفيدين فريد وشريف اللذين يبلغان سنتين من العمر وقتها.

وعندما تذكرتهم ابتسمت للمرة الأولى منذ أكثر من ٤٨ ساعة، وبدأ يساورني بعض الأمل في الشفاء وفقًا لحديث طبيبي الخاص، وأخذت أدعو الله أن يحقق تمنياتي بأن تظهر درجة مرضي في الدرجات الأدنى وليست الأعلى، ثم بدأت في قراءة القرآن مرة أخرى واستمررت خفية في التسبيح والدعوات طوال الكيلومترات المتبقية من الطريق الموحش والمظلم إلى المصيف، ووصلنا بسلامة الله بعد منتصف الليل ودخلنا منهكَيْن إلى غرفتنا فاستغرقنا

في النوم على الفور حتى الصباح لنستيقظ على ابتسامات الأحفاد؛ نور العيون وبهجة القلب، و«مكافأة نهاية الخدمة» كما أردد دائمًا.

وجلست البنتان معي نشاهد الرمال البيضاء والمياه الزرقاء الساحرة وهواء البحر المنعش بعد الإفطار مع الأحفاد ليشجعاني على التفاؤل ويراجعان ما قاله الأطباء بالتفصيل كلمة كلمة، بينما انبرت ابنتي الصغرى مها؛ الخبيرة والمؤمنة بالطعام الصحي، للتشديد على كل ما كُتب على شبكات التواصل العالمية من أهمية الابتعاد عن السكر والملح واللحم الأحمر والتحمير في الزيت، أو أكل الأجبان أو كل أنواع اللحوم المُصنّعة، وأخبرتني بلائحة طويلة من الممنوعات، بينما نصحتني بأهمية التركيز على الخضراوات الغنية بمضادات الأكسدة، وبخاصة الملون منها مثل الفلفل الرومي بأنواعه، والخضراوات التي تنمو ثمرتها تحت الأرض مثل البنجر وغيره، إلى جانب تناول الفاكهة وبخاصة الفراولة والكريز والتوت والبرقوق

والأفوكادو والكيوي... وغيرها.

وظللت أستمع إليهم أحيانا، وأسرح فيما حدث لي أحيانا أخرى، وكان السؤال المتكرر الذي ما انفك يلاحقني يوميًا هو لماذا حدث لي ذلك؟ لماذا أنا؟ ولماذا ظهر فجأة وقد كنت سليمة منذ بضعة أشهر ماضية؟ وماذا سيفعل شريف والبنتان من بعدي؟ وهل سيتذكرني أحفادي ويعرفون كم أحببتهم من أعماق قلبي؟ وماذا سيفعل موتي في إخوتي الحبيبات ونحن مرتبطات بشدة؟ وهل سيتغلب أحبائي على الصدمة؟ كل هذه التساؤلات ظلت تطاردني ليل نهار وحتى هذه اللحظة. لقد تُوفيت والدتي الحبيبة رحمها الله منذ ٨ سنوات وما زلت أستيقظ يوميا في الساعة التي غادرتنا فيها قبيل الفجر، وما زلت أحس بها حولي وأُحدثها في لحظات السعادة عن أفراح البنتين وولادة الأحفاد، أو في لحظات الحزن لأشكو لها همّي! وكما قالت لي إحدى صديقاتي بعد وفاة والدتي عندما كنت منهارة وقد مزقني وهدني الحزن على فراقها إن الأم لا

ترحل بل تظل دائمًا حولكِ وتحسين بها مهما طال الزمن! وهذا ما أشعر به فعلا حتى الآن.. فهل ستشعر ابنتاي بوجودي حولهما بعد الرحيل؟

آلاف الأسئلة تدور في ذهني وأنا أنظر إلى مياه البحر وأمواجه التي أحب النظر إليها مُستحضرة أغنية محمد عبد الوهاب «الموجة بتجري ورا الموجة عايزة تطولها»، كانت أمواج البحر دائمًا تسحرني، وأفكر في أسرارها، وإلى أين تذهب، وماذا تحمله إلى الشواطئ الأخرى، كما تبعث في نفسي الشجن عند الغروب عندما أجلس على مقعد مواجه للمياه وقدماي تلامسهما الأمواج، وأخافها في الليل لأنني لا أعرف ما تحتويه من مجهول تحت لونها الذي يتحول إلى الأسود؛ فالناس دائمًا أعداء ما جهلوا.

في الأيام الأولى؛ وقت أن كان لا يعرف بمرضي سوى ابنتَيّ وأخواتي، وجدت إحدى الصديقات من الشخصيات العامة الشهيرة والتي أصابها المرض

في منطقة أخرى من الجسد وواجهته بشجاعة تدعو للإعجاب، تتصل لتسأل عني، وقد سعدت بمكالمتها رغم بكائي؛ لأن اهتمامها كان صادقًا، وهي نموذج للمرأة المصرية القوية الناجحة التي تدافع عن المرأة وتدعم وطنها من خلال عملها المؤثر في صياغة الرأي العام، ولأني أعرف تجربتها حكيت لها فأعطتني دفعه قوية من التفاؤل مع نصائح كثيرة أهّبتني لمواجهة كثير من الأسئلة التي كانت تدور بذهني في تلك الأيام الصعبة المحيرة، وطلبث مني أن أتصل بها في أي لحظة إذا احتجت للحديث معها برغم انشغالاتها الجمة، وأخبرتني عن عمليتها الجراحية بالخارج وعن تجربة الجلسات والعلاج والأعراض الجانبية التي يمكن أن أتعرض لها، وأبدت استعدادها لزيارتي والجلوس معي للحديث عن هواجسي، وقد تأثرت باهتمامها المخلص لأنني أُقدرها كشخصية عامة محبوبة لِصدقها وشجاعتها، ومن خلال مكالمتها أحسست بقيمة الدعم المعنوي الذي يحتاجه كل مريض بالسرطان وأهمية إحساسه

أنه ليس وحده في هذه المواجهة الصعبة.

أما الزيارة التي أثرت في نفسي بعُمق فهي تلك التي تمت في اليوم الأول من المصيف من شقيقتي الحبيبة مها وزوجها العزيز عاطف والذي كان قد مرَّ بتجربة قاسية مع السرطان منذ ثلاث سنوات، وكانت تجربة خطيرة استلزمت عملية معقدة بالخارج، والحمد لله فقد أكرمه الله ونجّاه لزوجته وابنتيه وحفيدتيه، ولنا جميعا؛ فهو بمثابة الأخ الذي لا نستغني عنه أبدا، وندعو الله أن يحفظه لنا جميعا؛ والشيء بالشيء يُذكر؛ فالإنسان يفترض أحيانا أشياء ليس لها علاقة بالواقع عندما يخاف ويفزع، فعندما صُدمنا بإصابة منال شقيقتي الصغرى بالمرض الخبيث منذ أعوام لم نصدق أنفسنا أن يصاب أحد منا بهذا المرض الخطير الذي نسمع عنه من بعيد، واعتبرنا أن هذا اختبار من الله سبحانه وتعالى للعائلة جميعا، ولم نتخيل أن نعيش هذه المحنة مرة أخرى، وكأن، وفقا لتصوري القاصر، كل عائلة لن يصيبها السرطان إلا في شخص واحد،

على أساس أن ذلك فيه من الحزن ما يكفي، ولذلك فعندما نزلت علينا الصاعقة بإصابة عاطف في العام التالي لإصابة منال لم نصدق أنفسنا، فلقد اعتقدنا أننا قد دفعنا ضريبة السرطان بالفعل بمرض شقيقتي الصغيرة، ولكن هذا قضاء الله ولا رادّ لقضائه، ولذلك لم نستوعب أننا سنواجه هذه التجربة المريرة مرة ثالثة بعد ما يقارب العامين في إصابتي أنا أيضا بهذا المرض.

كانت زيارة عاطف ومها مؤثرة للغاية، فبكيت أمامهما وأفصحت عن ضعفي وحيرتي وحزني وخوفي وكافة هواجسي، وأحاطتني مها بمشاعرها الدافئة وحِنيتها، بينما تحدث عاطف بهدوء وعقلانية، معطيا نصائح جميلة، مؤكدا أن الإنسان ليس في يده شيء أمام إرادة الله، فأي شخص يمكن أن يموت في أي لحظة دون الإصابة بالسرطان، وأن من الهام جدًّا الاحتفاظ بمعنوياتي مرتفعة، وأن أنظر إلى كل يوم على حدة، بالإضافة إلى المحافظة على نظام الطعام الصحي الذي

أشارت إليه ابنتي مها من قبل، مع الاهتمام بممارسة المشي والرياضة.

كما تناقشنا في مسألة مكان إجراء العملية، وكانا يفضلان إجراءها في ألمانيا لشهرتها في هذا المجال، إضافة إلى تجربتهما الشخصية الناجحة هناك، ونصحاني بإرسال الأشعات والتحاليل إلى عدة مراكز خارجية، وما سيكتبه الله لنا سنجد طريقه يُفتح أمامنا أسهل من الطرق الأخرى، كما قامت مها بالاتصال بمعارفهم في ألمانيا للسؤال عن المراكز المتخصصة في هذا النوع من المرض، كما بحثت ابنتاي في صفحات الإنترنت عن أكبر مراكز العلاج المتخصصة في هذا النوع الخطير من المرض، سواء في ألمانيا أو إنجلترا أو الولايات المتحدة، كما كنا على علم بالمراكز الفرنسية من خلال طبيبي الخاص الذي يتعامل معها بالفعل، ولكننا في الحقيقة لم نستعجل اتخاذ إجراء بشأن العملية انتظارًا للمعلومات الخاصة بالعينة وبروتوكول العلاج حتى تصبح المعلومات التي

نرسلها للمراكز الخارجية وافية.

وبعد ٤٨ ساعة ممتعة ومليئة بالمشاعر الدافئة مع العائلة، تحركنا مبكرا يوم الأحد في طريقنا إلى القاهرة لاستلام نتائج العينة وزيارة طبيبي الخاص، وتحديد موعد بدء الجلسات في أقرب وقت ممكن كما نصح بذلك، واستلمنا نتائج العينة التي أشارت للأسف إلى أن مرحلة المرض هي في الدرجة الثانية إلى الثالثة، وتفاصيل أخرى لم أفهم لغتها الطبية، وذهبنا إلى طبيبنا المبتسم دائمًا د. تامر النحاس الذي لم يقل شيئا يدعو للقلق، ولكنه سأل عن الموعد المناسب لنا لبدء جلسات علاج المرحلة الأولى، فقلنا نبدأ فورًا، واتفقنا على اليوم التالي مباشرة الساعة الثانية بعد الظهر، على أساس أن الجلسة الواحدة تستغرق بين التحليلات المعملية وتركيب المحاليل الضرورية لحماية المعدة ومنع القيء وتجنب الحساسية، ثم تركيب متتالٍ لثلاثة أنواع من العلاج الكيماوي من ٤ ـ ٥ ساعات.

وانصرفت إلى المنزل مع شريف تراودنا أحاسيس متباينة وهواجس كثيرة، بالرغم من أن شريف لم يعترف أبدا بهذه الأحاسيس القلقة، وكان دائمًا منذ اللحظة الأولى وحتى الآن يقول إنه متأكد من شفائي وتغلبي على المرض الخبيث، وإننا سنكتب معا بعد الشفاء كتابا حول رحلتنا الناجحة في التغلب على المرض، وكنت أتمنى من قلبي حدوث ما يقول، ولكني كنت أتعجب حينها، وحتى الآن، من أين تأتي له هذه الثقة برغم المستقبل المجهول، فكان يشير إلى السماء ويقول ثقتي في الله الرحمن الرحيم الذي لن يخذلنا برحمته، ونحن ليس بيدنا سوى أن نأخذ بالأسباب ونتبع تعليمات الأطباء، وندعو أن يرحمنا ويكرمنا وهو القادر على كل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

والحق أن شريف قد احتفظ بهذه الروح الإيمانية الواثقة طيلة الرحلة القاسية التي تمنيت كثيرا في لحظاتها حالكة السواد أن يأخذني الموت ليعفيني من الألم، ولكن شريف ظل محتفظا بروحه

وابتسامته وتشجيعه حتى في اللحظات التي أدرك فيها أنني أواجه الموت، وأما ابنتاي فلم تتركاني لحظة واحدة خلال شهور المعاناة الطويلة التي لم أكن لأنجو منها دونهما ودون دعمهما وتشجيعهما وحبهما، حفظهما الله لأولادهما وأسعدهما بهم.

والدرس الذي تعلمته خلال تلك الأيام الأولى من مجابهة حقيقة مرضي؛ هو أنها نعمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى أن تكون محاطا بأحبائك من عائلتك وأصدقائك الذين يدعمونك معنويا فتعتمد عليهم وعلى وجودهم الثمين إلى جانبك، وأن ترمي حمولك على الرحمن القادر على كل شيء، وأن تتقبل المكتوب لأنه لا فِكاك منه، وأن تتذكر أنك ما زلت قادرا على الاستمتاع بلحظات البهجة مع عائلتك المحبة فلا تهدر هذه اللحظات الثمينة مهما حدث، فاللحظة التي تمر لا تتكرر، وقيمتها لا ندركها إلا متأخرا بعد أن يفوت الأوان.

الصفحة الثانية

بين الألم والرجاء

ذهبت في اليوم التالي؛ وهو يوم الاثنين، إلى مركز الدكتور تامر النحاس الطبي فوجدنا أن المركز قد انتقل إلى الطابق الخامس من نفس المبنى، وهو مكان أكثر اتساعا وأناقة، وكنت في غاية الارتياح لشكله العام، وتصميمه، وألوان الجدران المريحة للعين، ومنحدَر المياه المترقرقة على الجدار في المدخل، وقفص العصافير المزقزِقة، وشاشات الـ«LCD» الكبيرة، ولكن المفاجأة الحقيقية هي أنني وجدت سلمى قد نزلت خصيصا من المصيف لتحضر معي الجلسة الأولى لتشد من أزري في تجربتي مع العلاج الكيماوي الذي ظهر فجأة كضيف ثقيل غير مُرحب به سيقيم في حياتنا لشهور طويلة ولا نعلم عنه أي شيء بعد ولا عن آثاره السلبية التي ستحل على جسدي.

تحدثت مع الطبيب عن احتمالات الشفاء مرة

أخرى وعن مراحل العلاج، فشرح لي الجلسات التسع الأولى والتي ستستغرق حوالي ثلاثة أشهر، ثم الفترة السابقة للعملية للتخلص من آثار دواء بدأ يستخدم لعلاج السرطان حديثا ويُدعى «Avastin»، وهو يؤثر على قدرة الأنسجة على الالتئام، وبالتالي لا يمكن إجراء العملية قبل التخلص من آثاره في فترة اختلف بعد ذلك عليها الأطباء في الداخل والخارج، هل هي أربعة أسابيع أم ستة أسابيع أم أقل، وسوف أذكر ذلك في صفحات قادمة، ثم علاج كيميائي لفترة ثلاثة أشهر أخرى بعد العملية، التي في العادة تستغرق فترة نقاهتها من أسبوع إلى عشرة أيام على الأكثر، وأن نسب النجاح في الشفاء تعتمد على الجراحة والعلاج الكيماوي، ثم قد تصبح المريضة مُعرضة لعودة المرض مرة أخرى بعد راحة سنتين، وتبدأ الرحلة مرة أخرى من البداية، ولذلك فإن الشفاء لا يعتبر ساريا إلا بعد مرور خمس سنوات على الأقل دون رجوعه، ولا يعتبر الشفاء نهائيا إلا بعد مرور عشر سنوات على عدم تكرره،

وقد يبدو هنا أنني أكرر على مسامعكم بعض المعلومات التي ذكرتها سابقًا، ولكن هذا ما حدث بالفعل على أرض الواقع، فمع كل زيارة للمركز يهيأ لي أن المعلومات قد تكون قد تغيرت سواء لتحسن أو تدهور حالتي، أو أن يكون البحث العلمي قد وجد علاجًا جديدًا يغير من مجرى الأمور ويعفيني من بعض الإجراءات الطبية، وأعتقد أن هذا حال جميع المصابين بهذا المرض اللعين، الذين يأملون طيلة الوقت في ظهور أمل جديد يغير المصير الذي يبدو محتومًا.

وهذه المعلومات قد توصلْت لها بعد رحلة الشهور الطويلة الماضية والمقابلات للعديد من الأطباء في الداخل والخارج الذين يتحدثون عن أن نِسَب الوصول إلى الشفاء التام لا تزيد عن ٢٠٪ من المصابين بالمرض بعد رحلة العلاج الطويلة، ولكني سآتي إلى ذلك عبر هذه الصفحات التي أرجو أن تُلقي بعض الضوء أو تنبه غيري من النساء للعناية ببعض الأمور التي عرفتها خلال رحلة العلاج، وبدء

بحثي عن المعلومات على الإنترنت حول النوع المحدد الذي أُصبت به لأكتشف أنه أكثر أنواع سرطانات النساء قتلا (Lethal)، وأنه عادة يكون مرتبطًا بالإصابة بسرطان الثدي؛ فمن تصاب بالأخير يجب عليها حتما الكشف والمراجعة الدورية على سرطان الجهاز التناسلي، وهذه نصيحة مشددة أوجهها لكل النساء بضرورة الكشف الدوري، حتى إذا، لا قدر الله، تم اكتشاف الإصابة، فتكون في مراحلها المبكرة، وبالتالي ترتفع نسب الشفاء بإذن الله.

أعود إلى الجلسة الأولى، التي تناولت بعدها مجموعة من الأدوية التي أوصى الطبيب بضرورة أخذها بعد كل جلسة لمواجهة آثار العلاج الكيميائي حتى موعد الجلسة التالية، وبالتالي فهي تؤخذ يوميا لمدة أسبوع، وهي ضد الغثيان والقيء وآلام تكسيرالعظام وتقلصات المعدة، وأعراض أخرى اكتشفتها بعد ذلك طيلة فترة العلاج، وتوجهت إلى الغرفة التي تم تخصيصها لي وهي الغرفة رقم «١»

التي أصبحت غرفتي منذ ذلك الحين وحتى الآن في التوقيت المحدد لي من كل أسبوع، وقد تعودت على تلك الغرفة، فهي واسعة مشرقة يدخلها الضوء، حمّامها حديث وغاية في النظافة، وبها صالون صغير به مقاعد مريحة للمرافقين وشاشة تلفزيون حديثة، إضافة إلى منطقة جلوس إضافية بجوار السرير الذي أتلقى عليه العلاج، وقد تعودت على هذه الغرفة ولا أحب تغييرها، فأنا أعتاد على الأشياء وأطمئن إليها وأرتاح فيها، وأنزعج من اختلافها في كل مرة.

وكان الدكتور تامر قد نصح بتركيب «Ice cap» أو غطاء ثلجي يلبس على الرأس لتندفع داخله مياه مثلجة إلى فروة الرأس لمدة ساعات العلاج؛ لأن ذلك يقلل من احتمالات سقوط الشعر الذي يؤثر عليه العلاج بشدة، كما يؤثر أيضًا على الحواجب والرموش، ولكن المزعج في هذا الغطاء الثلجي أنه ثقيل على الرأس جدًّا، كما كان يسبب لي صداعا شديدا، ولذلك كنت أتضايق بشدة من استخدامه،

ولكني في ذات الوقت كنت أقلق أيضا من احتمال تساقط شعري، وكيف أظهر أمام الناس بدونه، وكيف سيكون شكلي، وقد قالت شقيقتي مها إن إحدى صديقاتها قد استخدمت بونيه الثلج أثناء العلاج وقد حافظ على شعرها بالفعل، ولذلك احتملته لفترة، ولكني بدأت أفكر في احتمالات استخدام باروكة للشعر والسؤال عن كيفية الحصول عليها، وفور الحصول عليها أتخلص من استخدام غطاء الثلج الذي كرهته.

بدأنا جلسة العلاج الأولى التي عانيت في بدايتها من محاولات تركيب إبرة «الكانيولا» في الوريد، وهذا عادة يحدث معي إن لم يكن الطبيب أو الممرضة في منتهى المهارة، وتكون الإبرة المستخدمة صغيرة للغاية؛ لأن أوردتي صعبة جدًّا، وهذه المشكلة واجهتها أيضا عند العلاج بالخارج. ولقد عانيت كثيرا من محاولات إدخال الإبرة في ذراعي ثم تحركها من مكانها بين الحين والآخر، وبالتالي تتسرب السوائل منها وأحتاج لإعادة

تركيبها مرة ثانية، وكانت سلمى أثناء ذلك تمسك بيدي الأخرى لأضغط عليها من الألم، بينما شريف يظل واقفا متحفزا ينظر لمن يركب الإبرة في ذراعي وأنا أخفف عنه وأهدئ أعصابه بقولي إن اللوم يقع على أوردتي؛ لحرجي من الممرضة، وخشية من انفلات أعصاب شريف كرد فعل لتألمي، ولإنقاذ نفسي من هذا العذاب ثبّتُّ ذراعي على قدر الإمكان بجانبي، ولكن بعد وقت قصير بدأت ذراعي تمتلأ ببقع حمراء أريد أن أهرش بها، فاستدعينا مساعد الطبيب الذي أفاد بأن هذه حساسية من العلاج الذي يدخل في الوريد، وأضافوا لها علاجًا آخر في المحاليل المعلقة.

واستغرقت هذه الجلسة الأولى حوالي خمس ساعات، وهي تبدأ عادة بمحاليل ضد الحساسية والقيء وغيرهما، ثم يبدأ تعليق ثلاثة أنواع من محاليل العلاج، وعندما انتهت الجلسة الطويلة انطلقنا مع سلمى في رحلة العودة إلى المصيف بنفس النظام وهو نومي على الكنبة الخلفية، بينما

جلست سلمى بجانب والدها، ولذلك اطمأننت على وجود مَن يصاحبه ويتحدث معه خلال الطريق؛ حيث كان الليل قد أسدل ستائره بالفعل، وكنت مجهدة جدًّا من أثر جلسة العلاج الكيميائي الطويلة فلم أستطع تبادل الحديث إلا قليلا بعد يوم ممتد في المركز الطبي تلاه سفر لعدة ساعات.

في الصباح التالي استيقظت مبكرا على صوت طرقات الأحفاد الصغار على زجاج غرفتنا بالدور الأرضي وابتساماتهم البريئة وكلمة «تيتا» منهم التي تساوي الدنيا بما فيها؛ ولذلك نهضت من السرير فورًا لأسعد بالجلوس معهم أثناء إفطارهم المبكر؛ لأنني حتى من قبل إصابتي بالمرض أحرص دائمًا ألا أضيع أي فرصة لأكون معهم في أي مكان، ولا أستمتع بأي إجازة لا يشاركوننا فيها، والآن بعد المرض تزايدت رغبتي في رؤيتهم بصفة مستمرة، وأتمنى أن نسكن جميعا في مكان واحد حتى لا أضيع لحظة واحدة من صحبتهم وأهلهم في الأيام الباقية، سواء طالت أو قصرت، حسب مشيئة الله

سبحانه وتعالى.

وذهبنا إلى مكان الإفطار، وجلست مع مها ابنتي وحفيديَّ علي وشريف لأحكي لها عن جلسة الأمس، وفي مثل هذه الجلسات تتراجع أولوية المرض في ذهني لأني أركز على الأحفاد وعلى الاستمتاع بهم وتحقيق رغباتهم، ومشاهدتهم وهم يلعبون في الرمال، ثم في النزول إلى البحر الهادئ، واحتضانهم بين ذراعيّ وملمس بشرتهم الناعمة وضحكاتهم البريئة.

بعد جلسة العلاج الأولى كان البرنامج أن تبقى معي سلمى ومها وأولادهما يوميًا، حيث يأتي حفيدي فريد ابن سلمى معها ليلعب مع الآخرين، وأنا أذكر هذه التفاصيل لأن هذه الصحبة العائلية الحميمة، والتي انضمت إليها أيضا شقيقاتي الثلاث زينب ومها ومنال، هي عامل هام جدًا في تغيير الحالة النفسية التي تكون مركزة طوال اليوم على هواجس المرض، حيث تنقلنا إلى أحاديث أخرى

فيها اهتمام وطمأنة على المستقبل وعلى الشفاء، والمهم أيضا أنهم يتحملون الاستماع إلى مخاوفي وقلقي، وأحيانا يوافقونني، وأحيانا يخبرونني بتجاربهم ويشاركونني القصص التي يعرفونها، وأنا أشعر بالاطمئنان معهم وأسعد للغاية بصحبتهم.

في هذه الجلسات العائلية اليومية بدأنا نتناقش حول الدول التي يتوافر بها العلاج في الخارج، وأيها نختار، وهذا قرار شديد الصعوبة لأنه يتعلق بحياة المريض، وعادة ما يشهد فترة طويلة من التردد، كما تشاورت معهم في كيفية تدبير المبالغ المطلوبة للعلاج سواء داخليًا أو خارجيًا، وهذا الموضوع على وجه الخصوص من المعضلات التي تواجه مرضى السرطان؛ لأن العلاج مكلف جدًا جدًا، حيث إن أدويته جميعها مستوردة، وتكلفة العمليات بالخارج مرتفعة جدًا بسبب سعر العملة الصعبة، وبطبيعة الحال فإن مناقشة التكاليف والمصروفات قد شغلت ذهني جدًا وشكلت عبئا نفسيا شديدا عليَّ، فأنا قد فقدت راتبي الوظيفي بداية من عام

٢٠١٦، وكان ذلك هو التحدي الرئيسي أمامنا، ولا شك أن كل الاتصالات الإلكترونية التي أجرتها ابنتاي وشقيقتي مها قد أفادتني كثيرا عبر الأيام التالية في اتخاذ القرار النهائي بتوفيق من الله، ولذلك فإن الصلات العائلية الحميمة هي العامل الأول، كما قال الجرّاح الأجنبي بعد ذلك، في مسيرة العلاج، فالحمد لله كثيرًا على هذه النعمة.

هنا لا بد أن أشير إلى أن اتجاهنا لإجراء العملية بالخارج هو نتيجة لأن الأطباء المصريين المتخصصين قد نصحوا بذلك، فشريف قد أخذ جميع الأشعات والتحاليل وزار كبار الأطباء للاستنارة برأيهم حول اتخاذ قرار مكان الجراحة، فاتفقوا جميعا على ضرورة إجرائها بالخارج نظرا لخطورتها وتعقيدها بسبب انتشار الإصابة في أماكن متعددة، وبالتالي اتجهنا إلى ذلك الطريق، والحقيقة فإن شريف قد تحمل عبء كل هذه الزيارات والمناقشات الطبية وحده لأن حالتي النفسية لم تكن تتحمل أن أكرر قصة مرضي في

المرات المتعاقبة مع العديد من الأطباء؛ لأن هذا مؤلم بالنسبة لي ويزعجني تكرار الحديث عنه بتفاصيله مع الآخرين؛ ولذلك قام هو مشكورًا بذلك.

ويجب أن أذكر هنا أن علاقتنا الوثيقة كزوجين (شريف وأنا) والتي بدأت منذ أيام الخطوبة، والارتباط الذي قام على قصة حب قصيرة عرفت بها الأسرتان منذ البداية، وحرصه الدائم بعد ارتباطنا على رعاية مَن حوله في أسرتنا الصغيرة، وفي أسرتينا الأوسع نطاقا، كانت دوما ملمحا بارزا مَن ملامح شخصيته؛ فمساندته المخلصة لنا جميعا كان يمكن الاعتماد عليها في أي لحظة وتحت أصعب الظروف، وإحساسه الدافئ بمن يحبهم يفوق التصور، وحرصه على معرفة كل التفاصيل في أزماتنا الصحية يجعل البعض يعتقد أحيانا أنه من الأطباء، وأنا أحس بالاطمئنان الشديد في وجوده لأني موقنة بأنه سندي في جميع الأمور، وأن متابعته لعلاجي يجعلني واثقة من أن الأمور تحت السيطرة؛ لأنه لا يترك شاردة ولا واردة دون

أن يتأكد من سلامة الإجراءات الطبية التي تُجرى معي سواء بالداخل أم الخارج؛ ولذلك أدعو دائمًا أن يحفظه الله لنا ويمتعه بالصحة وطول العمر.

مر الأسبوع الأول بعد الجلسة الأولى على ما يرام نسبيا مع التزامي بالأدوية المفروض تناولها، وقد تفاءلت بذلك واعتقدت أن ما سمعته عن العلاج الكيميائي كان مبالغا فيه، ولكن بعد الجلسة الثانية في الأسبوع التالي هاجمتني آلام شديدة في العظام أعجزتني عن الحركة، وكان لا بد أن يسندني الآخرون لأقوم بأبسط حركة، ففزعنا واتصلنا بالطبيب المعالج، فشرح أن ذلك متوقع ومن الأعراض الجانبية للعلاج، فهذه جرعات كبيرة ومؤثرة على أجهزة الجسم جميعًا، ونصح بأدوية مسكنة تساعد على تخفيف الآلام، وفعلا عانيت بشدة لعدة أيام واضطررت للرقاد بالفراش حتى أشرفت على جلسة الأسبوع الثالث ونهاية أول دورة من الثلاث دورات للمرحلة الأولى، وعرفت أن الجلسة الثالثة سيضاف بها دواء آخر هام للعلاج

(Avastin)، فكانت الأيام التالية صعبة للغاية لأنني أصبت بآلام شديدة الوطأة في المعدة والقولون تصاحبها تقلصات مستمرة، وأفاد طبيبي بأن ذلك عرَض آخر من أعراض الجرعات التي تتراكم داخل الجسم، ولذلك فهو يؤكد في كل جلسة على أهمية وضرورة شرب المياه بعد كل جلسة لتخليص الجسم من آثار الدواء فيه، وشرب المياه بكمياتٍ كبيرة مسألة هامة جدًا في كل مراحل العلاج، ولكن المشكلة أنني في كثير من الأحيان وحتى هذه اللحظة كنت لا أشعر برغبة في شرب المياه، ولم أنجح في إجبار نفسي على ذلك رغم إدراكي لخطورة عدم تنفيذه.

فاتني أن أذكر أنه قد تلا انتهاء الدورة الأولى من المرحلة الأولى راحة لمدة أسبوع من العلاج ثم استئنافه مرة أخرى، وكنت في هذه الفترة قد عانيت بشدة من استخدام الكانيولا كل أسبوع وأصبحت ذراعاي بهما كدمات زرقاء مؤلمة، فاقترح عليّ البعض تركيب ما يسمى «بورتوكاس»، أو ما

يسمى الـ«Central line» (كانيولا مركزية) وهي بمثابة شريحة تركب أسفل الجلد بين الرقبة والصدر وتستخدم لتركيب المحاليل، وتظل في الجسم لمدة عامين، وقد اقترح الدكتور تامر النحاس اسمًا لجرّاح قدير يقوم بتركيبها في غرفة العمليات في جراحة تستغرق نحو ساعة تحت مخدر كلي، وقد قمت بذلك بالفعل في أحد المستشفيات الخاصة قبل بداية الدورة الثانية من المرحلة الأولى، وبالفعل خفف ذلك عني كثيرا في تركيب محاليل العلاج في بقية الجلسات وحتى يومنا هذا.

وبعد الجلسة السادسة زار القاهرة ومركز الدكتور النحاس الطبي أحد الأطباء الفرنسيين وهو بروفيسور «تييري لوشيفالييه» من أحد المراكز الرئيسية للسرطان في فرنسا وهو «جوستاف روسي»، فتم تحديد موعد لي معه يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر، وتم عرض حالتي عليه، وأجرى كشفا دقيقا ثم تناقشنا في مختلف السيناريوهات، وطرح البروفيسور الزائر فكرة الانتهاء من مرحلتي العلاج؛

أي الثماني عشرة جلسة جميعها أولا ثم إجراء العملية؛ بمنطق أن الجلسات المتتالية ستقضي بالعلاج الكيميائي على الخلايا الخبيثة ثم يدخل الجرّاح غرفة العمليات ليستأصل كل الأعضاء المصابة بالسرطان، ولكنني ترددت وشريف في قبول هذا السيناريو، بمنطق أن إجراء المرحلة الأولى وهي التسع جلسات من العلاج الكيميائي ثم إجراء العملية يتيح الفرصة إذا لم يكن الجرّاح قد استطاع استئصال كل شيء، أو كانت هناك خلايا سرطانية مايكروسكوبية لم يرها الجرّاح فإن الجلسات التسع الثانية ستمنح الفرصة للعلاج الكيميائي ليقضي على ما تبقى من تلك الخلايا.

وقد سألنا البروفيسورالفرنسي عن التكلفة والمواعيد المقترحه للجراحة فأفاد أنه سيعود إلى فريقه في باريس ويتناقش معهم ثم يرجع لنا بالرد، وقبل الجلسة السادسة رد الدكتور الفرنسي بأنه يفضل إجراء الجراحة بعد المرحلة الأولى، وبالتالي يجب إيقاف عقار الـ«Avastin» اعتبارا من الجلسة

السادسة، وذلك حتى يتم إجراء العملية بعد شهر واحد من تاريخ ٢٨ سبتمبر؛ وهو تاريخ الجلسة السادسة التي تم فيها إيقاف الدواء، وبالفعل اتبعنا هذه الخطة وبدأنا في الاتصال بالمراكز التي تواصلنا معها من قبل لتحديد أقرب وقت ممكن خلال الشهر المستهدف.

خلال فترة قصيرة لم تتعدَّ الأيام العشرة تلقينا بعض الردود من إنجلترا وألمانيا، وبعد الجلسة التاسعة والأخيرة للمرحلة الأولى بتاريخ ١٩ أكتوبر قررت الذهاب إلى لندن ومقابلة الطبيب الذي أوصت به صديقتي الشهيرة، وبعد الاتصال به عن طريق الإيميل وتحديد موعد بالفعل سألني مكتبه عن نوع السرطان الذي أُصبت به، فلما أخبرتهم اعتذروا، فكل طبيب هناك متخصص في نوع معين من السرطان فقط، وتفضلوا بإحالتي إلى طبيبة أخرى متخصصة حددت لي موعدا مساء اليوم الأخير قبل مغادرتي لندن، وكنت قد وصلت لندن أول أيام عيد الأضحى، على أن تلحق بي سلمى

بعده بيومين؛ حيث كان باسبورها في إحدى السفارات، وعندما علم شريف بموعد يوم الخميس مع الطبيبة البريطانية قبل مغادرة لندن بيوم واحد صمم على إجراء بعض الاتصالات لأخذ موعد مع طبيب آخر لاستشارة ثانية انتهازا لوجودي في إنجلترا، وبالفعل أخذنا موعدا آخر مع طبيب شهير جدًّا يعتبر مرجعية لأمراض السرطان هناك، وحيث كنت سأقضي هذا اليوم الأول وحدي فقد قررت أن أحاول الاسترخاء حتى تصل سلمى في اليوم التالي، واخترت الذهاب إلى حديقة الهايد بارك الشهيرة، وأنا أحب إنجلترا ومدينة لندن على وجه الخصوص؛ فهي أول مكان سافرت إليه في شبابي، وبها كل ما يُرضي مختلف الأذواق، سواء المشي والتريض، أو مشاهدة المسرحيات أو الأفلام، أو دخول المعارض الفنية والمتاحف، أو القيام بمشتريات، ولكن من أجمل ما فيها حدائقها التي تحفل بالبحيرات والزهور إلى جانب الأشجار الباسقة.

* * *

واسمحوا لي أن أشارككم هنا بعض مشاعري أثناء وجودي في لندن؛ فأنا كثيرا ما كنت أسمع تعبير «والسفن تمخر عباب الماء»؛ ووفقا للمعاجم فإن مخَرتِ السَّفينةُ تعني جرت في البحر بدفع الماء، أو جرت تشقّ الماءَ مندفعة مع إحداث صوت، وبالتالي يستخدم تعبير مخَرتِ السَّفينةُ عُبابَ البحر؛ وكان ذلك دائمًا يذكرني بمنظرها في الأفلام السينمائية حيث تظهر السفن كبيرة الحجم مهيبة المنظر وهي تبحر بقوة والماء ينقسم على جانبيها عندما تخترقه مقدمتها الواثقة من الوصول إلى هدف رحلتها بعزيمة لا تلين، وتخضع لها محيطات العالم الهادرة في كل مكان، وفي رحلتي الأخيرة إلى لندن عاصمة الضباب تذكرت هذا التعبير في ظروف مختلفة؛ حيث صادفت لِحظّي الحَسن لمدة أربعة أيام فقط جوا منعشا يميل إلى الحرارة، وخاصة في اليوم الثالث، حيث ذكرت نشرات الأخبار أن هذا الجو الدافئ طيلة النهار لم يحدث

في هذا اليوم من السنة منذ عام ١٩١١؛ أي منذ مدة تزيد عن قرن بأكمله، وبالتالي فقد انتهزت هذه الفرصة السانحة بناء على نصيحة ابنتي الصغيرة مها وشددت الرحال إلى حديقة هايد بارك الشهيرة مستهدفة الجلوس على شاطئ بحيرتها فيما يجاور النافورة التذكارية التي تم إنشاؤها باسم «ديانا»؛ أميرة ويلز؛ الراحلة التي أحبها البريطانيون وفجعوا بوفاتها في حادث السير الشهير في مدينة باريس عاصمة النور وبصحبتها دودي الفايد؛ نجل رجل الأعمال المصري الشهير صاحب محلات هارودز العتيدة.

وقد تكفلت الابنة العزيزة بإرسال خريطة وموقع وعنوان هذه البقعة لأقوم بإعطائه لسائق التاكسي لضمان وصولي إلى المنطقة المحددة بالضبط دون أن أتوه وأجد نفسي في موقع آخر في هذه الحديقة مترامية الأطراف؛ وفعلا نجحت هذه الخطة السياحية المتقنة ووجدت نفسي في مكان رائع يمتلئ بكافة أنواع البشر، كبارًا وصغارًا،

يستمتع كل منهم بيومه الدافئ الجميل في هذا المكان الساحر، واكتشفت أن نافورة ديانا التذكارية ليست نافورة بالمعنى التقليدي الذي نعرفه، ولكنها عبارة عن مجرى مائي به شِبه شلالات صغيرة جدًّا في بعض أجزائها، ودرجات حجرية هندسية في مناطق أخرى، ويلعب فيها الأطفال بملابس البحر، ويتمشى بها الشباب والكبار بملابسهم وهم حفاة، ويجلس البعض الآخر مثلي على المحيط الحجري لهذه النافورة مختلفة الشكل عن المعهود، وجميعنا سعداء بوضع أقدامنا في الماء البارد، مستمتعين بأشعة الشمس المشرقة في مدينة لندن التي تعج بكل جنسيات الدنيا، والتي تسمع فيها جميع اللكنات واللغات، وتشاهد بها جميع أزياء العالم وتقاليعه وأفكاره المبتكرة.

بعد جلوسي قليلا على حافة البحيرة وابتلال ملابسي جراء طرطشة الأطفال ولعبهم المَرِح في الماء قررت التحرك للجلوس على حافة البحيرة لأمتع عينيّ بمنظر الناس الذين يركبون المراكب

الصغيرة أو يستمتعون بقيادة «البيدالو» (وهو مركب من الألياف الزجاجية (Fiberglass) كما أظن، ويتحرك بتبديل الراكبين بأرجلهم كما يفعلون بالدراجة الهوائية)، أو متمددون فقط في «أنتخة» على الحشيش الأخضر المشذب بعناية تحت رعاية إدارة الحديقة الصارمة، وبالتالي اخترت أحد المقاعد في الظل ولبست سماعات الموبايل للاستماع لموسيقى منوعة وأغانٍ جميلة في حالة استمتاع هادئ لا يقطعه أي إزعاج؛ لأن كل واحد مشغول في نفسه تطبيقا لمبدأ «لا ضرر ولا ضرار»، وفي أثناء هذه الحالة من الهدوء المسترخي اختطف نظري ظهور الطائر «الملكي»؛ البجع الأبيض الرائع، يتهادى على ضفاف البحيرة ثم ينزلق بهيبة إلى مياهها الساكنة جاذبًا انتباه جميع الزائرين، رافعا رأسه الرشيق بخيلاء فوق عنقه الطويل، بينما تستقر أجنحته الكبيرة على جسده العائم على سطح الماء، ولاحظت تحرك بعض البجع في مجموعات رشيقةٍ جميلة، مطمئنة إلى أن

البحيرة هي بحيرتها ومنطقة نفوذها، ولا يجرؤ أي كائن أن ينازعها في سند ملكيتها لمياهها، وبالتالي فهي تمخر عباب الماء بأسلوب ملكي رصين، بينما بعضها الآخر يطير على مقربة شديدة من سطح المياه فاردا جناحيه وكأنه طائرة كونكورد أو إيرباص إيه ٣٨٠ لتهبط على المياه باحتراف الطيارين المهرة وتنضم إلى الأسطول الملكي ناصع البياض الذي يشر عيون الناظرين ويبهر الأطفال والبالغين والكهول دون تفرقة، ويرسم الابتسامة على شفاههم، بينما يجري الكثيرون وبخاصة الأطفال لإلقاء بعض قِطع الطعام المسموح به إلى هذه الطيور جميلة المظهر.

وحينها ظهرت بكثافة جميع أنواع الطيور المتواجدة مثل البط الملون وغيره لتتنافس على الطعام، فيأسرك المنظر البديع والصورة الملونة لمخلوقات الله في أرضه، وأمضي أنا متأملة في معاني الكلمات، متمنية أن يعيش أحفادي الأحباء حتى ذلك اليوم المشهود حين تصبح مثل هذه

الحدائق والمتنزهات بطيورها الجميلة ومناظرها البديعة جزءا من حياتهم اليومية في مصر.

وبينما وضعت سماعات التلفون في أذني لأنفصل عن العالم بالموسيقى وأتأمل في البحيرة وبجعها، وجدت الدموع تنهمر بسكون على وجهي، وشعرت بحالة شجن مؤلمة جعلتني أرثي لحالي وما وصلْت إليه في مرضي، وأحسست بوحدتي؛ لأنها كانت المرة الأولى، منذ معرفتي بمرضي، التي أكون فيها وحدي بعيدة عن شريف والبنتين، وبالتعبير العامّي «صعبت عليّ نفسي»، وأخذت في استعراض ما حدث لي منذ بداية العام وما تعرضت له من ظلم وقهر وأيام صعبة؛ ثم تلا تلك الأحداث بشهورٍ اكتشافي للمرض والأيام حالكة السواد التي واجهتني بعدها، لأجد نفسي وأنا جالسة على مقعدي أمام البحيرة أبكي بكاء حارًّا بدون حرج؛ حيث إنه لا يعرفني أحد في هذه الحديقة الشاسعة، ولا أنا أعرف أحدًا منهم، ولذلك أفرجت عن دموعي الحبيسة في صدري بحرية حتى أنهكني البكاء،

وأصبحت أتشوق لوصول سلمى في الصباح التالي وأفتقد بشدة عائلتي الصغيرة، وبعد فترة من الوقت والتأمل فيما حولي والتفكير في تصاريف القدَر قررت العودة للفندق برغم اقتراح مها ذهابي إلى السينما أو المسرح للتغيير ولرفع معنوياتي، ولكني لم أكن في حالة نفسية تسمح بالذهاب وحدي، فقضيت ليلة صعبة مليئة بالهواجس.

* * *

وصلت سلمى الحبيبة في صباح اليوم التالي، ومثَّل ذلك لي نسمة هواء مُنعشة بعد ليلة قاتمة، وقد قابلتني بابتسامتها الحبيبة، فأخذتها في أحضاني، وأحسست بمنتهى السعادة لوجودها بجانبي، وقررنا الذهاب لجولة قصيرة في لندن وشوارعها المميزة؛ مُلقين نظرات سريعة على البضائع المعروضة بذوق رفيع في محلاتها المتنوعة، كبيرها وصغيرها، وتركنا إحدى حقائب اليد السابق شراؤها للتصليح في أحد المحلات ثم

اتجهنا إلى موعدنا، مع الطبيب الأول الشهير في أحد مستشفيات لندن المعروفة؛ وهو د. «نيك بلاومان» في مستشفى كروموبل، ومعنا كافة الأشعات والتحاليل، وكنا قد وضعنا خططًا للفسحة أو العشاء معًا بالخارج بعد انتهاء موعد الكشف، وحجزت لنا مها مكانًا في أحد المطاعم الأنيقة الشهيرة، وراجعت سلمى على خرائط جوجل موقع المستشفى للوصول من أقصر طريق للعنوان كعادة البنتين في استخدام التكنولوجيا الحديثة التي لا أعرف التعامل معها كثيرًا برغم محاولاتهما المتكررة لتعليمي، ووصلنا للمستشفى المقصود بالفعل قبل الوقت المحدد، لموعدنا مع الطبيب، بقليل.

وجلست منتظرة في حالة قلق وتوتر، بينما تدور في ذهني كافة المعلومات والمناقشات التي سمعناها في القاهرة عن مرضي الخطير، وملخصها أن الموضوع هو عبارة عن بضع جلسات كيميائي قبل العملية وبعد العملية ثم تتحسن الدنيا، ومن المفترض بعد ذلك أن تعود الأمور إلى طبيعتها،

وتعود أنيسة كما كانت إلى حياتها العادية، بل إنني خلال جلوسي الصامت بجانب سلمى كانت تراودني الآمال أنه ربما هذا المتخصص الكبير في السرطان سيخبرني أن هناك دواءً جديدًا أو طريقة جديدة للعلاج ستنقذني تمامًا، وظللت أترقب مقابلة الطبيب، بينما تقوم سلمى بين الحين والآخر لتراجع موعد مقابلتنا بالطبيب المقصود والذي حصلنا عليه بصعوبة بالغة وواسطات كثيرة نظرًا لجدول مواعيده المحجوز مقدمًا لأسابيع عديدة.

لا أعرف من أين أتتني الأفكار المتفائلة بأن هذا الطبيب الخبير سيفتح بابًا جديدًا للأمل لم يتنبه له أحد في القاهرة، وتبريري المتواضع هو أنني كنت في داخلي ما زلت في مرحلة الإنكار، وغير مُصدقة أنني مصابة بالسرطان الخطير برغم خضوعي للعلاج، وكنت أتضرع في عقلي الباطن أن يقول لي الجرّاح البريطاني إن كل التشخيصات السابقة كانت خاطئة وإنني سليمة، وإن أنيسة الأصلية قد انتصرت على أنيسة المريضة التي ظهرت فجأة!

الخلاصة أنني لم أكن أصدق في داخلي ولا أريد أن أصدق أنني مريضة بالسرطان، وأن مصيري محتوم، وأعتقد أن هذا هو نوع من الدفاع الداخلي عن النفس يُزودنا الله به حتى نحتمل ما لا نستطيع احتماله، وهو يشبه مشاعرنا المنهارة في الأيام الأولى بعد وفاة الأحباء؛ حيث يُلهمنا الله الصبر فيصبح الحدث الأليم خارجنا وكأنه يخص شخصًا آخر حتى نستطيع أن نتخطى صدمة الأيام الأولى وقسوتها، إضافة إلى اعتقادنا بأن الأطباء الأجانب يعرفون شيئًا لا يعرفه الأطباء المصريون وممكن أن يشفينا على غير توقع.

بعد فترة الانتظار التي قضيناها أنا وسلمى في الصالة المتميزة بالهدوء التام أتت الممرضة الإنجليزية لتستدعينا إلى غرفة متوسطة الحجم خلف قاعة الانتظار لنجد البروفيسور طويل القامة أبيض الشعر والوجه واقفًا يُرحب بنا بابتسامة مُحايدة، ثم جلس خلف مكتب صغير باديًا عليه الاستعجال وقائلًا إن يومه كان شديد الازدحام

بالمرضى وما زال مستمرًا إلى الآن، وهذه عبارة حمّالة للأوجه كما فهمتها؛ فهي يمكن أن تعني اعتذارًا غير مباشر عن تأخره علينا، ويمكن أن تعني أنه متعجل للانتهاء من الحديث معنا ليباشر مرضاه الآخرين. اطلع الطبيب بتركيز على جميع الأوراق التي أخرجتها سلمى من الحقيبة، ثم قام بإجراء الكشف عليّ وجلس أمامنا ثانية خلف مكتبه، وأنا أقارن في ذهني بين حجمه الضخم وصغر المكتب البسيط الذي يجلس خلفه. بدأ الطبيب حديثه مؤكدًا على أن التقرير الذي اصطحبناه من الدكتور تامر النحاس وبروتوكول العلاج الذي نسير عليه صحيح وملائم لحالتي، ومشيرًا إلى أنه كان سينصح بنفس هذا البروتوكول، متسائلًا إذا ما كان أحد تلاميذه المصريين هو مَن كتبه! وبعد حديثه القصير عن نوع المرض شارحًا تقريبًا نفس ما قيل لنا في القاهرة من طبيبي الخاص ومن غيره من الأطباء والجرّاحين المصريين الذين زارهم شريف قبل سفري، وما قاله الطبيب الفرنسي الزائر، نظر لنا

بهدوء في انتظار أسئلتنا، وكانت سلمى قد أعدت قائمة بالأسئلة التي نرغب في معرفة إجاباتها وكتبتها في ورقة طويلة فسألته عن الأغذية المفيدة لحالتي، وما يجب أن أتبعه من تعليمات جديدة أو إجراءات، فأفاد مرة أخرى بأننا على الطريق الصحيح، ولا يوجد هناك ما نفعله أكثر من ذلك.

وهنا بدأ القلق يُساورني لأنه لم يقل شيئًا جديدًا إيجابيًا كما كنت أتمنى ليريح قلبي، فلم يقل لي مثلا اطمئني فسوف تتحسنين، أو إن المسألة ليست مميتة كما تتصورين، أو أي مقولة أخرى للطمأنة ورفع المعنويات، ولم أكن أستطيع المغادرة قبل أن أحسم مخاوفي، فقلت لنفسي تشجَّعي واسأليه عما تُريدين مباشرة، فنظرت إليه وسألته وقلبي يدق بشدة لدرجة أنه تهيأ لي أنني أسمعه في أذني، بينما رسمت على وجهي ابتسامةً ليس لها معنى، مُتظاهرة بأنني أسأل سؤالًا عاديًا كما يفعل المرضى الأجانب الواقعيين في حال مواجهتهم

للأمراض الخطيرة، قائلة بهدوء مصطنع: أنا أحتاج دائمًا أن أُرتب أموري العائلية والمالية لابنتيّ وزوجي، فما هي الفترة الباقية لي في الحياة وفقًا لتوقعاتك ولخبرتك في هذا التخصص من الأمراض؟ سألته هذا السؤال المحوري المجازف وقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي، وأُحس ببرودة في أطرافي، وتقلُّص في معدتي، خوفًا من سماع الإجابة، وشعرت كأنني في عالم آخر غير حقيقي أُشاهد من خلف حاجز زجاجي ما يحدث لأنيسة المريضة التي كأنها انفصلت عني وعن عالمي القديم، مُتمنية في أعماقي أن يقول لي الطبيب كلامًا مُطمئِنًا، أو يجد لي حلًّا جديدًا.

ولكني فوجئت به يجيب فورًا وببساطة على سؤالي في كلمات مباشرة كأنه يتكلم عن موضوع «عادي جدًّا»، أو كأننا نتكلم عن مصير شخص غائب وغير موجود أصلًا بالغرفة معنا، قائلًا: أتوقع أن تنتهي من علاجكِ بالجلسات والعملية في أقل من عامين، وفقًا للبروتوكول الموضوع، ثم تنعمي بفترة

سماح بدون المرض لمدة عامين تقريبًا، ثم يعود لكِ المرض ثانية ليُنهي حياتكِ في هذه المرة؛ وبالتالي فهذا المرض سيقضي عليكِ وينهي حياتكِ في خلال فترة تُقدر بخمس سنوات اعتبارًا من اليوم! قال الطبيب الكبير هذه الكلمات القاتلة التي نزلت علينا نزول الصاعقة بسرعة شديدة ودون أي تعبيرات على وجهه، وهو ينصحني بترتيب أموز حياتي قبل المغادرة المحتومة بعد الفترة المحددة.

ظللت أنظر إليه وأنا لا أصدق نفسي، وكأنه يتحدث عن إنسان آخر! وعقلي يفكر مَن هي تلك التي ستنتهي حياتها خلال ٥ سنوات من الآن؟ أنا... أنيسة ابنة عصام وفتحية، زوجة شريف ووالدة سلمى ومها، وجدة علي وفريد وشريف، وشقيقة زينب ومها ومنال، وحماة سامح وعلاء، وأخت زوجتي عاطف ونبيل، وخالة نُهى وداليا وعصام ومديحة! مش معقول، إزاي ده يحصل؟ أنا لسه ما شبعتش منهم ونِفسي أظل سنوات طويلة معهم، وآخدهم في حضني! دا أنا كنت عاملة حسابي إني

هعدّي ٨٠ سنة، وعمّالة أفكر إزاي آخد بالي من صحتى علشان أحضر تخرُّج الأحفاد، ويااريت أجوِّزهم كمان! كيف، ولماذا، ومتى حدث لي ذلك؟ ومن أي نقطة ضعف تسلل هذا العدو إلى جسدي؟ وكيف لم تظهر عليّ أي أعراض؟ وكيف لم يُنذرني أي من الأطباء بشأن هذه السيناريوهات المحتملة، لقد كنت سليمة تمامًا ولا أعرف ولا أحس بهذه الكارثة حتى أغسطس الماضي، ونحن الآن في أكتوبر، فكيف تطورت الأمور بهذا الشكل خلال شهرين؟ كيف يتبقى لي في هذه الحياة خمس سنوات فقط؟! يعني حفيدي الأكبر علي سيبلغ عندئذ ١٢ عامًا فقط، بينما فريد وشريف سيفقداني وهما في السابعة من العمر، ولن يتذكرا شيئًا عني، وماذا ستفعل سلمى ومها بدوني؟ وهل ستتحملان هذا الحزن العميق؟ وماذا سيفعل شريف وشقيقاتي من بعدي؟ لا بد أن هناك خطأ ما، فالحياة لا تنتهي بهذا الحسم القاطع في كلام الطبيب، هل هذه دعابة سخيفة؟ وهل سينطق الطبيب فجأة مبتسمًا

ذلك؟ وسألت ثانية ماذا نفعل في هذا الشأن؟ فقال لها بكل البرود البريطاني: ليس لديكم ما تفعلونه؛ لأن هذا هو أخطر سرطانات النساء وأكثرها عدوانية، وأكثرها قتلًا للنساء، ومن المعتاد أن تتكرر الإصابة به بعد عامين، أما نِسب الشفاء الكامل فلا تتعدى ٢٠٪ من إجمالي حالات الإصابة، ولكي يُعتبر الشفاء قد تم فلا بد أن تمر خمس سنوات على الأقل، وللتأكد من تمام الشفاء يجب أن تمر ١٠ سنوات كاملة بدون عودة للمرض. بعد هذه العبارات الصارمة لم يعد هناك شيء يُقال أو إجابات يمكن أن يساعدنا بها في هذه المأساة، فقُمنا من مقعدَينا صامتتَين وشكرناه في مصافحة ميكانيكية، وخرجنا من المكتب ونحن عاجزتان عن الحديث، منكسرات النفس، ومظاهر الحياة تسير من حولنا في المستشفى كالمعتاد، فالطبيب يتحدث إلى مساعِدته والمرضى جالسون على المقاعد، والمصاعد تتحرك صعودًا وهبوطًا تحمل الناس، وأنا وسلمى؛ التي تجر حقيبة الأشعات والتقارير خلفنا،

صامتتان وكأننا في فضاء خارج المستشفى ولا ندري أين نحن، وما الذي أحضرنا إلى هذا المكان لنتحدث مع غرباء يقررون مصيري ومستقبل عائلتي، ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

خرجنا من باب المستشفى دون أن ننبس ببنت شفة، وكأن صاعقة قد انقضَّت على رءوسنا، وكانت السماء تمطر وكأنها حزينة علينا ومعنا، وكانت هذه من أقسى لحظات مرضي، فقد تبددت كل الأحلام المتفائلة وتوقف عقلي عن التفكير، وعجزت عن إدراك أين أنا وماذا أفعل بعد هذه اللحظة الفاصلة، وما هو المطلوب بعد حديث الطبيب القاطع، هل أرقد في فراشي وأنتظر نهايتي حتى تأتي؟ وإذا كان الحد الزمني لعُمري قد تحدد فعلا، فلماذا المعاناة في جراحة خطيرة وعلاج كيميائي مؤلم؟ هل أستسلم وحسب؟ ولكن هل سأعيش السنوات الخمس إذا لم أُجرِ الجراحة وأواصل العلاج الكيميائي؟ وأحسست أن رأسي سينفجر من كثرة التفكير وأنا واقفة على رصيف المستشفى تحت

رذاذ المطر، وكانت سلمى الحزينة في صمت قد أوقفت تاكسي فركبناه في سكون ونحن لا نستطيع مواجهة بعضنا البعض.

اتصل بنا شريف للاطمئنان على نتيجة الاستشارة الطبية ونحن في التاكسي، فردَّت عليه سلمى بما حدث باختصار وأنا صامتة أنظر من الشباك إلى أنوار الشوارع والمحلات اللندنية ودموعي تنهمر على وجنتيّ بدون توقُّف، ودخلت في حالة عدم الرغبة في تبادل الحديث، فلم تكن أعصابي تحتمل النقاش حول الموضوع، ولم أكن أتحمل التفكير في الأيام الباقية من عمري أيًّا كان عددها، وكل ما أفكر فيه أنني لا أريد ترك عائلتي بهذه السرعة، وكيف سأتحمل الفترة القادمة الباقية، وكيف سأتخذ قرارات العلاج، وأين تتم العملية، ولكن وفقًا للمشاعر المصرية المعتادة على عبارات «الطبطبة والحنية» فقد كرهت الطبيب حتى وإن كان كلامه صحيحًا، وبالتأكيد فإنني لن ألجأ له للعلاج وإجراء العملية حتى وإن كان أحسن طبيب

في العالم، فطريقته المباشرة القاسية لم تُعجبني، واستعجاله في الكشف وإخباري بالحقائق دون مراعاة لمشاعري وبث الطمأنينة التي تعودنا عليها في القاهرة أغلق الباب بيني وبينه مستقبلًا، وأخذت أفكر ماذا سأقول لشريف، فمن المؤكد أنه لن يتركني قبل أن أتحدث إليه وأحكي له ما حدث، ولكني كدت أختنق بالبكاء، فطلبت من سلمى أن يتحدث إليَّ لاحقًا.

أما سلمى؛ وهي المسكينة التي لا تعرف ماذا تقول في مثل هذه الظروف، وكيف تُخفف عني سوى بالعبارات المعتادة للطمأنة، فقد قالت لي ونحن في التاكسي إننا ما زال عندنا موعد غدًا مع طبيبة أخرى في «هارلي ستريت»، ولكني رفضت ذلك تمامًا، وطلبت أن تعتذر في الصباح، فأنا لن أحتمل سماع تشخيصات أخرى لمرضي وحقائق «باردة» إضافية حول إصابتي من شأنها أن تقضي عليَّ تمامًا، فصبرت سلمى بهدوء وطلبت مني في رجاء رقيق بطريقتها المهذبة أن نذهب لموعد

العشاء المحدد في المطعم، واستسلمت لها لإشفاقي عليها من الجو الكئيب في غرفة الفندق عتيقة الطراز، واتجهنا للمطعم في صمت عميق وتناولنا وجبتنا دون أن أحس لها بأي طعم، وحاولت سلمى إخراجي من هذه الحالة دون جدوى، وأنا قلبي يتعذب من أجل قلقها الذي أحس به، لكن لا أعرف ماذا أقول في مثل تلك اللحظات، وبعد عشاء خفيف غادرنا إلى فندقنا، حيث دخلت سريرها وظللت أنا جالسة على الكنبة تكاد تقتلني الأفكار السيئة وأنا هنا في إحدى عواصم الطب العالمية بعد أن جلست مع أحد كبار الأطباء في بريطانيا العظمى كما يقال، فماذا يمكن أن أفعل أكثر من ذلك؟ وإلى مَن ألجأ بعد ذلك؟ وما الفائدة من زيارة مزيد من الأطباء، وماذا يمكن أن يُضيفوا لي بعد ما عرفته وبعدما تقرر مصيري المحتوم، كما كنت أفكر هل أستسلم لمصيري دون مقاومة؟ أم أبحث عن سيناريوهات أخرى قد تكون أكثر تفاؤلًا، وأين سأجدها؟!

كنت أحس بالاختناق وأنا أجلس وحدي على الكنبة العتيقة، ولا أعرف أين أهرب من أفكاري الكئيبة والمخيفة، وأفكر هل ما يحدث لي حقيقي بالفعل أم أنه كابوس مُرعب يمكن أن أستيقظ منه فجأة! وأخذت ألوم نفسي متسائلة عما إذا كنت قد تسببت بنفسي في الإصابة بهذا المرض الخبيث عندما استسلمت للقهر الذي أصابني بعد قرار المؤسسة الظالم! وهل كان يجب عليَّ أن أتفاءل وأقاتل في حينه وأدخل في معركة إعلامية أُعبر فيها عن رأيي، وأحكي ما حدث بصراحة، وبذلك أُقلل من إحساسي بالظلم والقهر الذي قاد، في اعتقادي، إلى إصابتي بالمرض! ثم أعود وأقول أنْ ليس من طبعي أن أضر بالآخرين من الفريق الذي عملت معه، صحيح أنني قد صُدمت وفقدت ثقتي بكبار هذا المشروع، قُساة القلوب الذين لم ولن أسامحهم على الطريقة المهينة التي سخروا بها من عملي وأدائي على مائدة اجتماعات المجلس في المرة الأخيرة، بعد أن كانوا يشيدون قبل ذلك بما

فعلته من أجل هذه المؤسسة ليلَ نهارا! ولكنني أعود وأقول إن كل شيء مكتوب ولن يتبدّل مهما نفعل.

فكيف يتغير الناس بهذه الطريقة إلا إذا كان ذلك لأسباب شريرة كامنة في النفس قد تختفي وراء حُب الظهور أو الغيرة، أو أسباب سياسية أو غيرها؟! الله أعلم، ولكن أؤمن أنهم قد آذوني بينما أنا لم أفعل لهم وللمؤسسة سوى كل خير. ظلت هذه الأفكار تُعذبني حتى مطلع الصباح وأنا لا أستطيع الراحة ولا أعرف ماذا أفعل، وعندما تحدثت إلى شريف في ساعة متأخرة من نفس الليلة صمّم أن أذهب إلى الطبيبة الثانية غدًا في موعدها المحدد الخميس بعد الظهر، وقد قلت لشريف إنني لن أسمع شيئًا جديدًا، ولا أحتمل سماع نفس الأخبار السيئة من طبيبة بريطانية أخرى، فما سمعته كثير، ويكفيني لدهر كامل من الإحباط، ولكنه قال: «عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم»، وأكّد على ضرورة الذهاب ما دُمت في لندن، فلا يجب أن أهدر فرصة الاستشارة الطبيبة الثانية، واستسلمت لنصيحته،

وقلت لنفسي ماذا سأخسر سوى بعض الوقت؟!

قضينا صباح اليوم قبل الأخير في لندن بين المحلات، حيث تبضعت سلمى للأحفاد بعض الهدايا البسيطة، ثم استعددنا للذهاب إلى الطبيبة الثانية؛ الدكتورة «ماري ماكورمك»، في «هارلي ستريت»؛ شارع الأطباء الشهير في العاصمة البريطانية. وصلنا في الموعد المحدد وجلسنا في قاعة انتظار بسيطة وأنيقة في مدخل المبنى، وكان قد جلس فيها بعض المرضى الآخرين في هدوء، ووُزعت المجلات على مناضدها الصغيرة، وقد أخبرونا أن الطبيبة ستتأخر قليلا. بعد فترة طلبوا منا الذهاب إلى الطابق الأعلى، وصعدنا إليه لنجلس في غرفة انتظار أخرى، تجلس على مكتب بها ممرضة ملامحها آسيوية الأصل، وبدأت سلمى تُقلب في بعض المجلات أثناء جلوسنا.

* * *

وهنا طرأ على ذهني، الذي لا يكاد يستقر على

موضوع بعينه، أنني منذ أسابيع قد ذهبت لأداء واجب العزاء في وفاة صديق عزيز لنا يعرفه زوجي منذ أيام الشباب الأولى، وقد تزاملا في الدراسة الجامعية، وأصبحت صداقتنا عائلية مما دعَّم تلك الصداقة بصورة أقوى، وعاش كل منهما مع الآخر الأفراح والأحزان وذكريات الدراسة وشقاوة الشباب ومغامراته حتى ارتبط كل منهما بزوجة وأنجبا الأبناء، وامتدت الصداقة والود حتى الأجيال الجديدة من أبنائنا؛ وقد أتت الوفاة الفجائية لصديق العمر كصدمة ثقيلة بالنسبة لزوجي الذي لطمته الأخبار الفاجعة على حين غرة ففقد توازنه النفسي لعدة أيام ثقيلة على القلب، وهذا ما يواجهه المرء عند اختفاء الأحباء من حوله دون سابق إنذار، مما يفقد الحياة جزءًا لا يُستهان به من بهجتها، حيث يختفي من صورتها المُحملة بالذكريات الحميمة أحد شخوصها المُقربين؛ وكالعادة في مثل هذه الأحداث الحزينة يزور الأصدقاءُ أرملةَ الفقيد وعائلته، وتدور الأحاديث

التي تُبللها الدموع عن الذكريات البعيدة والقريبة واللحظات الأخيرة وضربات القدر الموجعة ليُساند بعضنا بعضًا؛ محاولين بثَّ السكينة في قلوب العائلة المكلومة التي أصابتها الوفاة المفاجئة في مقتل، مما أدى إلى مرورٍ جميع المقربين بحالةٍ من عدم القدرة على استيعاب ما حدث، غير مُصدقين أن الركن الركين لتلك العائلة الصغيرة قد اختفى من حياتهم إلى الأبد، فلن يسمعوا صوته أو يحظوا بمشاهدته بعد ذلك بينهم، وهذا الشعور من عدم التصديق يُنعم الله به على المصابين للتخفيف عن نفوسهم في تلك الأيام الأولى الصعبة حتى تنزل سكينته على قلوبهم، وبطبيعة الحال فإننا جميعًا قد مررنا بمثل تلك اللحظات التي تنكسر فيها القلوب ويهتز بعُمقٍ اطمئنانُنا المتفائل إلى أن الحياة ستظل دائمًا كما عرفناها، دون تبديل أو تغيير، ثم نستيقظ ذات صباح لنجد أن الأمور قد اختلفت بطريقة دراماتيكية صارخة، وأصبحنا نحن في داخل أحداثها التي اعتدنا أن نشاهدها عن بُعد، سادرين

في أحلامنا الوردية.

وفي أثناء الزيارة لعائلة الفقيد وتبادل أحاديث العزاء والذكريات، والخبرات المتراكمة عبر العمر الطويل بشأن مثل هذه اللحظات القاسية، وكيف أننا نواجه حقيقة واحدة في الحياة؛ وهي حتمية الموت وفراق الأحباء، وأننا لا نعرف متى ستأتي هذه اللحظة التي لا مفرّ منها، حينها قالت صديقتي العزيزة أرملة الراحل إنها عادة ما تستيقظ كل صباح وهي تسأل نفسها هل هذا هو اليوم الأخير؟ هل هذا هو اليوم الذي ستودع فيه الحياة وتفارق أحباءها؟ وأنها مستعدة لحدوث ذلك في أي لحظة، وتواجه هذا السؤال الصعب كل يوم جديد تطلع شمسه عليها؛ ومنذ سمعت ذلك منها وأنا أفكّر، هل هذا هو ما يجب أن نُفكّر فيه يوميا، وهل مثل هذا التفكير يُسهل ويخفف علينا مصاعب الحياة، حيث إننا مفارقون في أي لحظة، وبالتالي، فالغضب والصراع والتكالُب على الأشياء الزائلة ليس له مغزى أو جدوى؟! أم أن ذلك سيصعّب علينا الأيام الباقية

بالتفكير فيما سيحدث للأحباء من حولنا؛ الزوج والأبناء والشقيقات، عندما نختفي من حياتهم فجأة، وخشيتنا عليهم في مواجهة تحديات الحياة وحدهم، والقلق على انكسار قلوبهم مع قسوة الفراق؟ وهل تقدُّمنا في العمر هو ما يدفعنا إلى مثل هذه الأفكار، أم أنها الخشية من الوحدة القاتلة إذا ما سبقونا هم إلى المغادرة المحتومة لا قدر الله؟

لا أعرف في حقيقة الأمر الإجابات الصحيحة على تلك الأسئلة الصعبة، ولكن لا شك في أننا نتغير يوما بعد الآخر وتزداد مخاوفنا وهواجسنا، ويزداد تعلُّقنا بمن حولنا وتُرعبنا فكرة الفراق التي كانت لا تخطر لنا على بال في سالف الأيام، وحيث إن الأمر كذلك فلندعُ الله أن يحفظهم لنا ويمد في أعمارهم ويسعدنا بوجودهم، ولنحمد الله سبحانه وتعالى على نِعَمه الكثيرة، التي لا نُدرك قيمتها إلا عندما نفقدها، وحينئذ تعتصر قلوبنا حزنًا على ذلك، ولنستمتع بكل يوم نقضيه بين الأحباء في صحة وسعادة وراحة بال؛ فتلك نعمة لو تعلمون عظيمة لا

يحظى بها الكثيرون من حولنا.

فدعونا نحتفي بوجودهم المُبهج ونجتمع معًا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، ونحاول تحقيق أمانيهم وأحلامهم كلما سمحت قدراتنا بذلك لكي نرى الابتسامة على وجوههم، والفرحة في عيونهم؛ فهذا هو مغزى الحياة الطيبة، أما اليوم الموعود والقدَر المحتوم فآتٍ لا ريب فيه، وترقُّبنا لحلوله أو تجاهلنا لذلك لن يُغير من الأمر شيئًا، وكما يقول المَثل الشهير «اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين»، وسواء كان هذا هو اليوم الأخير أم قبل الأخير، فنحن مُلاقو ربنا إنْ عاجلًا أو آجلًا!

ومن المؤكد أننا جميعًا تمر بنا لحظات صعبة تبدو فيها الأمور وكأن الدنيا قد أدارت لنا ظهرها وتركتنا في ظلام دامِس ليس به شمعة من الأمل، أو بَصيص من نور يدفعنا إلى بذل الجهد للاستمرار فيما نفعله أو نطمح إليه، أو حتى الاستمرار في الحياة ذاتها، خاصة إذا كنا نُعاني مرضًا مهدِّدًا

للوجود، والخطر في مثل هذه اللحظات حالكة الظلام هو أن نتركها تُسيطر علينا فتسحبنا في دواماتها إلى قاع اليأس وعدم الرغبة في المقاومة للخروج إلى السطح، مدفوعين بالرغبة في استنشاق نسمات الأمل في تغير الأحوال وإقبال الدنيا بعد إدبار، وأنا أعلم أن هذه الكلمات قد تبدو في بعض الأحيان وكأنها مجرد حِبر على ورق، ويسهل قولها عن فعلها؛ لأن قسوة الظروف في مثل هذه الأحوال قد لا تتيح لمن يمر بها رفاهية التفكير الموضوعي أو المتأمل في فلسفة الأشياء، لأن ضربات القدَر يصعب أحيانًا احتمالها أو التغلب عليها في ظن مَن يعانيها أو يمر بها.

وأتذكر أن الأطباء الذين قابلهم شريف في فترة العلاج الأولى كان لهم آراء مختلفة، وكان من بينهم أطباء مصريون مُقيمون في إنجلترا، فهذه الفترة الأخيرة كانت حافلة بالاتصالات واللقاءات، والبعض منهم كان رأيه أن العملية يجب أن يتم إجراؤها بعد الجلسة السادسة مباشرة مع عدم الانتظار للجلسة

التاسعة، مع التأكيد في نفس الوقت على أن هذه ليست قاعدة عامة لجميع المرضى، فكل مريض أو مريضة عبارة عن حالة مستقلة؛ لأنه ليس من الضروري أن تستجيب كل الخلايا بدرجة واحدة، ولا يكون في وسعنا عندئذ سوى الأمل في وجه الله أن يحدث ذلك، فالعلاج كما يُقال ليس قرآنـًا مُنزلًا، وقد أبدى بعض الأطباء مخاوفهم من أن يتسبب اتخاذ إجراء معين دون غيره في انفجار بالمعدة لأسباب طبية لا أفهمها، ولكن دائمًا يجب أن نتذكر أن العالم لم يتفق علميًا على جميع تفاصيل العلاج، ولذلك فإن عقار الـ«Avastin» على سبيل المثال مُختلَف عليه، فهو يزيد من نِسب الشفاء في نظر البعض، ولكن ليس هناك نِسب قاطعة حول مَن يستفيد منه ومَن لا يستفيد، وهو في جميع الأحيان يجب وقفه قبل إجراء الجراحة بستة أسابيع؛ لأن له مشاكل مع التئام الجروح. ظلت المعلومات تنهمر علينا من أطراف مختلفة ليصبح الأمر في النهاية في يد المريضة ومَن يحيطون بها ويحبونها

ويرغبون من القلب في شفائها، فيدرسون الخيارات ثم يهديهم الله إلى الاتجاه والاختيار المناسبيْن.

* * *

وبينما أنا مُستغرقة في أفكاري، إذ طلبوا منا الدخول إلى مكتب الطبيبة التي استقبلتنا من خلف مكتبها بابتسامة ودودة مُرحبة، وطلبت منا الجلوس، فقدمنا لها الأشعات والتحاليل كالعادة، وحكينا لها القصة المكررة لاكتشافي المرض حيث استمعت إلينا بإمعان، ولكن دون كشف موضعي مثل الطبيب السابق، ثم بدأنا المناقشة، حيث أكدت نفس التشخيص مثل الآخرين، ولكنها علّقت هنا أن مظهري الخارجي لا يدل على أنني مُصابة بالمرض اللعين في درجته الثالثة، حيث عادة ما تُعاني المريضات من تضخم واضح بسبب كثرة السوائل في البطن، كما تكون أذرعهن رفيعة بشكل ملحوظ، وتفاعلت سلمى عندما قالت الطبيبة ذلك، وشعرت أنه ربما والدتها الحبيبة ما زال لديها أمل، ولكن

الطبيبة أكدت أن الأوراق تدل على نفس التشخيص الذي وجده الأطباء الآخرون، ثم استمررنا في الحديث، حيث اقترحت إجراء تحليل دم لدلالات الأورام لمعرفة أثر العلاج الكيميائي بعد مرحلة العلاج الأولى، وكذلك إجراء أشعة «CT» في أحد المستشفيات الإنجليزية، ولكن كل ذلك يعتمد على إمكانية إيجاد مواعيد قبل مغادرتي إنجلترا بعد ظهر اليوم التالي، وأن سكرتيرتها ستحاول إنجاز ذلك في الصباح وتخبرنا بنتائج محاولتها.

وطلبت أيضًا أن نعطيها عينة الباثولوجي السابق تحليلها في القاهرة لإعادة فحصها مرة أخرى، وفعلنا ذلك، ثم طرحنا الأسئلة المعتادة حول الطعام والشراب وأسلوب الحياة، حيث أكدت على أن الطعام الصحي ضروري، وأنه يجب دائمًا تفادي المُعلب أو المحفوظ، وأن الحركة البدنية مطلوبة والرياضة الخفيفة هامة، ثم إن الحفاظ على الحالة المعنوية ضروري، وانتهينا كالعادة بأسئلة توقعات استمرار الحياة والشفاء وفقًا لخبرتها كمتخصصة

في هذا النوع من السرطان، حيث قالت كلامًا مشابهًا للطبيب البريطاني الذي قابلناه بالأمس، ولكن بطريقة ألطف، فقد قالت إنها قد شاهدت في حياتها العملية مريضات قد عِشن حتى ثماني سنوات بعد الإصابة، وما زلن يُراجعن حالتهن؛ وهكذا تكون قد مدَّت المسألة بزيادة ثلاث سنوات أخرى عن الطبيب السابق، ولكن يظل الأمر محتومًا، وأضافت أنها كانت تُفضل إجراء الجراحة أولًا قبل بداية العلاج الكيميائي، لأن الأعضاء المصابة بالمرض كان يجب إزالتها فورًا، ولكن ما دُمنا قد أخذنا تسع جلسات بالفعل فهي تُفضل إجراء الجراحة بأسرع ما يمكن.

وعندما سألناها عن السيناريو الذي تم طرحه في حضور الطبيب الفرنسي الزائر، وهو إجراء ثماني عشرة جلسة كلها أولا، ثم إجراء الجراحة، رفضت ذلك بشكل قاطع قائلة إن بقاء تسع جلسات بعد الجراحة يسمح بالقضاء على بقايا أي خلايا ميكروسكوبية لم يرها الجرَّاح، أو لم ينجح في

إزالتها، ولذلك فالعلاج الكيميائي ضروري بعد الجراحة، وعندما أضافت الطبيبة ما ذكره الطبيب الأول من احتمالات عودة المرض مرة أخرى بعد عامين بالرغم من إزالة جميع المناطق المُصابة بالسرطان، سألَتها سلمى ولماذا يعود المرض إذا كنُا قد أزلنا كل المناطق المصابة، فشرحَت الطبيبة أن استئصال المناطق المصابة من داخل تجويف البطن، إضافة إلى استئصال الغشاء البريتوني الذي يُحيط جميع أعضاء الجسم في هذه المنطقة؛ وذلك لإصابته بخلايا سرطانية، يؤدي إلى وجود فراغ كبير في هذه المنطقة، مما يساعد بمرور الوقت على نمو الخلايا السرطانية مرة أخرى، وهذا أمر لا بد منه للأسف، ولا يمكننا إيقافه.

ومنذ تلك اللحظة بدأت تشغلني مسألة كيف يموت الناس من السرطان، نعم هناك خلايا سرطانية مشوهة تنتشر في الجسم، ولكن كيف تقتل المريض؟ ما الذي يصيبه في جسده بحيث يُتوفى من هذا المرض طال الوقت أم قصر؟

غُدنا إلى الفندق دون إجابات جوهرية مختلفة، ولكننا قد لاقينا من هذه الطبيبة معاملة ألطف هدَّأت قليلًا من مشاعرنا المتوترة، فوفقًا لتجربتي الشخصية أعتقد أن الطبيبات أكثر شعورًا بالمريضات ومُعاناتهن النفسية، وغالبًا ما يكُنَّ أكثر رفقاً بهن وبمشاعرهن. في اليوم التالي استيقظنا مبكرًا وأعددنا حقائبنا في انتظار أي معلومات عن موعدَي التحليل والأشعة، وبالفعل اتصلت بنا سكرتيرة الطبيبة «ماكورمك» لتخبرنا بأن هناك موعدًا قد تحدد لأخذ عينة دم لتحليل دلالات الأورام بعيادتها، ثم يليه موعد الأشعة في أحد المستشفيات الشهيرة، بحيث ننتهي قبل موعد الطائرة المغادِرة إلى القاهرة، وبالفعل تم أخذ عينة الدم على أن تظهر نتائجها في نفس اليوم، وقامت إخصائية متوسطة العمر شديدة الهدوء بأخذ العينة بمنتهى السلاسة، فلم أشعر بأي ألم؛ فشكرتها بحرارة على «يدها الخفيفة» كما نقول. بعد ذلك ذهبنا إلى المستشفى، حيث كانت الإجراءات

بسيطة ومُيسرة، فبعد تسجيل الاسم ودفع التكلفة جلسنا في قاعة انتظار، توجد بها مشروبات ساخنة مجانية، مع مرضى آخرين، وبعد وقت قصير أتت ممرضة لطيفة مبتسمة واستدعتني لإجراء الأشعة دون أن يحتاج الأمر، كما في القاهرة، لارتداء شيء خاص لذلك أو تغيير ملابسي، بل ذهبت معها، بعد أن سألتني فقط إذا ما كان هناك أي معادن في ملابسي، واستغرقت الأشعة، كما قالت الممرضة، خمس دقائق لا أكثر، وهذه معجزة بالنسبة لامرأة مثلي تكره الإجراءات الطويلة، وبعد ذلك أتت الممرضة لتساعدني على النهوض وطلبت مني الانتظار في غرفة جانبية لمدة عشر دقائق حتى يتأكدوا أنه ليست هناك آثار جانبية لهذا الإجراء، ناصحين ألا أقوم فجأة من على مقعدي تحسبًا لأي دوار بعد رقدتي، وجلست على مقعد مريح في القاعة المجاورة وسألتني الممرضة إذا كنت أود شرب أي شيء فانتهزت الفرصة وطلبت مشروبي المفضل؛ الشوكولاتة أو الكاكاو، حسبما تيسر، كما

أنهم مراعاة لمشاعرنا قد استدعوا سلمى لتجلس معي حتى لا يصيبها القلق بسبب تأخري عليها.

وبعد عشر دقائق سمحوا لنا بمغادرة المستشفى فاتجهنا إلى الفندق لإحضار الحقائب والذهاب إلى مطار «هيثرو» للحاق بالطائرة المغادِرة للقاهرة، وركبنا السيارة إلى المطار في ارتياح لأننا كنا مُتشوقين للعودة للقاهرة، وفي المطار تلقينا لأول مرة بعد أسابيع طويلة خبرًا سعيدًا؛ فقد أرسلت عيادة الطبيبة «ماكورمك» إيميلًا تسلّمناه في المطار يوضح أن دلالات الأورام قد انخفضت عما كانت عليه عند بدء العلاج، ولذلك صعدنا للطائرة ونحن في حال نفسية أفضل والحمد لله.

وقد رأيت ارتفاع مستوى الكفاءة في بريطانيا بخصوص الإجراءات الطبية والاهتمام بالرد الفوري على المريض سواء بالمراسلات الإلكترونية أو المكالمات التلفونية، وسهولة الانتهاء من المعاملات الورقية والمالية في أسرع وقت ممكن، وقصر مدة

الانتظار في مركز الأشعة، وربما ما ينقصنا في مصر هو الإدارة الرشيدة الصارمة لأطقم التمريض، والتخصص الطبي الدقيق في كل نوع من أنواع السرطان لمختلف الأطباء في هذا المجال، وهذه هي انطباعاتي الأولى عن بعض المستشفيات والعيادات في لندن.

ولا بد أن أقول في هذا المقام إن وجود سلمى معي في لندن كان معاونًا وداعمًا لي لأقصى حد؛ فابنتاي هما نور قلبي وقرة عيني، ولا أتخيل لحظة من حياتي دونهما، ولو اجتمع كل الحب الذي في العالم في مكان واحد فهو لا يساوي قطرة من حبي لسلمى ومها، فهما كل شيء بالنسبة لي، أسأل الله أن يسعدهما وزوجَيهما وأولادهما، وأن يحقق لهما كل الأماني الطيبة والأحلام السعيدة، وأعلم أنني أجهدتهما خلال الشهور الطويلة الماضية، وقد تحملتا معي لحظات الانهيار والحزن وكسرة القلب، وساندتاني لكي أحتفظ بالأمل من خلال ابتساماتهما ودعواتهما، وتركتا أولادهما وزوجيهما لتكونا معي

في فترة العملية الصعبة والطويلة وما بعدها. جلست سعيدة جدًّا على مقعدي في الطائرة بسبب وجود سلمى في المقعد المجاور لي، عكس رحلة السفر التي كنت فيها وحيدة، وأخذت أنظر إليها بين الحين والآخر وهي تقرأ أو تشاهد فيلمًا على شاشة المقعد، وكل فترة أربت على ذراعها أو أمسك يدها وأنا مُبتسمة؛ لأنه يكفيني وجودها أو وجود شقيقتها مها بجواري.

* * *

ولا شك أن أهم الدروس المستفادة من هذه القصة المؤلمة والتجربة العسيرة أنها تجعلك أكثر إدراكًا لِنِعَم الحياة التي تحيط بك، والتي كنت دائمًا تأخذها كأمور مُسلم بها، ثم تكتشف فجأة أن هناك الكثير مما كنت تود قوله لمَن حولك أو ترغب إنجازه خلال حياتك، ولكنك ظللت تؤجله يومًا بعد الآخر ظنًّا أنك ستعيش إلى الأبد، وأنه ما زال هناك كثير من الوقت لإنجاز كل ما كان عليك الاهتمام به

قبل ذلك، ولكن في مواجهة هذا المرض الشرس تدرك فجأة أن لكل يوم، بل لكل لحظة، قيمة كبيرة يجب استغلالها والاستمتاع بها، وشُكر الله عليها، كما أنك تبدأ في التفكير جديًا في إعادة ترتيب أولوياتك، ويصبح قضاء مزيد من الوقت مع أحبائك أكثر أهمية وأولوية من أي شيء آخر، فهذه هي اللحظات التي لن تعوض، والتي لها قيمة في الحياة في نهاية الأمر، أما غيرها فهامشيّ إلى درجة كبيرة، فأنت في الأساس تعيش حياتك وتبذل جهدك لتُسعد أطفالك، ويظل ذلك هو هدفك الأساسي حتى بعد زواجهم وقدوم الأحفاد الأحباء، ولكن خلال ذلك الجهد والرحلة الطويلة يفوتك أحيانًا قضاء الوقت الكافي مع هؤلاء الأعزاء، فهم يكبرون ويُحبون ويتزوجون ويُنجبون ويمضي الوقت بسرعة الضوء، وتدرك أنك لم تأخذهم في أحضانك بالدرجة التي تُشبعك، ولم تغمرهم بالعدد الكافي من القُبلات، بالرغم من أنك قد قبّلتهم بالفعل ملايين المرات، ولكن في الواقع لا شيء يكفي للتعبير عن

حُبك ومشاعرك لهؤلاء الأحباء الذين يُشكلون جوهر حياتك، وتتمنى أن تعيش من أجلهم إلى الأبد، فما يُخيفك من الموت هو الفراق، وفقدانك لصُحبتهم ووجودك في حياتهم، وتتمنى لو تحملهم داخل قلبك أينما ذهبت ولا تبتعد عنهم لحظة واحدة.

فتذكروا دائمًا هذه الحقيقة؛ فليس من الضروري أن تكون مصابًا بالسرطان مثلي لتتهدد حياتك، فالحياة كما يقولون «نفَس طالع ونفَس داخل»، وهذا الأخير في لحظةٍ ما يمكن أن يطلع ولا يدخل مرة ثانية، فاستمتع بأيامك الحلوة ولحظاتك الجميلة مع أحبائك، واحمد الله على نِعَمه الكثيرة التي لا نُدركها أحيانًا بسبب انشغالنا بالتوافه من الأمور، والأكثر تعقيدًا أننا في خلال المرض تكون مشاعرنا متضاربة بين الخوف والأمل، ونغوص في الموضوع وتستغرقنا تفاصيله وهوامشه وأوجاعه الوقتية وأعراضه الجانبية، وكنتيجة لذلك تتركز أفكارنا على اللحظة الآنية وننسى المشكلة الأكبر؛ وهي عواقب المرض المستقبلية، وهل من الممكن

التغلب عليه بمعجزة إلهية؟ وتزعجنا طيلة الوقت أفكار مثل هل تسببنا في إصابتنا بهذا المرض؟ وهل الله سبحانه وتعالى غاضب علينا فيعاقبنا بما أُصبنا به؟ أم أنه راضٍ عنا ويخفف من ذنوبنا لقاء ما نُعانيه من خوف وآلام في رحلتنا مع المرض، طال أم قصر مداها؟

* * *

جلسنا في الطائرة أنا وسلمى في طريقنا إلى الوطن متشوقين لرؤية مها وشريف، وكالعادة أمضيت الوقت في مشاهدة أفلام سينمائية حتى لا تتقاذفني الأفكار المحبطة نتيجة لاسترجاع كلام الأطباء في هذه الرحلة التي كنت آمل أن تمنحني أملًا جديدًا لم يتحقق، وكنت بين الحين والآخر في هذه الرحلة الطويلة بين لندن والقاهرة أنظر إلى سلمى الجالسة بجواري وأحمد الله على وجودها معي، وأشكره شكرًا جزيلًا على نعمة هذه الصحبة الجميلة، ووصلنا إلى مطار القاهرة لنجد شريف

ومها في انتظارنا بالقُبلات والأحضان. وجلسنا مجتمعين في منزلنا نحكي تفاصيل رحلة لندن ونُحلل نتائجها، ثم في اليوم التالي غُدنا إلى اتصالاتنا الخارجية بالمراكز الطبية التي يمكن أن أُجري بها الجراحة المطلوبة، بعد أن أكد جميع الأطباء والجراحين الذين استشرناهم في القاهرة بحتمية السفر لإجراء العملية بالخارج للأسباب السابق ذكرها، واستعرضت البنتان مختلف الخيارات المتاحة، وكتبا إلى إنجلترا وألمانيا واستعرضا خيارات أمريكا، وكان لدينا عرض فرنسا بالفعل من خلال البروفيسور «شيفالييه» الذي زار القاهرة قبل ذلك، ووصلتنا بعض المعلومات حول مراكز الولايات المتحدة لهذا النوع من السرطان، وكذلك أجابتنا مستشفى «رويال مارسدن» في إنجلترا لتحديد موعد مع جرّاحهم المختص د. «چون بتلر».

ولكن مشكلتنا الحقيقية كانت في الوقت الضاغط علينا، فالجلسة التاسعة للعلاج كانت قد

انتهت يوم ١٩ أكتوبر، وكان الأطباء في إنجلترا قد أجمعوا على ضرورة دخول غرفة العمليات خلال شهر منذ آخر جلسة، أو ٦ أسابيع على الأكثر من تاريخ إيقاف عقار الـ«Avastin» يوم ٢٨ سبتمبر (اعتبارًا من الجلسة السادسة)، وبالتالي أصبحت خياراتنا محصورة في حدود الأسبوع الأول من نوفمبر، لأن أي تأخير عن ذلك يسمح للخلايا السرطانية، التي توقف استخدام العلاج الكيميائي ضدها بعد الجلسة التاسعة، ولم تتم إزالتها بعدُ بمشرط الجرّاح، باستعادة نشاطها ونموها مرة أخرى، وهذا خطر بالغ يُفقدنا السيطرة على المرض في مرحلة خطيرة ولحظة فارقة من خطة العلاج.

وكما قالت شقيقتي مها وفقًا لتجربة زوجها عاطف، فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح لنا الأبواب أمام الطريق الذي يجب أن نسلكه، وسيلهمنا القرار الصائب، وكان عاطف ومها يُفضلان ألمانيا في ضوء تجربة عاطف هناك في الجراحة التي أكرمهما الله فيها، وقد فكّرنا جميعًا طويلًا في الخيارات المتاحة

والتي كانت تكلفتها متقاربة في ضوء الردود التي تلقيناها من الدول المختلفة، وعندما قمنا بمقارنتها ببعضها البعض وجدنا أن الرد الذي تسلمناه من البروفيسور الألماني «أندرياس دي بوا» في«KLINIKEN ESSEN-MITTE» هو الذي يتفق مع المواعيد التي يجب الالتزام بها بالنسبة للجراحة، فقد حدد موعدًا لمقابلتنا يوم ٢ نوفمبر، وموعدًا لإجراء العملية يوم ٤ نوفمبر، وهذا الجرّاح هو أكبر المتخصصين في هذا المجال، ولذلك ارتحنا لقرارنا، خاصة وأننا قد استشرنا معارفنا وأطباء مصريين يعملون في ألمانيا، فاتفق الجميع على أنه يُعتبر مرجعيةً في هذا النوع من السرطان.

وعليه بدأت البنتان في العمل على مراجعة الإجراءات المختلفة، فتولّت سلمى متابعة المستشفى في مدينة «إسن» الألمانية، وهو مستشفى كبير، له سُمعة ممتازة، وتعتبر هذه المستشفيات أكثر كفاءة من المستشفيات الخاصة هناك، وبالتالي أرسلت لهم قبل تحديد الموعد كلّ

الأشعات والأوراق والتحاليل، بينما انبرت مها للبحث عن أنسب خطوط الطيران لاستخدامها وفقًا للتواريخ المحددة، كما بدأت البحث عن شقة تسعنا جميعًا في الليلة الأولى قبل دخولي المستشفى، ثم تستوعب ثلاثتهم أثناء وجودي في الرعاية المركزة بعد الجراحة، وهي ماهرة جدًا في الحصول على أفضل الأسعار سواء في السفر أو الإقامة، وعندها دأب في المقارنة بين مختلف الأماكن حتى تحصل على أفضل سعر، ووفقًا لما سمعناه عن مدة الجراحة والبقاء في المستشفى بعدها، فقد كنا نتصور أننا لن نبقى في المستشفى أكثر من سبعة إلى عشرة أيام بعد العملية، وقمنا بحجز الشقة لمدة أسبوعين، على أن أرتاح بها بعد مغادرة المستشفى لعدة أيام قبل أن أعود للقاهرة بعد الاطمئنان على الجرح، وفعلا تولت مها ذلك بكفاءتها المعتادة، وكنا قد حصلنا على التأشيرة لألمانيا في فترة قصيرة بناءً على الأوراق الطبية المُرسلة من المستشفى الألماني لتسهيل ذلك.

وفي نفس الوقت كنت وزوجي نفكر في كيفية توفير المبالغ اللازمة للعملية والسفر والإقامة، وكان ذلك تحديًا كبيرًا بعد إجباري على ترك وظيفتي ومحدودية دخلنا المتاح بعد تقاعد شريف، ولكننا كنا دائمًا بفضل الله مستورين، ولكن غير مُستعدين لمثل هذه التكلفة الطبية الهائلة بالنسبة لمواردنا، وهنا تقدم والدي الحبيب وألقى لي بطوق النجاة من العالَم الآخر، فقد كان رحمه الله في ستينيات القرن الماضي قد اشترى من خلال نادي القضاة قطعة أرض في صحراء مصر الجديدة في ذلك الوقت، ثم بنى عليها عمارة بالتقسيط، وخصص لكل بنت من بناته الأربع شقة، وأوصانا بعدم التصرف بالشقق إلا في حالة الضرورة القصوى، وبالتالي عرضْت شقتي للبيع في أسرع وقت ممكن قبل السفر، ولم يكن أمامنا وقت كثير، وفعل شريف المستحيل ليستطيع تحقيق ذلك، ونزلنا بالسعر مرة بعد أخرى، وقد أصبحت حياتي على المحك، وبطبيعة الحال، فالمشترون دائمًا يستغلون الرغبة

العاجلة في البيع للنزول بالسعر إلى أقل درجة ممكنة، وفي تلك المرحلة لم يكن يهمنا ذلك، بل كان المهم أن يكون المبلغ كافيًا لتغطية تكاليف الجراحة والسفر مع عائلتي إلى بلاد بعيدة، في محاولة لإنقاذ حياتي إن قدر الله، وبالفعل بِعنا الشقة قبل السفر بعدة أيام وجهزنا أنفسنا للرحلة الصعبة.

جدير بالذكر هنا أنني قبل السفر مباشرة ذهبت أنا وزوجي لزيارة فضيلة المفتي السابق للديار المصرية ورئيس مؤسسة مصر الخير الدكتور علي جمعة، وذلك للدعم المعنوي والتشجيع قبل مواجهة رحلتي إلى المجهول في ألمانيا، ومعرفتي به لها قصة طريفة تستحق أن تُروى؛ فقد كنت أسمع عنه الكثير كأحد الرموز الدينية المستنيرة التي هي مِلء السمع والبصر، وفي أحد الأيام منذ تسع سنوات كنت أحضر اجتماعا بمكتبة الإسكندرية ودخلت إلى القاعة المخصصة لكبار الضيوف ففُوجئت بوجوده في القاعة المتسعة التي كان بها نفر قليل، وبالتالي قدمت نفسي إليه، ثم شغلني تلفون طارئ فخرجت

من القاعة، وبينما أتحدث وجدته يخرج في طريقه إلى المحاضرة التي سيُلقيها في المكتبة وسط جمهور غفير، وتحدثنا قليلًا حيث ذكَّرني أننا كنا زملاء في المدرسة الابتدائية ببني سويف، عندما كان والدي مُحافظًا لها في ستينيات القرن الماضي، وسبحان الله، بعد هذا اللقاء بعام توليت عملي في المؤسسة، وثقة من فضيلته في إدارتها كانت مؤسسة مصر الخير هي أولى المؤسسات المتبرعة لنا، وظلت داعمة لنشاطنا لسنوات عديدة.

كان لقاؤنا معه إيجابيًّا، حيث حكيت له كل شيء وطمأنني بكلمات طيبة بعثت الثقة في نفسي، وكان له تفسير بسيط مريح لمسألة الرؤيا التي رأيتها أثناء إجراء الأشعة الأولى التي كشفت لنا وجود المرض لأول مرة قائلًا إن أحدًا لا يعرف متى تحين لحظة وفاته، وإن مسألة الثلاث دقائق لا تعني شيئًا، فالزمن في عالمنا غير الزمن في العالم الآخر، وبالتالي تلك الدقائق قد تكون سنوات طويلة. كما تكرَّم وأهدى لي أحد الكتب حول الهيموباثي (وهو

الطب التجانسي؛ شكل من أشكال الطب البديل)، ناصحًا بقراءته، وأضاف أنه يعتقد أن هذا المرض قد أصابني نتيجه للضغط العصبي الذي تعرضت له، وأنه قد سمع مئات القصص المشابهة من نساء طلبن النصيحة بشأن ضغوط عائلية أو مهنية، ونصحني بأن أرمي ما حدث لي في المؤسسة وراء ظهري، وأن أنظر للأمام فقط، والله سبحانه وتعالى سيقف بجانبي حتى الشفاء التام، وقد طلبت منه التكرم بالدعاء لي في اليوم المُحدد للعملية بألمانيا.

وقد أثبتت لي تلك الأيام المضطربة المليئة بالأحداث بأنكِ إذا ألقيتِ حمولكِ على الله، ووثقتَ أنه سيجعل لكِ مخرجًا، فهذا يتحقق بالفعل بطرق غير متوقعة وبأشكال عديدة، فالله سبحانه وتعالى هو الرحمن الرحيم بعباده، ولا أعرف كيف أشكر أخواتي وابنتيّ العزيزتين اللاتي عرضن تقديم أي مساهمات مالية إذا احتاج الأمر لذلك أثناء نقاشنا حول تدبير الموارد اللازمة للجراحة، حفظهن الله جميعًا وأسعدهن بعائلاتهن؛ فروح التماسك العائلي

نعمة لا تضاهيها أي نعمة أخرى.

الصفحة الثالثة

غريبة.. وسط غُرباء

كان من القضايا التي تناقشنا فيها عائليًّا منذ معرفتي بمرضي، مسألة إخبار مَن حولنا بإصابتي بهذا المرض الخطير، وكنا حتى موعد السفر المحدد في الأول من نوفمبر قد أبقينا الأمر محصورًا في عائلتنا الصغيرة وشقيقاتي، ولم يخرج إلى الأقارب من الدرجة الثانية ولا للأصدقاء والصديقات؛ فأنت أحيانًا عندما تُصاب بمثل هذا المرض الخطير يساورك شعور غريب وكأنك شخص آخر منفصل عن الآخرين، ويساورك إحساس غير مفهوم بالخجل من مرضك، وكأنه ذنب قد ارتكبته في حق نفسك، وتخشى في داخلك أن يعاملك الناس وكأنك فارقت الحياة فعلًا ولم يعد لك دور فيها، أو يشفقوا عليك بطريقة تؤلمك كأنك قد أصبحت شخصًا ناقص الأهلية، أو في بعض الحالات قد يشمتون في مرضك، ولكن أعتقد أن الشماتة هي حالة نادرة؛

لأنها تتنافى مع الإنسانية.

ولذلك قررنا في البداية أن نحتفظ بالأمر لأنفسنا إلا مَن عرفه بالصدفة، ولكن بالنسبة لي كانت أهم الأسباب للاحتفاظ بالأمر سرًّا في تلك الفترة هي عدم قدرتي النفسية على الدخول في مناقشة حول إصابتي وتعاطُف الأصدقاء معي وتأثرهم مِما حدث لي؛ لأنني كنت أبكي كلما فكرت في مرضي المفاجئ الذي أصابني على حين غِرَّة، ولذلك كنت ساكنة معظم الوقت، أحتفظ بأفكاري لنفسي، باستثناء الانفجارات النفسية المفاجئة التي لا أستطيع السيطرة عليها، فتصيب شظاياها زوجي وابنتيّ، أعرب فيها عن خوفي من مصيري الذي أصبح محتومًا، وأبكي فيها بحرقة لعجزي عن التصرف في هذا الأمر، وبالتالي عدم تصديق عباراتهم المتفائلة حول الشفاء، وقد تحمَّلوني جميعًا بحُب وصبر وتقدير لما أمرُّ به؛ حيث إن هذا ليس من طبعي معهم على الإطلاق، ولكنهم كانوا يشاهدون انهياري والعوامل النفسية التي تتقاذفني

وتُمزقني فيفهمون أنني لا أقصد مضايقتهم، وأن هذه الحالة تحدث رغمًا عني ودون إرادتي، وأنا أشكرهم من كل قلبي على رعايتي؛ فقد مررت بتطورات قاسية وتغيُّر عالمي إلى الأبد، وأصبحت أخشى المفاجآت السيئة، وانعكس ذلك سلبًا على مدى تحمُّلي وصبري.

لقد بدأت كتابة هذه الصفحات استجابة لرغبة أحبائي في أن أسرد معركتي، أو بالأحرى «معركتنا» جميعًا مع مرض السرطان، ولكني أعترف بأنني كلما تقدمت في الكتابة أصبحت المسألةُ أكثر صعوبة؛ لأنها تستدعي الذكريات القاسية المؤلمة لمراحل المرض المختلفة التي أحاول تخزينها في مجاهل الذاكرة أو أحد أدراجها المنسية، وتجعلني تلك الذكريات، وأنا أعيش حياة شبه طبيعية الآن مع بعض الأعراض الجانبية القاسية للعلاج، أفكر ما إذا كنت في مرحلة «إنكار»، أو كما يُقال بالإنجليزية «Denial»، للواقع الذي أعيشه، وما أعانيه من مرض، والتحديات التي أواجهها، والمصير الذي ينتظرني..

لا أعرف!

ولكني قطعًا أمرُّ بمرحلة صعود وهبوط للمشاعر السلبية والإيجابية، ولا أعرف إذا كان من الممكن أن أضع خططًا مستقبلية حتى ولو للأجل القصير أو المتوسط، وأفكر دائمًا في النفقات والمصروفات في حال احتجت للعلاج مرة أخرى لا قدر الله، ومن أين سأدبر التكاليف؟ أخذًا في الاعتبار أنني في خلال الفترة الصعبة جدًّا عند إقامتي بالمستشفى دخلت في مرحلة اكتئاب وحزن عميق لم أستطع الفكاك منها لفترة ليست بالقصيرة، فطلبت من عائلتي إذا عاد المرض لي مرة ثانية بعد الجراحة والعلاج ألا أتعرض مرة ثانية لهذه الرحلة القاسية، ولكن يجب أن أوضح هنا لمَن يقرأ هذه الصفحات أن العديد من السيدات المُصابات بمرضي لم يعانين كما عانيت، وكانت تجربتهن أسهل، ولذلك فتجربتي خاصة جدًّا، وكما قال الجرَّاح الألماني الشهير؛ فأنا قد أصابتني كل التعقيدات الممكنة والأعراض الجانبية لمثل هذه الجراحة الكبيرة كما وردت في

كتب الطب، وكان ذلك حظًّا سيئًا غير معروف الأسباب، وقد تسبب في معاناة إضافية، ولكن أدعو الله أن تكون تجاربُ غيري أفضل، وأن يكُنَّ أحسن حظًّا.

* * *

بدأت الأيام تمر سريعا ويقترب موعد السفر للجراحة، وإضافة إلى زوجي وابنتيَّ فإن شقيقاتي كنَّ معي معظم الوقت؛ نتناقش في التطورات ونتباحث في الاختيارات المتاحة ويتابعن معي كل شيء لحظة بلحظة، من الجراحة، إلى الشقة، إلى الملابس التي لا بد من أخذها معي، والأسئلة التي يجب أن أُوجهها للطبيب.

ومضى الوقت بسرعة البرق حتى أتى صباح يوم الأول من نوفمبر المقرر للسفر إلى ألمانيا، فذهبت إلى المطار مع شريف وسلمى ومها، ولم نحاول التحدث عن الجراحة وقت الانتظار قبل الصعود للطائرة، وإنما عن سعادتي بوجود ابنتيَّ معي في

هذه الرحلة الفاصلة في حياتي، وجلسنا وراء بعضنا البعض في الطائرة، ولكن بعد قليل استأذنت الشاب الجالس بجواري أنا وشريف عبر ممر الطائرة أن يُبدل مقعده والمقعد الخالي بجواره مع البنتين ليصبحا بجانبنا طيلة الرحلة وأستطيع أن أشاهد وجهيهما الحبيبين، وأطمئن عليهما طيلة الرحلة، وقد ابتسمت البنتان وأصابهما الإحراج عندما طلبت ذلك من الشاب المصري المهذب؛ لأنهما تعتقدان أنني أبالغ في رعايتهما وحمايتهما حتى بعد أن تزوجتا وأصبح لهما أبناء، ولكني أُصمم دائمًا على وجودهما بقربي في أي مكان، وأسعد بذلك.

وصلنا بحمد الله إلى مطار مدينة فرانكفورت وفقا للموعد المقرر دون تأخير، حيث قررت مها المسئولة عن تفاصيل السفر أنه من الأفضل أن نأخذ القطار من داخل المطار إلى مدينة «إسن» التي نقصدها؛ لأن ذلك أقصر في الوقت من انتظار طائرة داخلية للوصول إليها، وأن ذلك سيكون أقل إجهادا لي بعد الرحلة الطويلة من القاهرة، وقد سهَّل كل

ذلك أن ابنتيّ هما من خريجات المدرسة الألمانية للراهبات في القاهرة، وبالتالي كان تفاهمهما مُيسرًا وسريعًا في المطار باللغة الألمانية، وتم حجز القطار بسهولة من نفس المبنى، وتوجهنا بحقائبنا إلى محطة القطار داخل مبني المطار، وكان جرّ حقيبتي بالنسبة لي مسألة شاقة، فتولاها شريف، وتم تقسيم الحقائب بين ثلاثتهم؛ حيث إنني كنت أجد صعوبة في التنفس من أبسط مجهود نتيجة للعلاج الكيميائي.

كان القطار مريحًا وسريعًا، وجلسنا في أربعة مقاعد متقابلة سمَحت لنا بتبادُل الحديث طوال الرحلة، مع إراحة ساقيّ على الكرسي المقابل لأخفف من الإجهاد الشديد بعد العلاج الكيميائي في القاهرة، وكانت هناك منضدة بين المقاعد الأربعة لوضع المشروبات التي يتم بيعها في القطار، وأخذت أستمع إلى الحديث المتفائل لشريف والبنتين حول الخطط ومواعيد العودة إلى القاهرة، أملًا في أن يحدث ذلك في موعد أقصاه أسبوعان

كما توقع الأطباء، وكانت البنتان تتحدثان في تبادل وجودهما معي بعد مرور ساعات العملية وانتهاء أيام العناية المركزة، ثم تبدآن في تبادل السفر للقاهرة لرعاية الأحفاد الأحباء الذين تركناهم في رعاية والديهم وجدتيهم بالقاهرة، وجلست أستمع إلى الحديث المتفائل الجاري من حولي وتدور في ذهني الأسئلة والهواجس الخاصة بالمرض وما سأسمعه من الجرَّاح الذي هو نفسه اختصاصي في الأورام، وليس شخصين مختلفين كما هو الأمر في مصر.

وصلنا «إسن» في الموعد المحدد ليلًا ووجدنا المحطة ممتلئة بالمسافرين، وبها، مثل كل محطات القطار الأوروبية، محلات متنوعة تبيع كل شيء؛ من الزهور الملونة، إلى الأطعمة السريعة، إضافة إلى توفر الأدوية بالأجزخانة، ووجود المطاعم الصغيرة، ومحلات الهدايا، وبعد قليل غادرناها إلى الخارج، حيث واجهنا بردًا قارسًا رغم ارتدائنا للمعاطف الثقيلة، وأخذنا تاكسي من تلك المنتظرة

خارجها إلى الشقة المؤجَّرة التي استقبلَتنا صاحبتها بترحيب وابتسامة عريضة، وشرحث للبنتين مكان كل شيء فيها، وطلبَت الاتصال بها إذا احتجنا لأي شيء، مُنبهة إيانا إلى موقع أقرب سوبر ماركت للشقة، مضيفة أن كل المحلات كانت مغلقة بسبب أحد الأعياد، ولذلك كان من حُسن حظنا أننا قد اشترينا بعض المأكولات الخفيفة من محطة قطار الوصول، فتناولنا الطعام ثم دخلنا جميعًا مُجهدين جدًّا لغرفتي النوم.

كانت الشقة جميلة ونظيفة، ومطبخها حديثًا، ولها شرفة تطل على حديقة صغيرة منظرها يبعث على الارتياح بأشجارها ذات الأوراق الخضراء، والبنية اللون في هذه المنطقة الهادئة، كما أن للشقة شرفة صغيرة، ولكننا لم نخرج إليها بسبب برودة الجو الشديدة، وكان الجزء الخارجي من الشقة عبارة عن غرفة جلوس بها جهاز تلفزيون ومائدة للطعام لأربعة أشخاص، وهي مفتوحة على المطبخ؛ ولذلك فهي في النهار يدخلها الضوء وتصبح مُشرقة

ومضيئة بشكل يبعث على التفاؤل، وأعجبتني الشقة، وأحسست أنني سأقضي نقاهة سعيدة بها بعد الجراحة بإذن الله.

ولأنني أُفضل النوم أمام التلفزيون والأصوات المتصاعدة منه؛ حيث يصرفني عن الاستغراق في هواجسي، فقد قررت الاستلقاء على الكنبة أمامه، وفتحَت إحدى البنتين التلفزيون فوجدنا أنه كُله قنوات ألمانية لا يفهمها سواهما، ولكنهما نجحا بطريقة ما في تشغيل اللاب توب لكي يعرض بعض البرامج المُذاعة من القاهرة، واستغرقنا جميعًا في نوم عميق؛ لأن موعدنا مع الطبيب كان في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. استيقظنا وجلسنا معا لتناول إفطار خفيف في الغرفة المُطلة على الحديقة، ثم ارتدينا ملابسنا وأخذنا معاطفنا للذهاب إلى المستشفى، واقترحنا نحن الكبار أن نذهب بتاكسي، ولكن مها قالت إن المشي سَيرًا على الأقدام لن يستغرق أكثر من ربع ساعة وفقًا لموقع «جوجل»، وهذه رياضة مطلوبة في هذا الجو البارد

المُنعش.. واستسلمنا لذلك بعد مناقشة قصيرة.

وبعد المشي السريع لأكثر من ١٠ دقائق اكتشفنا أن المسافة المتبقية تستلزم صعود هضبة مرتفعة تقع المستشفى أعلاها، وكدت خلال ذلك الصعود أن أفقد وشريف القدرة على التنفس، ولم أُظهر استيائي حتى لا يؤنّب شريف البنتين على نصيحتهما بالذهاب سيرًا على الأقدام، والأسوأ أننا لم نجد تاكسي في الطريق إلى أعلى الهضبة، فاضطررنا لاستكمال السير صعودًا في طريق يبدو بلا نهاية حتى وصلنا بعد معاناة شديدة إلى مبنى بالأعلى اكتشفنا عند الوصول أنه ليس مبنى المستشفى المقصود، وهنا صممنا على استدعاء تاكسي يصحبنا إلى المبنى الصحيح الذي كان على مسافة ليست بالقصيرة من المبنى الأول في هذا الجو البارد.

ووصلنا في النهاية، وقامت البنتان بالسؤال عن الطبيب الجرّاح د. «دي بوا»، فتمَّ توجيهنا إلى مكان

آخر في المستشفى المُتسع الجنبات، انتظرنا به لفترة طويلة فذهبت البنتان مرة أخرى للسؤال، فقيل لهما إنه ما زال في حجرة العمليات، وعرضوا علينا الجلوس في كافتيريا الدور لتناول المشروبات الساخنة، ولكننا فضّلنا الانتظار حتى نرى الطبيب أولًا لنعرف الإجراءات المطلوبة وتفاصيل العملية والسيناريوهات المطروحة وما إلى ذلك، وبعد قليل قالت سلمى إن هناك طبيبًا قد مرَّ بجانبنا يشبه صورة الجرَّاح الذي رأته على الموقع الإلكتروني للمستشفى، فذهبت لسؤال الممرضة فأكدت لها أنه هو بالفعل، وأخبرت الجرَّاح بأننا في انتظاره، فأتى إلينا في مكان جلوسنا واصطحبنا إلى طابق آخر؛ حيث يوجد مكتبه، لتبادل الحديث.

نزلنا معه، ورغم إرهاقي الشديد وعدم قدرتي على السير في ممرات المستشفى الطويلة فقد رفضت اقتراح البنتين بإحضار كرسي متحرك خجلًا من جلوسي عليه وظهوري بمظهر المتهالكة أمام الطبيب، ولكي لا يقول إنني في حالة متدهورة،

وكأن ذلك سيؤثر على رأيه الطبي! وفي أثناء ذهابنا إلى مكتبه ظل البروفيسور يُحدثنا بالإنجليزية عن «مصر»، بالرغم من أنه لم يزُرها من قبل، قائلًا إنها أصل الحضارة في منطقة المتوسط وما حولها، وتحدث كثيرًا عن الآثار المصرية ورغبته في زيارة مصر، وسأل عن أحوال الأمن بها، وقد ارتحنا إليه بسبب حديثه المتحمِّس عن مصر، إضافة إلى وجهه البشوش وشعره الأبيض وابتسامته المُريحة.

ولكن أثناء سَيرنا خلفه انتقدث مها؛ الساخرة دائمًا، وزن الطبيب الزائد ووجود كرش له، وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وتساءلت باللغة العربية كيف لا يحافظ على وزنه، ويُعرض نفسه للمخاطر الصحية؟! وكانت تحاول بكلامها تخفيف جو القلق المحيط بنا، وبعد سَير طويل وصلنا إلى مكتبه متوسط الحجم ذي الأثاث البسيط، فطلب منا الانتظار به قليلا حتى ينتهي من التحدث مع مساعديه في غرفة مجاورة.

أخذنا نترقب قدوم البروفيسور، ولم يطل انتظارنا فقد دخل إلينا بابتسامة مُرحبة، وجلس أمامنا ليستمع منا إلى القصة بأكملها وتفاصيلها باهتمام ويوجه أسئلة حولها وحول تفاصيل تطور المرض، ويستعرض أوراق التحاليل والأشعات، وسأل عما إذا كان يوجد تاريخ للإصابة في العائلة، وبعد ذلك طلب من الجميع الخروج لإجراء كشفه الدقيق عليّ، ثم استدعاهم مرة أخرى للحديث عن العملية الجراحية وما يجب أن نتوقعه منها، وبدأ الحديث بالتأكيد على صحة التشخيص الذي تم بالقاهرة، وأنه بالفعل يجب إجراء الجراحة فورًا حتى لا تعود الخلايا السرطانية إلى النشاط، وهو أمر خطير على صحتي، كما أفاد أنه يوجد ثلاثة سيناريوهات يمكن أن تشهدها الجراحة التي ستستغرق من عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة، والسيناريوهات المحتملة هي كما يلي:

- إما أن ينجح الجرّاح في إزالة جميع المناطق المصابة بالخلايا الخبيثة من الجسم؛ وبالتالي تكون

العملية قد نجحت.

 وإما أن ينجح الجرّاح في إزالة بعض الخلايا الخبيثة وليس جميعها نتيجة لوجود بعضها في أماكن لا يمكن لمسها؛ لخطورة ذلك، أو لتماس تلك الخلايا السرطانية مع أعضاء حيوية بالجسم لا يمكن المساس بها، وبالتالي يترك الجرّاح في داخل الجسم نوعًا من «الكلبس» أو «المشبك» الجراحي على المناطق التي لم يستطع إزالة الخلايا السرطانية بها؛ حتى يكون ذلك مرشدًا لأي جرّاح يحاول التدخل مستقبلًا من خلال عملية لاحقة.

 وإما أن يفتح الجرّاح البطن ليجد الوضع خطيرًا والمرض منتشرًا بشكل لا يمكن السيطرة عليه، وبالتالي فهو يغلق الجرح دون القيام بأي تدخل جراحي.

وأضاف قائلًا إنه سيخبر أهل المريض والمريض ذاته إذا كان ما تم هو السيناريو رقم (٣)، ونحن جميعا بطبيعة الحال نعرف أن هذا ما يقوم به

الأطباء في الخارج، فليس هناك مراعاة للعواطف ولا الحفاظ على مشاعر المريض من خلال تخفيف الوضع عليه، وإنما الصراحة والشفافية هي القاعدة الصارمة حتى ولو كان سيخبر المريض بأنه سيموت بعد أيام كما تحدث إلينا الطبيب البريطاني الأول.

وبصفة عامة فإن الأطباء المصريين لا يفضلون إخبار المريض بمدى خطورة حالته حفاظًا على معنوياته، وإذا اضطروا لذلك فهم يتحدثون إلى عائلته، أما الأطباء الأجانب، كما شاهدت في إنجلترا وألمانيا، من خلال تجربتي الشخصية، فهم يواجهون المريض مباشرة بحقيقة مرضه ودرجة خطورته والاحتمالات المتوقعة دون أي تخفيف أو تجميل للحقائق مهما كانت مرارتها، كما أن البروفيسور «دي بوا» قد قضى وقتًا طويلا يشرح كل التفاصيل دون أن يبدو عليه الرغبة في اختصار الحوار معه، وقام بالإجابة عن جميع التساؤلات التي طرحناها.

سألنا الطبيب عن الأغذية التي يجب تناولها بعد مرضي، فأجاب ببساطة؛ أغذية البحر المتوسط؛ فهي جميعا مفيدة للصحة: السمك وزيت الزيتون وغيرهما، فابتسمنا جميعا ولم نرغب أن نصدمه بأننا في مصر نأكل المسبك ونقلي الطعام ونشتري اللحوم المُصنعة؛ مثل اللانشون، وغيره الكثير، فابتسمنا وهززنا رءوسنا مُصدقين على حديثه، ثم سألناه عما أستطيع أن أفعل لمساعدة نفسي في الشفاء، فقال ليس هناك ما يفعله مريض السرطان عادة؛ فالمسألة ليست بيده، ولكن هناك عوامل مساعدة على الشفاء، لخَّصها فيما يلي:

 التواصل الاجتماعي؛ بمعنى وجود أشخاص مُحبين وداعمين يحيطون بالمريض، وضرب مثلا بعائلتي التي قَدِمت معي إلى المستشفى، فهذه المشاعر الدافئة الداعمة ترفع المعنويات وتساعد على مقاومة المرض.

 الرياضه الخفيفة؛ مثل المشي لمدة ٣٥ دقيقة

على الأقل يوميا.

 الطعام الصحي المتوازن.

وسألت الطبيب عن نِسب الشفاء وفقًا لخبرته، فقال إنه لا يمتلك كرة بلورية تخبره بالمستقبل، ولكن نِسب الشفاء التام للمرضى لا تتعدى ٢٠٪ فقط، أما نسبة الـ٨٠٪ من المرضى فيعود إليهم المرض ويقضي عليهم، (كما قال الطبيب البريطاني الذي أعطاني صدمتي الأولى)، وعندما سألته عن الوقت المتاح لي في الحياة لم يحدده، وقال إنه لا يستطيع ذكر عدد محدد من السنوات، ولكنه كان أكثر لطفًا ممن سبقوه، وقال إن لديه مريضات قد عِشن لمدة عشر سنوات بعد الإصابة بالمرض، وما زال يتابعهن. أخبرنا الجرّاح بعد ذلك أن موعد الجراحة هو بعد غد (الجمعة) الساعة ٨ صباحًا، وأن ذلك يستلزم دخولي المستشفى غدًا الخميس مساء لإعدادي للجراحة، والحقيقة أن الطبيب كان مهذبًا ولطيفًا دون أن يبالغ في تفاؤله ولا يخدعنا بكلمات

غير واقعية، وقد ارتحت لابتسامته وبنيت جسور التواصل معه نتيجة إعجابه بوطني مصر، واستبشرت خيرًا بإجراء العملية، وبرحمة الله.

أشار الطبيب هنا إلى أنه عندما ينتهي من الجراحة يوم الجمعة سيخرج إلى شريف والبنتين ليشرح ماذا حدث بالضبط في الجراحة وما قام به، وما هي الأجزاء التي تمت إزالتها، وجميع هذه التفاصيل التي سيشرحها لهم تفصيليًا بعد العملية، وأنهى الجلسة معنا بملاحظات اجتماعية لطيفة مقترحًا علينا أن نذهب للعشاء في أحد المطاعم التي يُفضلها في المدينة بعد الانتهاء من الإجراءات اللازمة للعملية مع فريقه الطبي المعاون، وصافحناه مودعين ومرتاحين رغم عدم وجود معلومات جديدة تدعو للتفاؤل؛ فنحن ما زلنا نلعب في إطار عدد السنوات الباقية، وليس الشفاء التام.

وبعد انتهاء هذه المقابلة طلب منا الأطباء المساعدون مقابلة أشخاص آخرين للاطلاع على

الأوراق التي تشرح العملية وتفاصيلها واحتمالاتها ومخاطرها؛ للتوقيع عليها بأنني قد قرأتها وأوافق عليها، وقد قامت البنتان بترجمة ما هو مكتوب باللغة الألمانية في تلك الأوراق، ولاحظت خلال جميع هذه الإجراءات أنه لا يمكن أن يرد أي أحد على سؤال ليس في مجال تخصصه أو يتبرع بمحاولة الشرح، وإنما تكون إجابته القاطعة «لا أعرف؛ فهذا ليس مجال تخصصي»؛ وبالتالي يعتذر عن الإجابة على السؤال.

كما جلست بعد ذلك مع طبيبة متخصصة في الجينات والمسائل الوراثية لشرح التحاليل التي يجب أن أقوم بها بعد ذلك للتأكد إذا ما كانت الجينات يمكن أن تنقل المرض مستقبلا لابنتيّ لا قدر الله، وقد سألت الطبيبة أيضًا عن التاريخ الطبي للعائلة في الأجيال السابقة لأن ذلك هام لرسم الخريطة الجينية واحتمالات الإصابة مستقبلا، وبين مواعيد كل هذه المقابلات كنا نجلس مع مرضى آخرين في حجرة انتظار لا يُسمع فيها

صوت، وإنما يسودها الهدوء التام، ثم تأتي الممرضات لاستدعاء كل فرد لمقابلته، حينما يُتاح الطبيب المتخصص فيها.

عندما أنهينا كل هذه الإجراءات كان المساء قد حل علينا، فغادرنا المستشفى بعد أن سألنا عن موعد دخولي في مساء الغد، وقررنا تناول العَشاء معًا في آخر ليلة قبل الذهاب للمستشفى ومواجهة المجهول، فلاحظنا مطعمًا صغيرًا بجانب الشقة ووجدناه لطيفًا والطعام مقبولًا، ولكن بعد قليل من الوقت أحسست بالإجهاد الشديد بعد هذا اليوم الطويل في المستشفى، فطلبت الذهاب للمنزل. غادرنا المطعم وتمشينا إلى الشقة؛ فالمسافة لم تكن طويلة ولكن الجو كان باردا، وعندما وصلنا جلسنا معًا في المنزل نناقش ما سمعناه في يومنا الطويل ونُقلبه على جميع الوجوه حتى شعرنا جميعا بالإجهاد واستغرقنا في النوم العميق.

عندما استيقظنا في الصباح أعدّت لنا مها إفطارًا

جميلًا مميزًا ونحن نشاهد الخضرة الجميلة عبر نافذة غرفة المعيشة، ثم قررنا الخروج للتجول في البلدة قبل الذهاب إلى المستشفى مساء، وبالفعل جلسنا في أحد المراكز التجارية الكبرى لتناول مشروب ساخن أنا وزوجي، بينما تجولت البنتان لمشاهدة ما تعرضه المحلات لفترة من الوقت، وجلست أنا وشريف نشاهد الناس من حولنا في حركتهم وحديثهم وابتسامات الأطفال ومناقشات الشباب، وأخذت أتخيل في ذهني قصصًا حولهم وأين يعيشون، وما هي يا ترى أحلامهم وطريقة حياتهم اليومية، وأشغل ذهني بذلك حتى أبعد أفكاري عن ذهابي إلى المستشفى ليلًا، وبعد بعض الوقت قررنا العودة إلى الشقة.

دخلنا إلى الشقة ثم بدأنا في إعداد حقيبة صغيرة وضعنا فيها متعلقاتي التي يمكن أن أحتاجها بالمستشفى من ملابس وغيرها، وكنت متفائلة فوضعت كتابًا للقراءة إلى جانب القرآن الكريم كالعادة، وأخذت تلفوني المحمول متوقعة

أنني سأتحدث بعد الجراحة مع شقيقاتي، ثم توجهنا إلى المستشفى، وكان الليل قد أسدل ستائره على المدينة الألمانية الصغيرة، وعندما وصلنا إلى المستشفى بدأت البنتان في اتخاذ إجراءات الدخول والتسجيل، قد طلبت من البنتين أن يخبرا إدارة المستشفى أنني أريد غرفة تطل على أشجار وخضرة حتى أستمتع بالمناظر الطبيعية الجميلة في فترة النقاهة عند خروجي من غرفة العمليات؛ تخيلًا مني أنني سأكون بعد الجراحة في حالة صحية تسمح لي بفترة هادئة من التأمل والراحة الذهنية وسماع الموسيقى والتمشية بحديقة المستشفى، ولم يكن يخطر ببالي حينها أنني سأظل بالمستشفى أسابيع طويلة دون أن تُتاح لي الفرصة لرؤية منظر واحد من تلك المناظر الطبيعية التي حلمت بها حتى خروجي منها.

ما أتذكره الآن هو أنني منذ وصولي إلى ألمانيا وأنا أتصرف بطريقة ميكانيكية دون استيعاب حقيقي لما يحدث لي، فشعوري كان يشابه شعور

الممثل الذي يسلمونه سيناريو يجب أن ينفذه، فكنت أستمع وأبتسم وأحضّر حقيبتي وكأن الموضوع يخص شخصًا غيري، ولذلك لم أعرف ما يجب أن أفكر فيه، ولم أواجه نفسي فيما يتعلق بالجراحة أو ماذا سيفعلون بي، فقد تجمد شعوري وتوقف ذهني وكأنني سأقيم في فندق وليس بمستشفى، وكل ما طرأ على ذهني أنهم سيعطونني مخدرًا، وبالتالي فلن أشعر بشيء، ولا يهمني ماذا سيفعلون في غرفة الجراحة، فأنا سأكون حينئذ في عالم آخر.

حصلنا على غرفة جميلة وواسعة وبها مكان يتسع لسرير المرافق، ومائدة صغيرة للطعام، بالإضافة إلى المائدة المتحركة الخاصة بالمريضة، وأيضًا غرفة حمام واسعة تلبي احتياجات الحالة الصحية للمريض، وكانت الغرفة تطل بالفعل على الحديقة الجميلة بأشجارها الباسقة المورقة بمختلف الألوان في ذلك الوقت من السنة، وهو بداية الشتاء، وساعدتني البنتان في ترتيب أشيائي

في الدولاب الخاص بذلك، وكانت هناك أيضًا ثلاجة صغيرة لوضع الطعام والشراب، وأخذنا في تبادل حديث عام عبّرا فيه عن ثقتهما في نتائج العملية، بينما ارتديت ملابس النوم التي أحضرتها من القاهرة بالألوان التي أحبها وأرتاح لها نفسيًّا، وجلست على الفراش المخصص لي.

قررت سلمى قضاء الليلة الأخيرة قبل العملية معي في المستشفى، وأتت الممرضات الجميلات الهادئات ليطلبن مني تناول سوائل معينة قبل النوم؛ تساعد على تنظيف المعدة وتهدئ الأعصاب، كما فهمت بعد ذلك، وجلسنا معًا للحديث عن الجراحة في الغد، وبعد قليل غادر شريف ومها للمبيت في الشقة على أن يحضرا في السادسة صباحا، ليَرياني قبل دخولي غرفة العمليات، وحاولت النوم أنا وسلمى ولكنني كنت قلقة فنمت نوما متقطعا؛ لتأتي الممرضات لإيقاظي في ساعة مبكرة جدًّا لتناول سوائل أخرى يبدو أنها تساعد الجسد على الاسترخاء، ثم دخلت الحمّام وأخذت

دشا منعشًا ووضعت البارفان الذي أحبه، وعندما أتذكر هذه التصرفات الطبيعية أدرك مدى ما لا ندركه من نِعم الله علينا مثل القُدرة على الحركة دون ألم، ونعتبرها ونحن أصحاء وكأنها من المُسلّمات، ثم لبست رداء غرفة العمليات المزين بورود زرقاء هادئة، وتأهبت لما قد تأتي به الساعات القادمة، وأنا أقرأ في سِرّي بعض الدعوات والسوز القصيرة، وأُسبح على مِسبحتي التي لم تفارقني.

جلست على حافة السرير باستسلام تام وسكون لا تقطعه سوى أفكاري، وحينها وجدت شريف ومها قد حضرا بالفعل وأخذنا صورة جماعية وأنا بملابس العمليات للذكرى، وقبل مرور ساعة حضرت الممرضات يطلبن مني التمدد على السرير للتحرك نحو غرفة العمليات، وودعت شريف والبنتين بالقُبلات بينما امتلأت عيناي بالدموع تأثرًا بوجودهم وقلقًا من المجهول، ثم سارتا بجواري تمسكان بيديَّ بينما تدفعني الممرضات في ممرات المستشفى الطويلة وقد قبضْت في يدي اليمنى

على مِسبحتي البيضاء التي أحبها وظلت معي منذ وصولي إلى ألمانيا بصفة دائمة، واعتدت أن أسبح بها، وأقرأ القرآن طوال مروري بممرات المستشفى سواء عند ذهابي للعملية أو غيرها من التدخلات الجراحية بعد ذلك.

وعادة أنني في مصر عندما أتعرض لإجراء جراحة أظل مستيقظة وأشاهد كل شيء خارج غرفة العمليات ومنطقة الإفاقة في جناح العمليات، وحتى داخل غرفة العمليات مُضاءة المصابيح، إلى أن يأتي طبيب التخدير ويخبرني أنه على وشك حقني بالمُخدر، بينما الذي حدث في ممرات المستشفى الألماني أنني لا أتذكر تلك اللحظات الأخيرة قبل دخول غرفة العمليات يوم الجمعة المشهود، وفي تصوري أن السوائل التي أخذتها كانت بها مهدئات أو منومات، فلا أتذكر شيئا منذ تلك اللحظة في مصعد المستشفى؛ وكأنني قد دخلت عالما آخر لا توجد به ذكريات ولا أصوات ولا أشخاص ولا أضواء ولا ألم ولا خوف ولا قلق؛

وكأنني كنت خارج الزمن في فضاء ليس له حدود وليس به مرض أو مشاكل، وهذه من مزايا التخدير بأنواعه؛ أنه يعفيك من الشعور بالألم ويحملك إلى عالم ساكن هادئ لا تدرك فيه ما يحدث ولا تتذكره بعد ذلك.

وكل ما علمته في الأيام التالية أنني قد دخلت غرفة العمليات قبل الثامنه صباحا وخرجت منها حوالي العاشرة مساء؛ أي قضيت بها بين ١٢ إلى ١٤ ساعة تقريبا لا أتذكرها ولا أعرف عنها شيئا، وكانت مها وسلمى قد شكلتا مجموعات من الصديقات على الفيسبوك والواتس أب لتكرار ختم القرآن يوم الجمعة عدة مرات بينما أنا في الجراحة، وبذلك عرفَ مَن لم يكن يعرف أنني أُجري جراحة خطيرة في الخارج، ولا شك أن دعاء العشرات ثم المئات من الأصدقاء والصديقات وختم القرآن أكثر من مرة أثناء الساعات الحاسمة التي قضيتها في غرفة العمليات قد ساندني ودعمني، واستجاب الله لهم وأخذ بيدي لأخرج على قيد الحياة من هذه

الجراحة الخطيرة.

في أثناء ذلك اليوم الطويل جدًّا على الجميع، تصاعدت الدعوات الصالحات إلى السماء من جميع أنحاء القاهرة لتعكس الود والحب ومشاعر الصداقة الخالصة تجاهي، وعرفت بعد ذلك أن شريف والبنتين قد قضوا الوقت خارج غرفة العمليات في قراءة القرآن، أما شقيقاتي العزيزات فقد كاد القلق يقتلهن لأن تلفونات البنتين وشريف كانت مغلقة بسبب عدم وجود إشارة تلفونية بالقرب من غرفة العمليات، وكلما مرت الساعات زاد قلقهم، وعندما حل المساء دون نجاحهن في التوصل لمعلومات حول ما حدث في الجراحة بدأت شقيقتي مها تفكر بالفعل في حجز تذكرة للسفر إلى ألمانيا في اليوم التالي؛ لأنها حاولت الوصول إلى أي أخبار عني من خلال تليفونات المستشفى ولكنها فشلت، فازداد قلقهن لعدم تخيلهن أنني ما زلت داخل غرفة العمليات.

وكما أخبروني بعد ذلك، فقد خرج الجرَّاح الكبير د. «دي بوا» بعد حوالي عشر ساعات من بداية الجراحة ليتحدث إلى عائلتي؛ مؤكدا نجاح السيناريو الأول للعملية، وأنه قد استأصل كل ما رآه من خلايا سرطانية، وأزال الرحم والمبايض وقنوات فالوب، إضافة إلى الغشاء البريتوني، إلى جانب جزء من الأمعاء الغليظة والأمعاء الدقيقة وحتى الزائدة الدودية، وقد طمأنهم بأن المناطق المشتبه بإصابتها كما أظهرتها الأشعات السابقة بجوار الكبد وعلى الرئة لم يكن بها شيء، وأنه عندما ينتهي مساعدوه من إغلاق الجرح الكبير للعملية والممتد من الصدر حتى مكان الرحم سيتم نقلي إلى الرعاية المركزة لمدة يومين أو ثلاثة حسب تحسن حالتي الصحية.

وكما حكى لي شريف والبنتان فإنه بعد صعودهم للغرفة ورجوع الاتصالات التلفونية انهالت المكالمات عليهم من كل الأصدقاء والأقارب، وأصبحوا عاجزين عن ملاحقة الرد على التلفونات

والاتصالات المتلاحقة لشرح حالتي الصحية والاطمئنان عليّ وتفصيلات ما حدث في الجراحة، وتوقعات الخروج من الرعاية المركزة، وكانت شقيقاتي العزيزات هن الأكثر اتصالا وقلقا ومتابعة بسبب إجرائي للعملية في بلد بعيد جدًّا عنهن؛ فلا يستطعن رؤيتي ولا التواصل معي في وقت قريب.

لا أدري متى استيقظت لأجد نفسي في غرفة لا أرى أبعادها ولا أدرك سوى وجود ضوء في السقف وستائر عن يميني من الواضح أنها تفصلني عن مريضة أخرى أسمع صوت تنفسها المرتفع نتيجة لوضعها على جهاز التنفس الصناعي، ونوافذ مرتفعة عن يساري يدخل منها الضوء، ولكني لا أرى منها شيئا، واكتشفت أن بعنقي شريحة تدخل فيها المحاليل والأدوية التي يجب أن آخذها بعد العملية كما شرح الأطباء في الرعاية المركزة، كما وجدت جهازين مركبين حول ساقيّ ليجبراني على تحريكهما أوتوماتيكيا لتنشيط الدورة الدموية ومنع تكون جلطات بعد العملية من طول الرقاد في

الفراش، خاصة وأن لديّ تاريخًا سابقًا من إصابتي بجلطة في مكان نادر الحدوث وهو الوريد المعوي العلوي، وبالتالي أصبحت من حينها أتعاطى يوميا دواء للسيولة لتفادي حدوث أي جلطات أخرى.

لا أتذكر متى رأيت شريف والبنتين بوجوه مبتسمة ومشرقة يشيرون لي بعلامات النصر عن بُعد قائلين إن الجرّاح قد أخبرهم أن العملية قد نجحت، وتم استئصال كل الأجزاء المصابة، وإن كل شيء على ما يرام، ولم أكن قادرة على الحديث فابتسمت ابتسامة واهنة لتغادر عائلتي العزيزة بعد وقت لا أدري زمنه، لكن كل ما خطر ببالي حينئذ أنه يبدو أنني قد قاربت على الخروج، ربما خلال عدة أيام نتيجة للابتسامات المتفائلة على وجوه أسرتي، وتشوقت للخروج السريع من الرعاية المركزة لأنعم بصحبتهم، وأعتقد وفقا لإدراكي المشوش حينها أنهم كانوا يزورونني يوميا في العناية المركزة، ولكني لم أكن أستطيع تقدير الوقت أو عدد الأيام، حيث كنت راقدة على ظهري بدون حركة، أنظر إلى

السقف الأبيض والأنوار الثابتة، وغير قادرة على النظر يمينا أو يسارا، ويبدو أنني كنت نائمة تحت تأثير المسكنات طيلة النهار والليل.

وتبادل أطباء الرعاية المركزة المرور لملاحظة حالتي ودرجة تنبهي، وكانت الممرضات يُحضرن لي كل صباح فرشاة للأسنان ومعجونًا لغسيل الفم ومضمضته، وهذا شيء منعش أثناء رقدتي المقيدة على الظهر، خاصة أنني لم أكن أتناول شيئا من الطعام، وكانت تغذيتي تتم عن طريق المحاليل. كان أحد الأطباء قد أخبرني أنه متزوج من سيدة سورية، وبالتالي كان يتبادل معي بعض الكلمات القليلة باللغة العربية التي تجعلني أبتسم من طريقة نطقه للحروف العربية، كما أخبرني أنه معجب من تمكّن البنتين من اللغة الألمانية عندما تحدث معهما أثناء الزيارات التي لم أكن واعية خلالها.

وأظن أنه بعد اليوم الأول أو الثاني، حيث إني كنت تحت تأثير المهدئات والمسكنات معظم الوقت،

قد أخبرني أحد الأطباء أنه وفقا للعلامات الحيوية فقد يحتاج الأمر إلى بقائي فترة أخرى في الرعاية المركزة، ولكني أبديت عدم تقبلي للبقاء أطول من ذلك في عنبر الرعاية المركزة، وأبديت رغبتي الشديدة في الصعود إلى غرفتي العادية، لأني أيضا كنت أسمع صوت التنفس الثقيل للمريضة بجانبي، وكان ذلك يصيبني بالقلق والاكتئاب، وذات صباح حدثت المعجزة وتم نقلي إلى غرفتي المحجوزة باسمي منذ اليوم الأول قبل دخولي غرفة العمليات بعد إزالة الأجهزة التي في الساقين، بينما ظل في ظهري جهاز مخدر الأبيديورال شديد التأثير لتفادي الشعور بالآلام المبرحة من الوسط إلى الأسفل، وكان هذا المخدر مضبوطا على درجة ٧، وهي درجة مرتفعة من التخدير، كما ظلت في عنقي الشريحة الخاصة بالمحاليل سواء الخاصة بالعقاقير أو تلك المغذية.

صعدت إلى غرفتي العادية وسط سعادة أسرتي الغامرة وابتساماتهم المشرقة فأحسست بالأمان وأنا

بينهم وتفاءلت خيرا، وتوقعت أن تسير الخطوات في الشفاء كما في أي عملية أخرى، وكان الجدول اليومي في الغرفة يبدأ في حوالي الساعة السابعة صباحا حيث أسمع الصوت المرتفع لعجلات العربة المعدنية الصغيرة تقترب من الغرفة وكأنها جرس إنذار يوقظ المرضى لبداية يومهم الطويل، وتلك العربة كانت تحمل أجهزة قياس الضغط والتنفس والحرارة، وتدفعها الممرضة الأولى أمامها لتدخل الغرفة وتقيس كل هذه العلامات الحيوية وتسجلها في ورقة أمامها، ثم تتبعها ممرضة أخرى معها عربة كبيرة الحجم لتعطيني الأدوية المقررة لي صباحا وظهرا ومساء في أوعية بلاستيكية بيضاء شفافة تضعها على مائدة متحركة ذات عجلات مجاورة للفراش، وفي معظم الأيام كان يتبع ذلك حضور ممرضة متخصصة أو طبيبة أخرى لأخذ عينات الدم المطلوبة.

وجميع الممرضات تؤدي كل منهن دورها بدقة وإتقان وحنو واهتمام، ويلي ذلك حضور ممرضة

أخرى شابة لتقوم بغسل وتنظيف الجسم وأنا راقدة في الفراش، مستخدمة الصابون السائل والماء الدافئ، وكانت تسند ظهري لتنظفه لعدم قدرتي على الحركة في الأيام الأولى، ويشمل ذلك غسل وجهي وإعطائي المعجون والفرشاة لغسل الأسنان. في الأيام الأولى كان مجرد غسيل الفم ومضمضة الأسنان يبدو لي مجهودا كبيرا؛ فقد كنت في حالة واضحة من الوهن والضعف لدرجة أن حركة ذراعيّ لغسل وجهي أو أسناني كانت تجهدني وتؤثر على تنفسي.

ثم يمر الجرّاح البروفيسور للكشف على الجرح الكبير الممتد والمغطى بِقطع شاش منفصلة عن بعضها البعض لإعطاء الفرصة لتعرضه للهواء مما يساعد على الالتئام بعد هذه الجراحة الكبيرة، وعندما يدخل البروفيسور عادة ما يكون معه ٣ من الأطباء المساعدين في تخصصات مختلفة يستمعون له بإنصات عميق دون مقاطعة، ويكتبون كل ما يقول بعناية شديدة، متضمنا تعليمات إجراء

التحاليل المختلفة اليومية للدم وغيره، إضافة إلى الأدوية التي أتناولها من خلال المحاليل، وأيضًا جرعات المضادات الحيوية المطلوبة للتغلب على احتمالات التلوث والاضطرابات الداخلية نتيجة لمثل هذه الجراحة المعقدة، وفي الأيام الأولى بعد الجراحة كان البروفيسور يراجع حالة الجرح بنفسه ويضع الشاش عليه، ثم أصبحت تقوم بهذه المهمة في الأيام التالية مساعِدته الرئيسية، وهي طبيبة ذات كفاءة وخبرة وتتحدث الإنجليزية بطلاقة هي الأخرى.

وهنا يجب أن أذكر أن الجميع كان يتميز بالانضباط الشديد في أداء الواجبات المنوطة بهم على مدار الساعة، كما تتميز الممرضات بالصوت المنخفض، وكان جميعهن لا يحملن موبايل أثناء ساعات العمل، ولا تُسمع رنة تلفون بالمستشفى إلا إذا كانت مع أهل المرضى، أما الأطباء والطبيبات والممرضون والممرضات وجميع العاملين فلا يحملون إلا جهازا يشبه أجهزة الاتصالات الداخلية

للتواصل فيما بينهم برنة بسيطة حول شئون العمل أو لاستدعائهم لمكان آخر أو حالة طارئة.

وهناك فارق ملحوظ بين مصر وألمانيا بشأن أطقم التمريض، فما شاهدته في ألمانيا هو القيمة الكبيرة للمهام المسندة للتمريض، وانضباطهم في أدائها كساعة «بيج بن» الشهيرة، ناهيك أن لا أحد هناك ينتظر «مكافأة» إضافية من المريض نظير قيامه بعمله، فهذه مسألة غير واردة على الإطلاق، بينما هي مسألة مُسلّم بها في بلادنا كاتفاق ضمني بين الطرفين؛ مما يفسد حدود العلاقة المهنية المفروض تواجدها بينهما.

أما الملاحظة الطريفة هنا فهي أن جميع الأطباء وأطقم التمريض كانوا، بداية من الرعاية المركزة وحتى الغرفة العادية، يعبرون عن انبهارهم وإعجابهم بمهارة سلمى ومها في الحديث باللغة الألمانية، لدرجة أنهم ظنوا أنهما مهاجرتان تعيشان في ألمانيا، وأحضرتا والدتهما للعلاج فيها، بينما

البعض الآخر ظنوا أننا لاجئون إلى ألمانيا مثل الأكراد أو الأتراك أو غيرهم؛ وبالتالي فابنتانا تعلمتا الألمانية من خلال الإقامة بألمانيا، واندهشوا عندما أخبرناهم أن سلمى ومها قد درستا اللغة الألمانية بالقاهرة.

بدا الأمر مستقرا في اليوم الأول حيث إنني كنت ما زلت تحت تأثير مسكنات الرعاية المركزة وأثر الإبيديورال القوي، والذي يستخدم أيضا في عمليات الولادة لأثره الإيجابي في تخفيف الألم، ويتم تركيبه من خلال إبرة رفيعة في أسفل الظهر لتخفيف الآلام المبرحة التي تسببها آثار الجراحة المؤلمة، ومضى اليوم الأول بالآلام التي سكّنتها العقاقير ولكن بدون قدرة على الحركة، فظللت ثابتة على وضع واحد مستلقية على ظهري، ومن اليوم الثاني بدأت أحس بزيادة الآلام دون حتى أن أحاول مجرد الحركة، فقد كان وضعي ثابتا طيلة الوقت على الظهر مع استحالة التقلب يمينا أو يسارا لأخذ أي علاج، وأصبحت مساعدتي على

القيام لأي غرض مسألة صعبة جدًّا، وأصبحت أتجنب مغادرة السرير إلا للضرورة القصوى تحاشيا للشعور بالألم.

وهذا بالطبع لم يمنع مسئولي العلاج الطبيعي من المرور يوميا والمحاولة معي للحركة حتى وأنا جالسة على حافة الفراش، ونصيحتي بضرورة المشي حتى داخل الغرفة لعدة خطوات كبداية، وكذلك كان شريف والبنتان يُلحون على نفس الموضوع، إضافة إلى الرسائل الداعمة من شقيقاتي العزيزات، وكانوا جميعا يخبرونني بالمكالمات التي تصلهم لتشجيعي على الاحتمال ومحاولة الحركة، وأنا كنت في تلك الأيام، وحتى نهاية فترة المستشفى، لا أستخدم التلفون ولا أرد عليه، وكان مغلقا معظم الأحيان إلا إذا احتاجته إحدى البنتين.

وبعد مرور أيام بدأت الآلام في التزايد بدلا من الانحسار، بالرغم من كل المسكنات والعقاقير، بحيث أصبحت أكثر من طاقتي على الاحتمال، وزاد

الوضع سوءا في الأيام اللاحقة، وشكوت للأطباء ولعائلتي دون تحسن، واستمرت شكوتي للأطباء دون أن يجدوا لها مبررا في التحاليل والفحص، وقد زادوا من درجات التخدير من خلال الجهاز المسكن دون جدوى، فقد وصلت الآلام للدرجة القصوى رغم الأدوية المُسكنة الإضافية، ولكن بدا الأمر وكأنه لا يوجد شيء يمكنه أن ينجح في تهدئة الألم.

وفي نهاية الأسبوع الأول بعد الجراحة تقريبا، ومع زيادة الألم، بدأ الأطباء إجراء أشعات لاكتشاف ماهية الأمر، ولكن عند نزولي إلى غرفة الأشعة في طابق آخر وطلب الأطباء مني الانتقال إلى جهاز الأشعة، تبين عدم قدرتي على الحركة بنفسي بسبب عدم احتمال الألم فاضطروا لحملي للقيام بذلك، وبعد هذا العذاب لم تُظهر الأشعة أي أسباب في تجويف البطن، غير آلام الجراحة نفسها، يمكن أن تؤدي إلى هذه الآلام الشديدة.

وكان قد تصاعد قلق الجميع خلال تلك الأيام الصعبة من أن تكون قد حدثت مشاكل نتيجة إزالة أجزاء من الأمعاء الدقيقة والغليظة بسبب إصابتها بالمرض ثم أُعيد خياطتها ووضلها خلال العملية، فخشي بعض الأطباء أن تكون خياطة بعض تلك الوصلات قد حدث بها سوء، ولكن الحمد لله تبين عدم حدوث ذلك، وأن الأمور تسير وفقًا لما هو مُتوقّع.

وفي الصباح التالي للأشعة، وفي محاولة من الفريق الطبي لتغطية كل الاحتمالات المتوقعة، ونتيجة لاستمرار شكوتي من الألم الذي لا يحتمل، والذي يحرمني من الراحة ليلا ونهارا ولو للحظة واحدة، وشعوري المتزايد بأن الأطباء لا يصدقون شكواي من الألم لأنهم لا يجدون سببا له في الأشعات والتحاليل، وربما أيضا شريف والبنتان يظنون أنني أبالغ بسبب حالتي. نتيجة لذلك كله تم استدعاء أحد أطباء التخدير من قسم الجراحة لاستطلاع أمر جهاز مخدر الأبيديورال، فطلب هذا

الطبيب من الممرضات مساعدتي للاستلقاء على جانبي ليتمكن من فحص الإبرة في الظهر، وبعد كثير من العذاب تم «وضعي» على جانبي الأيمن بينما أيدي الممرضات تسندني بقوة.

وعندما تم ذلك كانت المفاجأة؛ وهي أن طبيب التخدير قد اكتشف أن الإبرة في الظهر قد تحركت من مكانها، وبالتالي، وبالرغم من زيادة جرعة المخدر فإنه لم يكن يصل منه أي شيء إلى جهازي العصبي، وهو أمر نادر الحدوث، ولذلك فأنا كنت بالفعل أعاني من كل آلام العملية الجراحية دون مسكنات، وأتعذب دون معرفة السبب، وعندها قرر الأطباء نزولي مرة أخرى إلى إحدى الغرف الخاصة بهذه الإجراءات لتركيب تلك الحقنة مرة ثانية في الظهر، وبالفعل أنزلوني للطابق الأسفل بعد معاناة شديدة، ويبدو أنه تم إعطائي سائلا مسكنا أو غيره لأتمكن من الجلوس على سرير الكشف بينما يسندني الممرضون، وكانت أسعد لحظة في تلك الفترة عندما فتحت عينيّ في غرفتي لأجد أنني

شبه مخدرة بعد تركيب الحقنة في الوضع الصحيح مرة أخرى، وبالتالي حمدت الله وشكرته كثيرا بعد أن تمكن الأطباء من حل هذه المشكلة المؤلمة، وقبضت على مِسبحتي البيضاء شاكرة نِعم الله الكثيرة، ومتسائلة بيني وبين نفسي كالعادة ماذا كان يفعل المرضى قبل اختراع البنج وعقاقير التخدير والمسكنات؟!

استيقظت مبكرا جدًّا في اليوم التالي، متمنية أن تكون الأمور ستسير في طريقها الطبيعي، ولكن تبين أن تحاليل الدم التي كان يتم أخذها يوميا لمراجعة عشرات الأمور قد بدأت تظهر فيها مؤشرات تثير القلق حول وجود تلوث أدى إلى ارتفاع حرارتي عن الطبيعي، وبالتالي قرر الأطباء زيادة جرعة المضاد الحيوي؛ مما أدى إلى تفاقم حالة فقدان الشهية التي كنت أعاني منها، بالتالي كنت في حالة نفسية سيئة، رافضة للطعام والشراب بما فيه الماء، لفقداني الرغبة في ذلك تماما، وكان شريف والبنتان يضغطون حتى أتناول من لترين

إلى ثلاثة لترات من الماء يوميا لتجنب الجفاف وغسل الجسم من الأدوية، وحاجته إلى السوائل بكميات كبيرة، ولكني لم أستطع رغما عني، فكان شرب المياه بالنسبة لي عذابًا حقيقيًّا لا أستطيع إجبار نفسي عليه، رغم علمي بأهميته، وبالتالي لم أتجاوز كوبين من الماء يوميا، وبدأ الأطباء ينذرون بتركيب محاليل إضافية لتعويض ذلك.

كذلك كان الأمر بالنسبة للطعام، فمضت الأيام الأولى بدون طعام تقريبا، إلا إذا اعتبرنا أن بيضة مسلوقة ومثلث جبنة يعتبران طعامًا يكفي طوال اليوم، فكانت البنتان تختاران الأطعمة التي يعرفان أنني أحبها من بين قائمة مطعم المستشفى، وتطلبان إعدادها للغداء والعشاء، ولكن هذه الخطة لم تنجح أبدا حتى غادرت المستشفى بعد أسابيع طويلة، عكس كل الخطط المتوقعة سابقا، أما شريف فكان يحضر من السوبر ماركت كل أنواع الجبن والأيس كريم التي يعرف أنني أحبها حتى تُفتح شهيتي، دون جدوى أيضًا، بل إنهم في

المستشفى قد أعطوني فواتح للشهية لم يكن لها أي تأثير، وبدا وكأن معدتي قد تم غلقها بالضبة والمفتاح.

وقد سمعت خلال الشهور الماضية العديد من التفسيرات حول ما عانيته من اضطرابات جسدية ونفسية بعد انتهاء الجراحة، ويبدو أن السبب في ذلك عدة أمور؛ منها الأثر السلبي الداخلي بعد إزالة أعضاء رئيسية في الجسم مثل الرحم، مما يؤثر بشدة على التركيب الهرموني، ويؤدي إلى الاكتئاب، إضافة إلى طول مدة تناول المضادات الحيوية القوية، وأيضًا ارتفاع الحرارة المستمر، وزاد من تعقيد ذلك حالات القيء المتكررة التي أصابتني بصفة تكاد تكون دائمة، حتى ولو لم أتناول طعامًا أو شرابًا؛ نتيجة للعقاقير المكثفة التي أتناولها وأثرها على الأمعاء وانتظام عملها.

ولا أدري ماذا كنت سأفعل بدون وجود سلمى ومها وشريف بجانبي، فقد احتملوا واستوعبوا كل

ما أحسست به من آلام ومشاعر سلبية محبطة، وحاولوا إسعادي ومساندتي في كل لحظة، ولكني كنت في عالم آخر لا أدرك من ماذا أعاني وإلى متى ستستمر هذه المعاناة؟ وهل هذا بسبب السرطان أم أنني قد دخلت في مشاكل مرَضية إضافية؟ وبالتالي سيطر على مشاعري إحساس بأنني قد دخلت نفقًا مجهولًا لا أعرف أين نهايته، وكل ما أُدركه هو أنني مجبرة على الاستمرار في هذا الطريق المؤلم وليس لديّ خيارات أخرى متاحة، وأنه مهما كان ما أعانيه فلا حل أمامي سوى احتماله بنفسي، ولا يمكن لأي شخص آخر مهما أحبني أن يحل محلي أو يحمل عني آلامي، وأنه قدَري أن أحتمل هذا الألم وحدي دون أن أدري إذا ما كان هناك ضوء في نهاية النفق، أم أنه طريق مسدود.

لم يكن تسليمي بحتمية المُضي قُدمًا في هذا الطريق المؤلم هو بسبب شجاعتي أو رغبتي في الاحتمال، أو لأنني كنت في مرحلة الاستعداد

للتصدي للسرطان ومكافحته.. إطلاقًا، ففي تلك اللحظات كانت هذه الفكرة من الكفاح والتصدي وهزيمة المرض بعيدة جدًّا عن ذهني، وعندما أسمعها ممن يحيطون بي تبدو بلا معنى؛ لأن كل ما كنت أشعر به هو أنني ملقاة على ظهري في الفراش أنظر إلى السقف أو إلى نفس القناة الإخبارية الـ«CNN» على شاشة التلفزيون؛ لأنها الوحيدة باللغة الإنجليزية، وبالتالي تتكرر عليها نفس الأخبار والبرامج حتى حفظتها من كثرة إعادتها، وأصبحت ثقيلة جدًّا على نفسي ولا أحتمل موسيقاها ولا مذيعيها ولا أخبارها، ولكن حقيقة الأمر كانت تتلخص في أنني كنت فاقدة السيطرة على حياتي وما يحدث بها، وأرقد بلا حول ولا قوة، تُقلبني الممرضات ويفحصني الأطباء، وتمر بي الأيام والساعات والدقائق والثواني دون أن يحدث تغيير أو يطرأ جديد.

كانت أكثر ملامح التغيير التي لاحظها الجميع في تلك الفترة، هي أنني قد فقدت ابتسامتي

العريضة التي كانت أكثر ما يميز شخصيتي منذ الصغر، فأصبحت لا أبتسم ولا أضحك حتى عندما أشاهد أحفادي الأحباء على شاشة الكمبيوتر، وكأن دخولي غرفة العمليات قد غير من تركيب شخصيتي، أو كأن الجرّاح قد أزال مني، مع ما أزاله من الكثير من أعضاء جسدي، جينات الابتسام والفرح، حيث أصبحت رغما عني مخلوقة خائفة تميل للاكتئاب ويضيق صدرها بكل ما حولها، وتتوجس خيفة كلما شاهدت وجه مساعِدة الجرّاح التي تعودنا أنها تحمل لنا أخبارا تضايقني حول ضرورة القيام بتدخلات جراحية إضافية أكثر من مرة، باختصار كنت أحس ومَن حولي وكأن أنيسة التي دخلت غرفة الجراحة قد انتزع شيء من جسدها وروحها فخرجت في صورة أنيسة أخرى أشعر معها بالغربة وألومها على كل ما حدث لي.

كان الأغرب بالنسبة لي هو أنني كنت من هواة أفلام الحركة والأكشن والمغامرات وتحليل الجرائم، وأسعد بمتابعتها، ولذلك عندما طالت رقدتي أعد لي

سامح زوج مها مجموعة كبيرة من تلك الأفلام وأرسلها لي لتسليتي من خلال وضعها على شاشة التلفزيون لكي يمر الوقت الثقيل بصورة أسرع، من خلال انشغالي بها، ولكنني فجأة وجدت نفسي لا أحتمل مناظرها المعتادة مثل انقلاب سيارة أو تبادل اللكمات بين الأبطال؛ لأن ما يدور في ذهني عند رؤيتها أصبح هو مدى الألم الجسدي الذي يحس به البطل الذي انقلبت به السيارة، أو مَن أصابته اللكمة في وجهه أو رأسه، وكأنني أنا الذي أصبت، وبالتالي أصبحت لا أحتمل المنظر أو تخيلي للألم، وهذا شيء لم يحدث لي قط من قبل، وبالتالي ألغينا فكرة تلك الأفلام.

كنتيجة لذلك انحصرت تسليتي في تلك الفترة الجافة من حياتي في الأفلام العربية القديمة، أو ما نطلق عليه «أفلام الأبيض والأسود»، على شرط أن تكون نهاياتها سعيدة، فإنني لم أكن أحتمل الحزن، وينكسر قلبي مع الأحداث الحزينة بصفة عامة، وزاد ذلك عندي في فترة المرض إلى الدرجة

القصوى، كما كنت أشاهد الحلقات الأجنبية الكوميدية، إضافة إلى الأعمال المسرحية الخاصة بفترة السبعينيات والثمانينيات لفؤاد المهندس وعبد المنعم مدبولي ومحمد صبحي وغيرهم، وكانت الممرضات الألمانيات يندهشن ويبتسمن عندما يدخلن الغرفة فيشاهدن إحدى مسرحيات فؤاد المهندس تُعرض مرارا وتكرارا وترتفع الضحكات من المشاهدين، وهي جميعا بلغة لا يفهمنها، وكن دائمًا يسألن عن الموضوع، وماذا يجعل الناس تضحك بهذا الانفعال الحماسي!

أما شريف والبنتان، فبعد مرور الأطباء والممرضات في الفترة الصباحية والقيام بالإجراءات الطبية، كانوا يقضون الوقت بين القراءة في الغرفة، أو الرد على المكالمات التلفونية، أو تناول مشروبات خفيفة بالكافتيريا، أو القيام بإنجاز مهام عملهم في القاهرة عبر الإنترنت، إضافة إلى الاطمئنان على الأحفاد مع الأزواج أو الجدات، كما يحاولون واحدا بعد الآخر إقناعي بالقيام

بالتمشية في ممرات المستشفى أو تحريك قدميّ على العجلة الصغيرة؛ التي تركها اختصاصي العلاج الطبيعي بالغرفة، وأنا جالسة على المقعد؛ وذلك لتقوية العضلات والدورة الدموية، وكنت أحاول ذلك أحيانا، ولكن في أغلب الأحوال كنت أحس وكأنني عروسة ضخمة من القماش غير قادرة على التماسك أو الوقوف، وبالتالي لا تستطيع الحركة ولا توجد بها روح، وينهار جسدها كلما وقفت على قدميها،وقد بذلت جهدي للاستجابة لهم واستعادة قوتي ولكنني لم أستطع بلوغ ما أريد، فلم أواصل الجهد والضغط على نفسي.

أما ليلًا، وبعد أن يغادر شريف وتنام ابنتي المقيمة معي فكان يمر في ذهني شريط سينمائي حول أحداث حياتي السعيدة والحزينة على حد سواء، وأتعجب وأنا راقدة أتأمل وحدي ما يحدث، هل سأخرج من هذا المستشفى على قدميَّ أم لا؟ هل سأسترجع حياتي التي كنت أعرفها قبل أن يخطفها القدر مني على حين غرة، أم أنها قد

اختفت إلى الأبد؟ هل سأظل هذه الإنسانة المثقلة بالهموم والآلام والتي لم أعرفها من قبل، وكأنها أنيسة جديدة حزينة متألمة متشائمة لا تعرف الابتسامة، وهي السبب في كل ما حدث لي؟ أم ستعود لي أنيسة القديمة المتفائلة؟ وفي هذه الجلسة الليلية الطويلة جدًّا أحاول تجنب الأحداث الحزينة في ذكرياتي، ولكنها تستمر في الإلحاح على ذاكرتي والتقافز أمامي، وكأنها مصممة على التواجد مهما حاولت تجنبها، فلو حاولت تذكر فرح مها تقافزت أمامي عفاريت صغيرة تقول لي ولكن والدتكِ الحبيبة قد توفيت قبل ذلك، هل تتذكرين ليلتها الأخيرة في المستشفى؟ وإذا فكرت في فرح سلمى أتت تلك العفاريت المزعجة مرة أخرى لتهمس في أذني هل نسيتِ أن والديكِ لم يحضرا هذه المناسبة العزيزة على قلبك؟ وهكذا دواليك، وكأن جزءًا من نفسي يفسد عليَّ محاولات استرجاع الذكريات السعيدة لأقضي الليلة محاصَرة بما يحزنني فحسب.

وظهر فشلي جليًا في أن أحمل نفسي على الانصراف عن التفكير في الأمور المحزنة، فقد كان الألم أحيانا أكثر مما أحتمل، وكنت، والحق يقال، أقاومه مقاومة بالغة العنف، فقد كان حتمًا عليّ أن أنساه وإلا ما طاوعني قلبي على المُضي في المقاومة، على أني لم أكن فيما يظهر مستطيعة السيطرة على عقلي، فقد ظل يعمل بدون انقطاع، وعندما أحاول أن أركز تفكيري في الأحداث السعيدة أو الأفلام الكوميدية أو في كتاب أحبه، كان كل ذلك يمر في ذهني مرور البرق وأعود كما كنت للأحداث الحزينة، فهل هذه أنا؟ بالقطع لا، هذه أنيسة جديدة أحضرها هذا المرض الشرير معه لتفسد حياتي وتحطمني داخليا، وجسديا ونفسيا، بحيث أكره نفسي ولا أطيقها من خلال هذه «الأنيسة» المستحضَرة من مكان مجهول!

في تلك الفترة كان قد تم نزع الشريحة التي سبق تركيبها أثناء الجراحة في عنقي، وبدأت مأساة محاولات تركيب إبرة الكانيولا في الذراع لتناول

المحاليل والعقاقير، ولكن مثلما كان يحدث دائمًا بالقاهرة كانت تلك المحاولات تفشل، فبعد مرور أقل من ٤٨ ساعة تتسرب المحاليل من مكان دخول الحقنة في ذراعي لتبلل أغطية الفراش، وتبدأ محاولات أخرى تؤدي إلى الألم الشديد وزرقة موضع إدخال إبرة الحقن، وبطبيعة الحال فإن أطقم التمريض أو الأطباء في المستشفى الألماني كل له اختصاصه المحدد، ولا يقوم أحد بعمل الآخر تحت أي ظرف، فمَن تُحممني في الفراش أو تغير الفراش، غير مَن تحضر الأدوية صباحا وتقيس الضغط والنبض والحرارة، والطبيبة التي تغير على الجرح غير التي تأخذ عينة الدم، غير التي تُركب الكانيولا، غير التي تحل محل البروفيسور لمراجعة الحالة، ولذلك عندما فشلت جميع محاولات صمود الكانيولا في ذراعي، أحضروا مختصًّا من قسم التخدير للقيام بذلك، وكنا قد أخبرناهم أن هناك بورتوكاس مركب بالفعل في أعلى صدري منذ كنت أتناول العلاج الكيميائي في القاهرة، ولكن الطبيب

المتواجد في حينه فضّل تركيب الكانيولا.

كنت عندما أستيقظ كل صباح في غرفة ألوانها بيضاء أو حيادية وليس بها ألوان مشرقة تجتذب الأنظار وترفع المعنويات، وبعد دخول فريق التمريض مبكرا، أستسلم للدورة المكررة من قياس الضغط والحرارة وعينات الدم، ومحاولة البنتين وشريف الترفيه عني أو إقناعي بالشرب أو الأكل، ومحاولاتي المجهدة للقيام إلى غرفة الحمّام بصحبة المحاليل المعلقة، إذا اضطررت، أو بعد إجراءات نزعها إذا تيسر ذلك؛ لأنني أخجل من أن تدخل الممرضات معي إلى الحمّام حتى لو كنت في أسوأ حال، ثم يمر الأطباء في دورتهم المعتادة لمراجعة الجرح والتئامه والنقاش حول أي تغييرات في العقاقير، وخصوصًا المرتبطة بخفض درجات الحرارة التي ظهرت بعد عدة أيام، والتي دلت تحاليل الدم على أن سببها هو وجود تلوث (infection) داخلي، وهذه مشكلة أخرى يجب معالجتها، ثم يأتي وقت الظهر متثاقلا حيث تأتي

صينية الغذاء التي لا ألمسها كالمعتاد، ثم قد يمر المختصون في العلاج الطبيعي والذين بدءوا منذ اليوم الثاني محاولة المشي معي خارج الغرفة.

ولا شك أن فترة الليل كانت من أصعب فترات اليوم في المستشفى بألمانيا، فكنت أترك مَن يقضي الليل معي على الفراش الإضافي من البنتين لتقرأ، أو لتشاهد أفلامًا على الآيباد حتى تنام، فهما عادة مجهدتان طوال اليوم من رعايتي والحديث مع الأطباء أو الرد على المكالمات أو الترجمة الألمانية للممرضات حسب مقتضى الحال، ولذلك كانتا تستغرقان في النوم سريعا، وأحاول أنا استدعاء النوم فلا يأتي، فأطلب منوما ومسكنا إضافيا، ورغم ذلك كنت أنام فترات قصيرة وأستيقظ مرة وثانية وثالثة، ولذلك كنت أترك التلفاز مضيئا وتضبطه إحدى البنتين على المحطة الإخبارية الإنجليزية الوحيدة ليعمل طيلة الليل، أو تضع على الآيباد بعض الحلقات الفكاهية أو الأفلام أو برامج القاهرة الحوارية المسائية حتى لا أشعر بالوحدة.

في إحدى الليالي عندما دخلت إحدى الممرضات وشاهدت التلفاز مفتوحا اندهشت جدًّا، بالرغم من انخفاض الصوت إلى الحد الأدنى وإغلاق باب الغرفة الكبيرة ذات الجدران السميكة، وقد أحسست بالحرج الشديد وأغلقت الصوت تماما، ولكن دون إغلاق الصورة؛ لأني لا أستطيع النوم في غرفة ساكنة ومظلمة، إلا من ضوء ضئيل، وفي تلك الأوقات كنت أحاول استعادة الذكريات السعيدة مثل خطوبة وزواج البنتين، وولادة الأحفاد، والأحداث السعيدة مع زوجي والإجازات التي نقضيها كعائلة معا، فأنا لا أستمتع بالإجازة إلا في وجود البنتين والأحفاد، وضحكاتهم ومناقشاتهم التي تنعشنا وتسعدنا، وأتذكر والدي ووالدتي رحمهما الله وأدخلهما فسيح جناته ولحظاتنا معا ومناسباتنا السعيدة، وبذلك تنقضي ساعات الليل وأنا أستدعي تلك الذكريات، وأحاول تجنب الذكريات المحزنة كما ذكرت سابقا، وأدعو الله أن تستمر البنتان في علاقتهما الوثيقة، وأن يصبح

جميع الأحفاد أصدقاء، وأحلم باللحظة التي أعود فيها لمنزلي في القاهرة وأرتمي في أحضان شقيقاتي وألاعب أحفادي وأرى الابتسامات الجميلة على وجوههم الصغيرة.

بدأ في تلك الأيام تورم الجسم بشكل واضح في اليدين والأصابع، إضافة إلى القدمين، وشرح الأطباء أن ذلك بسبب احتباس المياه (water retention) في الجسم بعد العملية، والسوائل التي تم ضخها خلال الجراحة. وقد تضخمت القدمين بصفة خاصة بحيث أصبح القيام والوقوف عليهما مؤلمًا، وقد أعطاني الأطباء عقاقير للتخلص من المياه المحتبسة في جسمي بقدر محسوب بسبب تأثير ذلك على مشكلات أخرى أعاني منها، وبالنسبة لي كانت تلك مشكلة جديدة، وكنت أقضي الوقت أتأمل شكل قدميّ، وكنت قد رفعتهما على مخدات على أمل أن يؤدي ذلك إلى تحسن وضعهما، وكنت أنام كل يوم وأنا أتمنى أن أستيقظ صباحا لأكتشف أن وضعهما قد تحسن، ولكن الأمور لا تحدث بهذه

السرعة، وأخذت بعد ذلك أدور في دائرة من المشاكل المتلاحقة، حيث أخبرتنا الطبيبة أن هناك مياهًا بجانب الرئة، ولكن ذلك متوقع بعد العمليات الكبرى، ويمكن أن تختفي وحدها إذا أكثرْت من الحركة، وكنت في تلك الأيام أحتاج إلى استخدام قناع الأكسجين، لأن درجة قياس التنفس لم تكن مُرضية، ولقد طلبوا مني إجراء تمرينات للتنفس من خلال النفخ لتحريك كُرات بلاستيك ملونة صغيرة في علبة بلاستيك شفافة، ولكن ظهر لي أن القيام بذلك أصعب مما أتصور، وبدأت أشعر باليأس حيث إن هناك مشكلات كثيرة لا أستطيع مواجهتها.

بعد اكتشاف التلوث بدأت مرحلة مختلفة مثَّلت عقبة كبيرة في طريق الشفاء استلزمت في البداية نقلي إلى طابق آخر للقيام بالأشعات والموجات الصوتية لتحديد موضع التلوث بالضبط، وكالعادة اصطحبوني زاقدة في الفراش، وحملت أنا مِسبحتي وبجانبي عائلتي الحبيبة، وبعد الفحوص اكتشفوا أن هناك كيسًا به سوائل قد تكوَّن بعد

الجراحة تحت الطحال؛ وعليه يجب سحب هذه السوائل خارج الجسم، وفي اليوم التالي أخبروني بضرورة عدم الإفطار، لأنني سأنزل بعد قليل لتركيب درنقة (drainage) في الكيس الملوث لإخراج تلك السوائل من داخله، وقد أتت الطبيبة المساعِدة الأولى للبروفيسور لشرح الموضوع لنا، موضحة أنَّ تَكوّن مثل هذه الأكياس وارد بعد الجراحات الكبرى، وقد استمعت لكلامها في استسلام لما يحدث لي، ثم علّقت قائلة تستطيعون القيام بما تريدون ما دمت تحت تأثير المخدر، فصُدمت حين أجابتني بأنهم لا يستطيعون إعطائي مخدرا خلال ذلك الإجراء الجراحي؛ لأنهم يحتاجونني مستيقظة للرد على أسئلة الأطباء أثناء تركيب الدرنقة.

ظللت أنظر للطبيبة دون تصديق، وقلت لها لن أستطيع تحمل الألم أبدا، ونظرت لشريف والدموع في عيني، وقلت له: «أرجوك يجب أن نجد حلا»، ولكن الطبيبة أكدت بحسم عدم إمكانية استخدام المخدر، فطيّب شريف خاطري قائلا ليس لدينا

اختيار، ويجب التخلص من التلوث الذي يسبب الحرارة المرتفعة وترتفع مؤشراته يوميا. استسلمت والدموع على وجهي، وصاحبني شريف وسلمى، لأن مها كانت قد سافرت لرعاية الأحفاد بعد مرور حوالي أسبوعين على وجودنا في ألمانيا.

وللحقيقة فإن هذه كانت تجربة صعبة جدًّا، وكان شريف وسلمى يسمعان أنيني المكتوم من خارج الغرفة، لأن المتخصصين قد قاموا بوضع شيء يشبه فوط العمليات الباردة جدًّا على منطقة البطن وبدءوا في إدخال بعض المعدات التي لم أرها وأنا مستلقية على ظهري وأخذوا يحركونها بداخلي للوصول إلى الموضع الملائم لتركيب الدرنقة وخروج السائل. وكان هذا التحريك داخل جسدي بدون مخدر، ولذلك كان مؤلما للغاية، وكنت أرى الأطباء ينظرون في الشاشة الـ«monitor» المُعلقة فوق السرير ويُعدلون مكان المعدات الطبية الرفيعة داخل البطن، وأخذت في قراءة السور القصيرة سرًّا، والدعاء بأن ينتهي هذا الإجراء بأسرع وقت

ممكن، وأن يرحمني الله من هذا العذاب، وما لاحظته أن الطبيب قد طلب في البداية أن أخبره عند شعوري بالألم، ولكني كتمت آلامي خجلًا من إزعاج الأطباء بشكواي، وعندما استمر الألم الحاد، أفصحت عن شعوري به حين كرر السؤال بعدها بفترة، فابتسم متعاطفا ووعد بأنه سينتهي قريبا، وعندما انتهى حمدت الله حمدا كثيرًا على صعودي لغرفتي مرة أخرى وطلبت عقاقير مسكنة ومُنوّمة.

بدأت أنا وعائلتي والأطباء جميعًا في ترقب عمل الدرنقة الجديدة وتطورات التخلص من هذا التلوث بأمل كبير؛ لأننا كنا قد أصبحنا في الأسبوع الثالث من وجودنا في المستشفى دون ظهور أي بوادر على موعد قريب للمغادرة، ومر اليوم الأول دون نزول السائل إلا بكميات ضئيلة، وكذلك الأيام التالية، وبعد مرور أيام قليلة أتت المساعِدة الرئيسية للجرّاح لتخبرني بالهدوء المعتاد أننا سنحتاج لإعادة تركيب الدرنقة مرة ثانية! وعندما أصابنا الذهول الشديد، وسألنا لماذا، قيل لنا لأنه قد تم

تركيبها في مكان خطأ (was mislocated)؛ ولذلك لم ينزل السائل الملوث كما هو مفترض، وكالعادة، وخاصة بعد تجربتي الأولى في تركيبها والألم الذي عانيته، رفضت رفضًا قاطعًا تعريضي مرة أخرى لذلك، ورجوت شريف ألا يسمح بذلك تحت أي ظرف، فجلس بجانبي وأخذ يربت على يدي مُهدئًا، ورجاني أن أوافق وإلا فلن تتحسن حالتي، وبعد البكاء من القهر استسلمت في النهاية لانعدام الخيارات الأخرى، ولكنني اشترطت أن يتم إعطائي نوعًا من المخدر لتخفيف الألم بأي طريقة، وبالفعل وافقوا على إعطاء مُسكن خفيف من خلال المحاليل المُعلقة في ذراعي، وأتذكر يومها أنني كنت في حالة نفسية سيئة، وشعرت بأن مشاكلي الصحية بعد الجراحة لن تنتهي أبدًا، وأننا أصبحنا لا نفرغ من معضلة إلا لنصادف أخرى، وأتذكر أن ذلك اليوم بالذات كان هو الذي ستسافر فيه إحدى البنتين صباحا إلى القاهرة وتصل الأخرى من القاهرة بعد الظهر، فكنت أنا وشريف وحدنا، ليس فقط في

الغرفة بل أحسست أننا وحدنا في الدنيا، في مدينة صغيرة لا نعرف فيها أحدًا على الإطلاق.

وبعد خروج الطبيبة والممرضات من الغرفة وإعطائي المهدئ أصبحَت الغرفة ساكنة تمامًا إلا من السيدة التي تقوم بالتنظيف، ويبدو من غطاء رأسها أنها تركية أو إيرانية مسلمة؛ لأنني كنت قد طلبت من شريف قبل دخولها أن نستمع إلى سورة «يس» على الموبايل، وأغمضت عينيّ، فلاحظت استماعها للقرآن وإدراكها لماهيته وهي تنظف بهدوء، وعندما خرجَت من الغرفة طلبت من شريف الذي كان يظن أنني قد نِمت أن يحضر مقعدًا ويجلس بجانب فراشي، فأمسك بيدي، وطلبت منه الدعاء لي بكلماته المؤثرة التي تطمئنني، وبالفعل بدأ يردد الأدعية المختلفة بصوت خفيض هادئ وأغمضت عينيّ وحاولت الاسترخاء في غرفة وكأنها خارج الزمن لا أسمع فيها سوى الأدعية بصوت خافت خاشع.

تركت يدي في يد شريف مطمئنة أنه معي وبجانبي، وبيدي الأخرى مِسبحتي البيضاء، وأتذكر هذه اللحظات بالذات لأن الغرفة كانت ساكنة تمامًا، والضوء يأتي من النوافذ الكبيرة، وكانت هناك أشعة شمس ساطعة تقع على وجهي بشكل مباشر، فقام شريف بتحريك الستائر حتى لا تضايقني، فاسترخيت وأنا يساورني إحساس بالأمان، وتمنيت النوم كي أستريح دون أن يوقظني أحد، وبعد فترة ليست بالقليلة، وبعد أن كان النعاس قد بدأ يداعبني بسبب المسكنات، ظهرت الممرضات على باب الغرفة لأخذي إلى الطابق الأسفل لنزع الدرنقة من المكان الخطأ وتركيبها في مكان مختلف، ونزلت وأنا متوترة وبجانبي شريف، وفي يدي مِسبحتي البيضاء أسبح بها حتى الغرفة المقصودة.

بعد الوصول إلى خارج الغرفة المحددة تبين أن أمامنا بعض الوقت لوجود مريض آخر بالداخل، وكنا قد نسينا شيئا في غرفتنا فصعد شريف لإحضاره، وظللت وحدي مع الممرضة التي سلمتني

لزميلها الذي خرج وأخبرني أن أمامي بضع دقائق أخرى، فظللت وحدي على السرير أمام الغرفة، ثم خرج أحد العاملين من الغرفة ليدفع بالسرير إلى داخلها، وكان له شكل مميز وضخم الجثة فتذكرته من المرة الأولى، وعندما تم نقلي إلى طاولة الكشف تذكّرني هو أيضًا، ويبدو أنه قد أشفق عليّ بسبب نزولي للمرة الثانية لنفس الإجراء خلال أيام معدودة، فربت على ذراعي متعاطفًا. وفعلًا أعطوني مُخدرًا خفيفًا يحتفظ بي مستيقظة ولكنه يقلل الألم، وأتى نفس البروفيسور وقام بنزع الدرنقة الأولى ووضع درنقة جديدة في مكان جديد بنفس الإجراءات والمعاناة، وكنت مستسلمة تمامًا، وأغمضت عينيّ وأخذت أقرأ القرآن في انتظار أن تنتهي هذه العملية المؤلمة.

وعندما خرجت من الغرفة وجدت شريف واقفًا في انتظاري، فصعدنا بصحبة أحد الممرضين الذي كان يدفع بسريري في ممرات المستشفى وأنا أسمع صوت عجلات السرير تتحرك على الأرضية وأرى

المصابيح الكهربائية مربعة الشكل المثبتة بالسقف، وأغمضت عينيّ بارتياح لانتهاء هذا التدخل الجراحي؛ متطلعة إلى الوصول لغرفتي وإعطائي مسكنات تساعدني على النوم قليلا انتظارًا لوصول مها من القاهرة، فقد أصبحت آمالي في تلك الأيام تنحصر في القدرة على النوم والغياب عما يحدث من حولي، لأن مجرد غياب الألم ولو قليلًا نعمة كبرى لو تعلمون! وأخذ شريف في الحديث عن ضرورة مُقاضاة المستشفى بسبب تركيبهم الدرنقة في المكان الخطأ في المرة الأولى وتعريضي لهذه المعاناة مرتين، وخاصة أنهم قد اعترفوا بالخطأ، بغض النظر عن التبريرات، الواهية في نظره، التي أعطوها لنا ولم يقتنع شريف بها، وكان منفعلًا وغاضبًا أشد الغضب، وفي انتظار وصول مها لمراجعة الإجراءات باللغة الألمانية وبحث طريقة الشكوى.

ولكني رجوته وتوسّلت إليه ألا يفعل ذلك؛ لأنني قد فاض بي من الألم الذي أعانيه، واليأس الذي

كنت أشعر به من شفائي ومغادرتي للمستشفى، وأمسكت بيده وقلت له بنبرة واهنة أرجوك تغاضَ عن هذا الموضوع؛ فأنا لا أحتاج مشاكل أخرى إلى جانب مشاكلي الصحية، ولا أريد أن أظل في خلافات مع الأطباء الذين يتولون علاجي، وكل ما آمله هو أن أغادر المستشفى بسلام وأعود إلى منزلي بالقاهرة، وكنت في حينها من كثرة المشكلات والمضاعفات الجانبية بعد الجراحة قد تراجعتْ في ذهني كارثة إصابتي بالسرطان، وأصبح كل همي أن أتخلص من الأنابيب والمحاليل والدرانق المتصلة بجسدي، وأغادر المستشفى إلى غير رجعة، ثم ألتفت بعد ذلك إلى الكارثة الحقيقية؛ وهي إصابتي القاتلة بالسرطان.

لاحظت هنا أنني أُعيد ترتيب الأولويات تلقائيًا في ذهني حتى لا أفقد توازني النفسي وأنهار نهائيًا، فلم أفكر حينها بتعمق في السرطان، كما كنت أفعل قبل الجراحة، ولكن أصبح الآن تسبقه أمنيتي بعدم حدوث أعراض جانبية أخرى لي، حيث أحسست

وكأن جسدي ينهار داخليًّا ويفقد تماسكه، نتيجة لكمية الاستئصالات التي حدثت به،أو بسبب التأثير المُهلك للعلاج الكيميائي داخله، وكأن جسدي هو بناية تبدو واجهتها مقبولة الشكل من الخارج، بينما أساساتها الداخلية غير الظاهرة للعِيان قد تخلخلت بشكل جوهري، وتهدد بانهيارها في أي لحظة دون سابق إنذار.

أثناء حديث شريف عن تقديم الشكوى ضد المستشفى استسلمت لإغفاءة من الإجهاد، وهذه عادة من أفضل لحظات اليوم؛ لأنني أعاني من عدم القدرة على استدعاء النوم منذ مَرضي، ولذلك فإنه بالرغم من سوء التدخل الجراحي، إلا أن ميزته الكبرى تتمثل في المسكنات التي تؤدي إلى سحبك بهدوء إلى منطقة النوم الهادئ ولو لدقائق، وكأنك تسقط في بئر من السكون وعدم الإحساس بالألم، لأجد مها بعد قليل توقظني بقُبلاتها المَرحة وتحكي لي أخبار الأحفاد وتحاول إنعاشي بالقول إن سامح زوجها قد أرسل لي تسجيلات لأفلام الحركة التي

أُحبها، وأنها ستحاول تشغيلها على التلفزيون لتسليتي.

ولا شك أن وجود سلمى ومها معي بالتناوب طوال الوقت كان يسعدني إلى حد كبير، مع شفقتي عليهما من التشتت بين عائلتيهما وبيني، فقد قضت الاثنتان الأسبوعين الأوّلين من الرحلة معي، ثم بدأتا التبادل فيما بينهما بحيث تُحققان التواجد المستمر معي طيلة الوقت، فكانتا عونًا حقيقيا لي في كل لحظة من هذه المحنة، أما زوجي الحبيب فلم يتركني لحظة واحدة طيلة هذه الرحلة منذ اللحظة الأولى لاكتشاف المرض في القاهرة، مرورًا بألمانيا، وحتى الآن وأنا أكتب هذه الصفحات.

والفارق بين طبع البنتين؛ أن سلمى غالبًا ما تستسلم لرغباتي، ولا يهون عليها أن تضغط عليّ سواء في المشي أو الجلوس على الكرسي، فتقول دائمًا «أوكي مامي»، على قاعدة أن ما لا أقوم به اليوم يمكن أن أقوم به غدًا عندما أستطيع ذلك، أما

مها فمثل والدها؛ ليس عندها تساهُل فيما يجب أن أفعله لتتحسن صحتي، وتشعر أنه من واجبها أن تُطبق كل نصائح الأطباء بصرامة، فيجب أن أمشي وآكل وأشرب حتى إذا كنت لا أرغب في ذلك، وتنزل لشراء مشروبات صحية بطعم الفاكهة التي كنت أحبها، ولكنني فقدت الرغبة فيها بعد العملية، فامتلأت الثلاجة الصغيرة في غرفتي بما تشتريه هي ووالدها من المشروبات المُغذية لتظل دون أن يمسها أحد.

وفي هذه المرة عندما وصلت «ميما» كما نطلق عليها تحببًا، أعلنت أنها قد أحضرت معها طلاءً للأظافر بلون هادئ، وأنها مُصممة على تلوين أظافر يديَّ وقدميّ، ونظرت إليها بذهول والتعبير على وجهي يقول «إنتِ مش شايفة اللي أنا فيه؟!»، راقدة على ظهري غير قادرة حتى على التقلب يمينًا ويسارًا من الألم، وغير قادرة حتى على شُرب المياه ولا الأكل ولا دخول الحمَّام، فهل ينقصني تلوين أظافري؟! وصممت مها أن ذلك سيرفع معنوياتي،

وهي عندما تُصمم على شيء تستمر في الإلحاح إلى الأبد، والاستمرار في السؤال لماذا لا تفعلين ذلك، مرارًا وتكرارًا حتى أضطر إلى الاستسلام لها لأتخلص من هذا الضغط، وفعلا استسلمت لها في النهاية كالعادة، واختارت لونًا هادئًا جميلًا ووضعته لتلوين أظافر يدي، وقد أعجبني بالفعل، ولكنني رفضت رفضًا قاطعًا أن أستسلم لتلوين أظافر القدم نظرًا لتوتري.

في هذه الفترة كانت قد بدأت مرحلة فقدان الوزن سريعًا نتيجة لامتناعي عن الطعام والشراب؛ حيث إن الطعام قد فقدَ طعمه بسبب طول فترة تناول المضادات الحيوية، ولاحظت أنني قد انتقلت من مرحلة تضخم قدميّ وغرابة مظهرهما، إلى مرحلة أخرى بدت فيها القدمان وأصابعهما في منظر غريب آخر كأنهما قدما إحدى المومياوات الفرعونية القديمة؛ ناشفة ومطبقة ورفيعة، كأن ليس بها حياة، ولكن مها رأت كالعادة الجانب الساخر في الموضوع، فقالت لي ضاحكة «على

الأقل يا مامي حضرتك خرجتِ من العملية دي بمكسب إنك خسيتي وبقيتي رشيقة جدًّا، ألا يسعدك ذلك؟!».

وهنا أذكر أن شريف كان لا يتركني مع واحدة من البنتين إلا مساءً في وقت النوم للذهاب إلى الشقة وحيدًا، وأتذكر دائمًا منظره بالبالطو والكوفية والشمسية؛ لأن الجو كان باردًا جدًّا وممطرًا معظم الوقت، وكان يأتي صباحًا ويحضر معه كل ما نحتاجه، وقد أنشأ علاقات مع سائقي التاكسي الذين يقلونه يوميًّا، وكان معظمهم مهاجرين من الأكراد. وبمجرد وصوله إلى المستشفى كان يتناول القهوة في كافتيريا الطابق ويتناقش مع الأطباء عند مرورهم صباحًا، ويخبرنا بمن اتصل به تلفونيا، ليطمئن على صحتي حيث إن تلفوني كان مغلقًا منذ دخولي للمستشفى.

وكان هو مَن يبلغني السلامات والتحيات والدعوات من الجميع، فقد أحاطني الناس بالكثير

جدًّا من الحب والاهتمام، وأنا ممتنة لهم جميعًا على ذلك، ولكن للأسف لم يكن عندي القدرة على التواصل مع أي أحد لأنني كنت أفتقر إلى الطاقة اللازمة لذلك، فكنت منهكة للغاية، وصوتي كما نقول بالعامية «مش طالع»، حتى شقيقاتي اللاتي كنَّ يتصلن يوميًا بزوجي والبنتين لم تُتح لهن الفرصة لسماع صوتي عبر «ماسنجر الفيسبوك» إلا في اليوم السادس عشر بعد خروجي من غرفة العمليات، وقد أخبرنني بعد ذلك أنهن قد قلقن جدًّا على حالتي عندما شاهدن صورتي التي كان يظهر عليها تغيير ملحوظ يدل على تدهور صحتي، والحقيقة أن كل مَن معي في المستشفى كانوا مُنشغلين طوال الوقت بالرد على التلفونات التي انهمرت عليهم، وإذا كان لهذه المحنة من مزايا فهي إحساسي الدافئ بمدى أهمية المشاعر والعلاقات الإنسانية التي أحاطتني في أوقات العُسر والشِّدة.

استمررنا يوما بعد يوم في متابعة درجة الحرارة المرتفعة ونسبة التخلص من السوائل المصابة

بالتلوث، وغيرها من المشاكل المتزامنة، وكانت تحاليل الدم تُجرى يوميًا لذلك الغرض، وبعد أيام طويلة بدأت النِّسب في الانخفاض ببطء كما تقول التحاليل، واستمر وجود الدرنقة وتنظيفها بمحلول ملحي وتغيير كيسها الخارجي يوميًا لقياس السوائل بدقة، وفي أثناء ذلك ظهرت مشكلة أخرى؛ فقد كان التنفس به بعض المشاكل في نسبته التي تُقاس يوميًا، ولم يكن ملائمًا صحيًا الاستمرار في استخدام قناع الأكسجين بكثرة، وبالتالي طلب الأطباء إجراء سونار للكشف عن كمية المياه على الرئة، ثم أخبرونا أنه يجب بزل تلك المياه؛ لأنها أصبحت أكثر مما يجب.

وأضافت الطبيبة أن ذلك سيحدث في غرفة مُجهزة في نفس الطابق، ولكن الخبر السيئ أن هذا الإجراء يجب أن يتم بدون مُخدّر للمرة الثالثة على التوالي؛ لأنني سأكون جالسة على منضدة الكشف مُتيقظة مُنتصبة الظهر، وكالعادة استسلمت لذلك لأنه لم يكن هناك حل آخر، وصاحبني في ذلك

الإجراء الجراحي شريف ومها لأن الطبيبة أفادت بأنه يمكنهما حضور ذلك، وسألتني الطبيبة إذا كنت أريد أن تسندني إحدى الممرضات من الأمام أثناء جلوسي تحسبًا للدوخة أو الإجهاد، ولكنني فضَّلت أن أستند على ابنتي مها، وجلست على منضدة الكشف ومها أمامي تُمسك بيدي، ووقف شريف خلفي بالقرب من الطبيبة، واكتشفتُ أنهم سيرشون مخدرًا على ظهري لإدخال إبرة كبيرة لتصل إلى الماء المطلوب بزله، وبطبيعة الحال توترت جدًّا توقعًا للألم، ولكن الطبيبة وعدت بأن يكون الأمر مقتصرًا على الإحساس ببعض الضغط على الظهر، وفعلا حدث ذلك، ولكن مع إحساسي بألم متوسط.

أخذ شريف يُصبرني على الاحتمال بينما أخرجت الدكتورة الكمية الأولى، مؤكدة أن الشاشة أمامها تدل على وجود كميات أخرى، وتكررت عملية بزل المياه، وبدأ يصيبني الإجهاد وأنا جالسة في ذلك الوضع طيلة هذا الوقت، كما أثقلت جدًّا على مها باستنادي إليها بنصفي الأعلى، وفجأة أحسست

بالبرودة والدوخة التي تشير إلى هبوط الضغط، وعندما قلت ذلك أسرعوا بإحضار أجهزة الضغط والنبض وغيرها التي أكدت ما أحس به من هبوط، وساعدوني للاستلقاء على جانبي الأيمن، وأشارت الطبيبة إلى إمكانية أن يتوقفوا ثم يستأنفوا البزل في وقت آخر، ولكنني قلت إنني لن أكررها أبدا تحت أي ظرف، وأنه ينبغي أن ينتهوا الآن مما يريدونه، وعندما تم قياس الضغط تبين أنه منخفض جدًّا، وأخبرتنا الطبيبة أنه ستتم محاولة لبزل الماء وأنا مستلقية على جانبي مع قياس النبض كل فترة، وفعلًا جرى ذلك، وأعلنت الطبيبة أن كمية المياه التي تم بزلها تزيد عن ٦٠٠ ملليمتر، وهذه كمية كبيرة لم نكن نتوقعها.

عند نقلي لغرفتي، بعد انتهاء عملية البزل، حاول الطبيب المختص إعادة تركيب الكانيولا في ذراعي لتعليق المحاليل والعقاقير، فحدثت نفس المشاكل السابقة، فقررت مها تكرار إخبارهم بأن هناك شريحة أوتوكاس في أعلى الصدر، وتساءلنا إذا كان من

الممكن أن تُستخدم لتركيب المحاليل أو أخذ العينات، وفي هذه المرة وافقوا، ولا أستطيع أن أصف سعادتي بذلك بعد أن ظللت أربعة أسابيع أُعاني من محاولات شبه يومية لإعادة إدخال الحقن في ذراعي والتي تسبب ألمًا شديدًا وتترك لونًا أزرق كالكدمات تحت الجلد، وبالتالي ارتحت جدًّا لهذا الخبر؛ رغم أنه ليس له علاقة بالشفاء، وهذا يثبت أن الإنسان ضعيف، وعندما يحدث أي تحسُّن ولو بسيطًا في شعوره بالألم يشكر الله شكرًا جزيلًا على رحمته.

يجب أن أشير هنا إلى أنه بعد مرور أربعة أسابيع، لم أكن أتوقع مرورها، وأنا ما زلت في المستشفى، كنت قد فقدت الأمل تمامًا في حدوث تحسُّن في أي شيء أيا كان، وبالتالي مرت بي فترة حالكة السواد من الألم والعذاب البدني والنفسي، كان من سوء حظ سلمى، أو «لولا» كما نطلق عليها تحببًا، أنها قد عاصرتها معي في المستشفى، والتي وصلْت خلالها أن تمنيت الموت لأتخلص من الألم،

وهُيئ لي أن الحل الوحيد هو أن أضع رأسي على الوسادة ليلًا ولا أستيقظ بعد ذلك؛ وبالتالي أرتاح من الألم، وأعفي أيضًا مَن يتعذبون نفسيا معي من عائلتي وشقيقاتي.

وأعترف أنه في لحظة من لحظات العذاب مرَّ بذهني فكرة أنه إذا كان شفائي ميؤسًا منه، فلماذا أحتمل إطالة الآلام؟! وطلبت من سلمى وشريف أن يسألا المستشفى إذا كان لديهم أدوية لما يُسمى بالقتل الرحيم، ما دامت حالتي غير قابلة للشفاء، وهذه لحظة كانت خارج الزمن بالنسبة لي، وكأني كنت في عالم آخر مليء باليأس والإحباط والظن بأن النهاية لا يمكن أن تكون بعيدة عني، وقد تخلصت من هذه الحالة سريعًا والحمد لله، ولكنها آلمت شريف وسلمى كثيرًا، ولكنهما احتملاني بصبرهما وحبهما وإدراكهما لمدى عذابي.

عندما أسترجع الآن في ذهني عدد الأطباء الذين زارهم شريف حاملًا معه كل الأشعات والتحاليل

بغير كلل ولا مَلل، ومتنقلا في ساعات المساء بين أطراف مدينة القاهرة زائرًا كافة المراكز المتخصصة لشرح حالتي بالتفصيل مرارًا وتكرارًا، مستمعًا إلى الآراء الطبية، طارحًا عشرات الأسئلة نيابة عنا جميعًا، ثم يعود للمنزل ليحكي لي خلاصة كل ما حدث، إلى جانب أنه يتصل تلفونيا بالأطباء بالخارج، وبخاصة المصريون المتخصصون في مرضي ليستشيرهم قبل العملية وبعدها، ويتحدث معهم مطولًا وبالتفاصيل الدقيقة، ويعتني بمقارنة الآراء ببعضها البعض ليصل إلى ما يُطمئنه على ما يتم اتخاذه من إجراءات طبية، خاصة خلال الأوقات العصيبة التي مررنا بها أثناء وجودنا في المستشفى، وأنا أحمد الله على وجوده بجانبي أثناء تلك الأيام العصيبة فقد حمل عني الكثير من الهموم والأحمال التي لم أكن لأتحملها وحدي.

كانت من المشاكل المؤرقة التي واجهتني بعد الجراحة وظلت مستمرة لما بعد عودتي للقاهرة، معضلة الإخراج الطبيعي، وارتبط بها عذاب كبير لم

ننجح في حلّه بالرغم من مختلف المُلينات التي تناولتها، فكانت معضلة لا تنتهي، والحق يقال إن الأطباء والممرضات أيضًا قد نصحوا بإلحاح بضرورة شرب كميات كبيرة من الماء، ولكنني لم أفعل ذلك، وبضرورة المشي، ولكنني لم أنفذ ذلك، وبتناول الفاكهة المجففة مثل القراصيا والتين، ولكنني أيضًا لم أُقبل عليها لأنني لم أكن مقتنعة بأن هذه الوسائل الطبيعية هي الحل الحقيقي، وإنما الأدوية، وأعتقد أن هذا الإحساس الداخلي هو من أسباب عدم إقبالي على أي طعام حتى لا أضطر إلى مواجهة عجزي عن الدخول إلى الحمّام، واستمررت على تناول أدوية الفوار المُلينة حتى بعد عودتي للقاهرة، ولكن الحقيقة عندما لجأت إلى تناول القراصيا وجدت أن تأثيرها ساحر كوسيلة طبيعية لحل مشكلة الإخراج؛ ولذلك فإنني أنصح كل مَن يعاني من مشكلة الإمساك بتناولها بانتظام.

ودخل علينا شهر ديسمبر وأنا في نفس الغرفة مستلقية على ظهري، والأيام تمر مُتثاقلة، وأنا

بطبيعة الحال أزداد ضعفًا على ضعف، وكانت فترة تواجدنا في المستشفى قد أكملت شهرًا كاملًا، وأصبحت تبدو لنا وكأنها للأبد، بعد أن كانت آمالنا معقودة على أنها لن تتخطى أسبوعًا إلى عشرة أيام على الأكثر، ولكن خلال تلك الأيام الكئيبة كانت هناك أيضًا بعض اللحظات العابرة المُشرقة؛ فمثلًا في اليوم الذي سافرث فيه مها صباحًا، ومن المُقدر أن تصل فيه سلمى بعد الظهر، كان شريف يساعدني على المشي في الطابق الذي أقيم به، ونحن نسير ببطء في الممر المعتاد أمام غُرف المرضى حول الدور، وجدنا أمامنا فجأة مجموعة من الأطفال الألمان في سن من ٥ إلى ٦ سنوات، بالشعر الأصفر والعيون الزرقاء والملابس الملونة، يحملون في أيديهم أكياسًا صغيرة، فاستنتجنا أنهم من إحدى المدارس الابتدائية، وربما هم قادمون لزيارة أحد المدرسين المرضى من مدرستهم، وابتسمنا لهم بترحيب ردًا على ابتساماتهم البريئة والمندهشة، وبعد خطوات وجدنا شابًا يحمل جيتارًا، ثم سيدة

تبدو كإحدى المُعلمات تسير وراء الأطفال، وبعد أن وصلنا في التمشية إلى الغُرف في الممر الآخر، وعند منطقة مشتركة بين الممرّين، بها بعض الكراسي المُريحة، وجدنا مجموعة الأطفال الجميلة ومعهم المُدرس والمُدرسة يعزفون على الجيتار، بينما يُغني الأطفال أغاني أعياد الكريسماس التي أعرفها؛ حيث إنني كنت قد سمعتها في مدرسة سلمى ومها الألمانية بالقاهرة.

وبالتالي كانت مفاجأة سعيدة أن أستمع لها من هؤلاء الأطفال الأبرياء، ووقفت مع شريف نستمع ونُصفق لهم، وأعجبتني هذه الفكرة الجميلة التي ليست فقط تُرفه عن مرضى السرطان، ولكنها أيضًا تُعلم هؤلاء الأطفال قيمة الاهتمام بالآخرين والتعاطف مع غيرهم، خصوصا المرضى، وفعلا خرج مختلف المرضى من غُرفهم إلى الممر، بعضهم على كراسي متحركة، وبعضهم يُحركون معهم القوائم التي تحمل المحاليل، والآخرون معهم أكياس الدرنقة... وما إلى ذلك، وكلهم، على اختلاف

أعمارهم، ترتسم الابتسامات على وجوههم بسبب أغنيات الكريسماس البهيجة التي تُذكرهم بأيام سعيدة ماضية، وتُشعرهم، وهم على سرير المرض، بأنهم ما زالوا على قيد الحياة، وأن الآخرين ما زالوا يتذكرونهم.

وفكرت لماذا لا نفعل ذلك في مصر؟ ولماذا لا تبعث كل المدارس الابتدائية بأطفالها إلى المستشفيات في أيام الأعياد المختلفة لرفع معنويات المرضى، وبالأخص مستشفيات الأمراض الخطيرة، ليُنشدوا بعض الأغنيات المَرحة أو الوطنية المحبوبة ؛ مُشارَكةً منهم للمرضى وأُسرهم؟

ألا يُعلّم ذلك الأطفال المشاعر الراقية والتعاطف والتراحم مع المرضى والاهتمام بالآخرين؟! أتمنى أن أشاهد ذلك في مصر قريبًا للارتقاء بالمشاعر الإنسانية الجميلة في نفوس الأجيال الجديدة.

ومضى هذا اليوم بلمسة مُبهجة أنعشت نفوسنا

ورفعت معنوياتنا، حتى وصلت سلمى فاكتملت بهجة اليوم، وكان ذلك في اليوم الثاني والثلاثين من إقامتنا في المستشفى، وكنا ما زلنا نُكافح مع ارتفاع درجة الحرارة من تأثير التلوث، وكانت الدرنقة ما زالت موجودة أحملها معي أينما أذهب، حيث رفض الطبيب نزعها قبل عودة درجة الحرارة إلى مستواها الطبيعي، وأتذكر جيدًا أنه في يومَي العطلة الأسبوعية (السبت والأحد)، كان يظهر أطباء مختلفون يُراجعون الحالة، وفي أحد تلك الأيام مرَّ علينا أحدهم، وكانت سلمى معي، فحاولت أنا معه بالطريقة المصرية المعتادة أن أعرف مزيدًا من المعلومات التي آمل أن ترفع معنوياتي بشأن رقدتي التي طالت جدًّا في سرير المستشفى، وكان طبيبًا شابًّا طويلًا، ولحُسن الحظ يتحدث الإنجليزية، وكنت في تلك الأيام ما زلت أعاني من الحرارة التي بدت وكأنها مستمرة إلى ما شاء الله، فسألته وأنا مُلقاة على ظهري لا أستطيع التحرك إلى أي جانب: هل تعتقد أنني سأتغلب على الآثار

الجانبية لمسألة التلوث؟ فنظر لي في تفكير وقال لا أعرف؛ لأن هذا ليس تخصصي، فسألته وهل ترى في هذه الحرارة خطرًا يُهدد حياتي؟ فرد بهدوء قائلًا ليس خلال الأسابيع القليلة القادمة، فأدهشني الرد وتوقفت عن الحديث متسائلة في ذهني.. أسابيع إيه؟ هو بيتكلم عن مين؟ يعني في الأسابيع الجاية مفيش خطر على حياتي من الحرارة لكن بعد كده ممكن!! بينما استمر هو مستطردًا ليقول أتعرفين أن هذه الحرارة المرتفعة ليست هي ما ينبغي عليكِ أن تفكري فيه أو تشغلي بالكِ به؛ لأنكِ عندما تنتهين من هذه المشكلة ستتذكرين أنكِ يجب أن تواجهي معضلتكِ الحقيقية التي نسيتِها خلال هذه الفترة، وهي أنكِ مُصابة بالسرطان، وهذا ما سيكون عليكِ أن تواجهيه وتتعاملي معه في البقية الباقية من حياتك!

ما أذهلني هنا ليس أنه ذكّرني بمشكلتي الحقيقية التي كنت قد نسيتها تحت ركام المشاكل التي ما انفكت تُصيبني منذ دخولي المستشفى،

ولكن طريقته المباشرة في مواجهتي بالحقيقة المُرَّة في وجهي، وهي طريقة جميع الأطباء الأجانب الذين يفتقرون إلى تغليف الحقيقة ببعض المشاعر العاطفية؛ فالأطباء المصريون يُشفقون على المريض من الأخبار السيئة التي يحاولون دائمًا توصيلها برفق لأهل المريض وليس للمريض نفسه، وأنا شخصيا أحب معرفة الحقيقة بلا شك، ولكن أُفضل أن يصحبها بعض الأمل لنستطيع أن نتماسك ونتشبث بالحياة، ونرى ولو ضوءًا مرتعشًا في نهاية النفق المظلم.

وفي تلك الأيام لاحظت أنه وبرغم المدة الطويلة التي أمضيتها بالمستشفى، والعديد من المحاولات التي بذلها معي شريف وسلمى ومها للسير حتى الكافتيريا المجاورة، سواء للإفطار، أو لشرب الشاي أو الكاكاو، فإنني كنت أرفض على الدوام، أيًّا كانت حالتي، ليس لمجرد فقداني الشهية فحسب، ولكن لأنني كنت لا أستطيع تحمُّل رؤية مرضى سرطان حولي بمختلف مراحلهم المرضية، رغم أنني واحدة

منهم، فبعضهم على كراسي متحركة والبعض الآخر فقدَ شعره، وآخرون يحملون معهم المحاليل المُعلقة في أذرعهم، وكان ذلك يُخيفني ويجعلني أحس بالإحباط، بالرغم من أنهم يتصرفون ببساطة، ربما لأنهم أشجع مني في مواجهة واقع الحقيقة القاسية للمرض.

وأتذكر هنا حين ذهبنا في اليوم الأول لمقابلة الجرَّاح وجلسنا ننتظره في نفس هذا الطابق لبعض الوقت، لاحظنا وجود مريضة يبدو شعرها قصيرًا جدًّا بعد العلاج، وتبدو نحيفة للغاية، ولكنها تسير في الممر أمام غُرف المرضى وحول الطابق بانتظام كنوع من الرياضة البدنية، وعندما رأيناها أكثر من مرة تلف حول الطابق خلال فترة الانتظار، نظرت إلى عائلتي وقلت لهم هل سيصبح منظري هكذا مُتهافتًا وبدون شعر بعد الجراحة؟ فقالوا جميعًا باستنكار لأ طبعًا! ولم أكن أدري ساعتها أنه سيأتي يوم أتمنى أن أصبح بقوة وصلابة هذه السيدة الشجاعة التي تسير وحيدة منتصبة القامة ولا

تشعر بالخجل من شعرها القصير كالرجال، ولا من فقدانها الوزن، وإنما تمارس رياضة المشي المطلوبة منها بإصرار، وترتسم على وجهها ابتسامة بسيطة كلما مرت بنا، وكأنها تقول أنا ما زلت هنا أصارع المرض ولا أستسلم له، ولا أُلقي أسلحتي في مواجهته، ولسوء حظي عندما بدأت السير حول الدور الذي أقيم به لم تصادفني هذه المريضة ثانية، ولا أدري ماذا حدث لها، وكنت أحب أن أتحدث معها عن طريق البنتين لأعرف قصتها فلربما أعطاني ذلك أملًا في القادم من الأيام، ولكن للأسف لم يحدث ذلك.

وبمناسبة السير كرياضة، فإنه كنتيجة لإلحاح عائلتي وأطباء العلاج الطبيعي كنت أحاول جاهدة أن أُكمل على الأقل يوميًا دورة من السير حول الطابق الذي أقيم به أو دورتين إن أمكن، بل إن الإخصائية نجحت عدة مرات في أن نصعد السلم للطابق الأعلى مستندة إلى ذراعها من جانب وإلى درابزين السلم من ناحية أخرى، وعندما كنا نفعل

ذلك كنت أعتبره إنجازًا كبيرًا. سبحان الله، كيف يضعف الإنسان وتتهالك قدراته البدنية بحيث يصبح صعود بضع درجات من السلالم مهمة صعبة نهنئ بعضنا البعض على النجاح في إنجازها؟!

ولا بد أن أذكر هنا أنه بالنسبة للمستشفى، فلم تكن هناك أطعمة ممنوعة تقريبًا، بل كان كل شيء متاحًا للمريض، سواء كان أسماكًا أو لحومًا أو طيورًا أو حلويات، وذلك بعكس نصائح أطباء كثيرين يُحبذون أطعمة معينة، أو يمنعون أخرى لمقاومة السرطان، ولكن ما سمعته في إنجلترا وفي ألمانيا هو أفضلية البُعد عن الأطعمة المحفوظة وعن اللحوم المُصنعة؛ أي مجرد نظام صحي ينطبق على أي شخص، سواء على المريض أو غير المريض، ولكن لم يكن هناك ذكر لأطعمة معينه تحارب السرطان، خاصة بعد الإصابة به، وبالتالي لم تكن مشكلتي هي نوعية الطعام، فهو كان متوفرًا، ولكن مشكلتي كانت فقداني التام للشهية، حتى إنني عند مغادرتي للمستشفى كنت قد فقدت

حوالي ١٤ كيلو جرامًا من وزني مقارنة به عندما دخلتها في اليوم الأول.

المهم، عندما وصلت سلمى وأصبحنا في شهر ديسمبر، كنت أعاني من حالة إحباط شديد بسبب استمراري لهذه المدة الطويلة في المستشفى، كما اختنقت بسبب استمراري في ارتداء قميص نوم المستشفى النمطي بسبب الدرنقة والمحاليل، وأصبح كل ما أريده هو العودة لمنزلي في القاهرة، وكنت أحلم بمُتع صغيرة مثل ارتداء ملابس النوم العادية التي حملتها في حقيبة السفر من القاهرة، وكنت أتصور أنني سأرتديها بعد الجراحة في المستشفى وأتمشى بها مُتدفئة بالروب الذي ابتاعته لي مها عندما وصلنا إلى مدينة إسن، وكنت أحلم بالسير في ممرات حديقة المستشفى مُحاطة بالخضرة الجميلة التي تصفها البنتان، ولا أرى منها إلا قمم الأشجار، بينما تحكي لي البنتان عن السناجب الصغيرة بذيلها المرفوع وهي تتسلق الأشجار وتبعث البهجة في النفوس، وبعد أيام قالوا

لي إن الثلوج قد نزلت وغطّت أرضية الحديقة وفروع الأشجار الخضراء، وكل هذه أشياء أحبها وأستمتع بها وأتطلع لرؤيتها في الأحوال العادية، ولكن لم تُتح لي الفرصة لذلك بسبب حالتي الصحية السيئة ورقودي في الفراش طيلة الوقت.

بدأت فكرة العودة إلى القاهرة تُسيطر على ذهني وكأنها ستحل كل المشكلات الصحية، وستشفيني نهائيا، دون وجود منطق لذلك، وكأن وجودي في مُحيطي الذي اعتدته بين ابنتيّ وأحفادي وشقيقاتي سيُمثل عصا سحرية تلغي الماضي وتغير المستقبل وتستعيد أنيسة القديمة بخير من غير سوء، وأصبحت أنتظر بفارغ الصبر انخفاض الحرارة والاستغناء عن الدرنقة لأغادر بعد ذلك فورًا، متخيلة في عقلي الباطن أن عودتي للمنزل ستؤدي إلى معجزة محو ذكريات كل الأيام السيئة بالمستشفى ومعاناتي خلالها، وبالتالي انفصلت عن الواقع وتجاهلت في عقلي مشكلة السرطان، وأصبحت آمالي مُعلقة بتغيير رداء المستشفى

وتحرير ذراعي من المحاليل ونزع الدرنقة حتى لا يصبح جسدي معلقًا به أيُّ شيء، ويصبح حرًّا في الحركة دون مساعدة الآخرين.

وبعد عدة أيام جاءني الطبيب الجرَّاح ليُذكرني بالسرطان مرة أخرى، وأخبرني أن الأمر يستلزم استئناف العلاج الكيميائي الذي بدأته في القاهرة خلال ثلاثة أيام على الأكثر، نظرًا لمرور مدة كافية على الجراحة، ولا يمكن المخاطرة بالتأخير في ذلك؛ لأن ذلك قد يعني السماح باستعادة الخلايا السرطانية لنشاطها الداخلي، وأحسست وكأنني أسقط في بئر عميقة من الاكتئاب، وكأنه لا يكفيني ما أعانيه من مشاكل ليزيد عليّ جلسات مكثفة من العلاج الكيميائي، وفهمت أنهم كانوا في انتظار انخفاض درجة الحرارة حتى يستطيعوا إعطائي جلسة العلاج الجديدة.

شرح لنا البروفيسور الجرَّاح أن نظامهم هنا مختلف عن القاهرة، فهم يُعطون جرعة ثلاث

جلسات مكثفة في جلسة واحدة، وبالتالي فالمرحلة الواحدة هي عبارة عن ثلاث جلسات مكثفة، كل منها تضم جرعة ثلاث جلسات، وفعلًا وافقنا على أخذ الجلسة الأولى المكثفة في خلال ثلاثة أيام، وجاءت الطبيبة المختصة للكشف ومراجعة المؤشرات الحيوية ثم قياس الوزن حتى يحددوا الجرعة المكثفة اللازمة. وكإجراء ضروري، شرحت لي الطبيبة كل دخائل العلاج وكل السيناريوهات للآثار الجانبية مهما كانت قسوتها مثل التأثير على النظر أو الأعصاب أو الحركة أو غير ذلك؛ لأن ذلك جزء من بروتوكول إعلام المريض بكل شيء، وقد طلبوا مني في النهاية التوقيع على الأوراق التي تقول بأنني قد تم إعلامي بكل ذلك.

تم الإعداد لجلسة العلاج الكيميائي المكثف، وتزامن مع ذلك إزالة الدرنقة وانخفاض درجة الحرارة، وفي اليوم المقرر تم تركيب الأدوية، بدون عقار الـ«Avastin»، واستغرقت الجلسة خمس ساعات، وكان ذلك يوم الأربعاء، وبعد نهاية الجلسة

سألنا الأطباء إذا كانت هناك إجراءات طبية أخرى تستلزم بقائي في المستشفى، فكانت الإجابة بالنفي، فصممت على العودة إلى القاهرة يوم السبت التالي؛ أي بعد ثلاثة أيام، رغم أنني كنت في غاية الإجهاد، واقترح شريف أن أخرج من المستشفى وأستريح في الشقة لعدة أيام كفترة راحة قبل تحمُّل مشقة السفر الطويل أولا من «إسن» إلى «فرانكفورت»، ثم منها إلى القاهرة، ولكنني رفضت وصممت على المغادرة يوم السبت إلى القاهرة مباشرة، وكأن حياتي تتعلق بذلك.

وبالتالي بدأنا نطلب نُسخًا من كل التقارير والأشعات والأدوية التي سيتم صرفها، وعند مرور الطبيب الجرَّاح في اليوم الأخير؛ يوم الجمعة، سألته عن سبب إصابتي بكل هذه المشكلات والمضاعفات منذ إجراء العملية الجراحية، فأجاب أن مثل هذه العملية كانت تستلزم عادة البقاء في المستشفى من أسبوع إلى عشرة أيام، ثم أسبوع آخر خارج المستشفى للمتابعة ثم السفر، ولكن هذه

الفترة الطويلة التي قضيتها كانت بسبب تعرضي لكافة الأعراض الجانبية التي تذكرها كتب الطب كمضاعفات تحدث بنسب ضئيلة لا تتعدى ١٠٪ لبعض المرضى، ولكن كما قال، فإن حظي كان سيئا وأُصبت بها جميعًا للأسف، وعندما سألناه عن توقعاته بالنسبة لتطور المرض، واحتمال رجوعه لي مرة أخرى، كرر ما سبق أن قاله من أنه لا يملك بلورة سحرية، ولكن لديه مريضات أسعدهن الحظ وتعدين الثماني سنوات من البقاء على قيد الحياة بعد إجراء العملية، ولكن لا يوجد أسباب محددة لذلك، فهي تختلف من مريضة إلى أخرى، وعندما كررت سؤالي عما يجب أن أفعل لئلا يعود المرض لي مرة أخرى، كرر ما قاله الأطباء في إنجلترا من أنه لا يوجد أمامي شيء أستطيع أن أفعله سوى الطعام الصحي والرياضة البدنية والروح المعنوية المرتفعة من خلال العلاقات الاجتماعية، ولا شيء غير ذلك، مؤكدًا أنه لا توجد ضمانات للمستقبل، ومُكرِّرًا ما قاله من قبل من أن أسباب المرض أيضًا

غير معروفة بصورة مؤكدة.

وبطبيعة الحال، فإننا بعد هذه الإجابات أُسقِط في يدنا؛ فكل ما كنا نأمل فيه بعد طرح هذه الأسئلة أن يمنحنا أحد الأمل في شفاء كامل من هذا النوع من السرطان، ولكننا فشلنا في الحصول على هذه الإجابة من أي من الأطباء الأجانب، وذلك باستثناء طبيبي المصري د. تامر النحاس المُتفائل دائمًا وأبدًا، والذي يعطيني جرعات مستمرة من الثقة في الشفاء في كل مرة ألتقي به، فشكرًا له على هذا الدعم المعنوي المستمر، وعلى أرض الواقع. وفي ضوء إجابات الجرّاح الألماني بدأت أقول لنفسي إذن فلنحاول أن أصمد لثماني سنوات مثلا، وهو الحد الأقصى الذي يتكلمون عنه في حالات مريضاتهم، وبدأت كالعادة في حساب عمر الأحفاد بعد مرور ثماني سنوات إذا مد الله في عمري المحسوب بالدقيقة والثانية، وهل سأكون حية في خيالهم إذا اختفيت بعد هذه السنوات الثماني، وصممت أنني يجب أن أستغل كل الوقت الباقي أيا

كانت مدته في الاستمتاع بوجودي في أحضان عائلتي الحبيبة.

بعد انتهاء مناقشتنا مع الطبيب استأنفت سلمى بحثها عن سيارة تنقلنا يوم السبت من المستشفى إلى المطار؛ لأنه بالنظر لآلامي الجسدية وحالتي الصحية كان السفر بالقطار مستحيلا لضيق مساحة المقاعد وصعوبة حمل الشنط والصعود بها للقطار، بينما أحتاج لشريف لكي يسندني في حركتي. وفي النهاية وجدت سلمى سيارة كبيرة مُريحة تسعنا جميعًا، ووصل شريف إلى المستشفى يوم السفر مبكرًا لمساعدتنا في إغلاق الحقائب، وكنت قد حاولت مساعدة سلمى في ذلك، ولكن المسألة كانت مُجهدة جدًّا بالنسبة لي بشكل لم أكن أتصوره؛ نظرًا لأنني لم أبذل أي مجهود خلال أكثر من أربعين يومًا قضيتها في المستشفى، وبالتالي كان مجرد استحمامي وارتدائي لملابس بسيطة مسألةً في غاية الإجهاد، وعندما حضر شريف تبعه وصول السيارة، ونقلَ الحقائب بعد وضع جميع الأدوية

والأشعات والتحاليل التي سنحتاجها في القاهرة لإطلاع الدكتور تامر عليها قبل استئناف العلاج الكيماوي.

ولقد عانيت في المشي حتى وصولي إلى باب المستشفى، وأخذت أفكر ماذا سأفعل في المطار المُتسع الأرجاء، وفي محاولة ركوبي السيارة تألمت للغاية رغم أنها كبيرة ومُتسعة، ومقاعدها منفصلة عن بعضها البعض ومريحة، ولكنني وجدت نفسي غير قادرة على رفع ساقيّ لدخول السيارة لشدة ضعفي وتهالك عضلاتي، واضطر شريف إلى حملي لداخل السيارة بمساعدة السائق المهذب، وقد اكتشفنا بعد العودة لمصر أنني كنت قد فقدت نصف كتلة العضلات في الجسم؛ ولذلك كانت الحركات العضلية مستحيلة ومؤلمة في ذات الوقت.

وبإغلاق باب المستشفى الزجاجي الكبير خلفنا وخروجنا إلى الهواء شديد البرودة، نكون بذلك قد طوينا صفحة العلاج في الخارج بعد هذه الرحلة

الطويلة، ووصلنا أخيرًا إلى اليوم الذي أغادر فيه المستشفى، بعد أكثر من ٤٢ يومًا من الغُربة في بلاد بعيدة.

وأتذكر هنا أننا قبل السفر قد بذلنا أقصى الجهد لاختيار أفضل مستشفى وأحسن جرّاح، وسألنا كل الأسئلة الضرورية لنتخذ القرار السليم، ومع ذلك، فبدلًا من قضاء عشرة أيام، قضينا في المستشفى ٤٢ يومًا، وبدلًا من رحلة سهلة مع الألم فقد أُصبت بكل التعقيدات والأعراض الجانبية؛ ومع ذلك فإنه يجب الرضى بما قسمه الله لنا، فليس هناك مهرب من المكتوب، لذلك نتقبل قضاءَ الله دون اعتراض، فنحن لا نعرف ماذا يُخفيه لنا المستقبلُ من خيرٍ أو شر، فدعونا نستمتع بالحاضر طالما دام، ونشكر الله على نِعَمه لأنه ليس بيدنا شيء لتغيير ما هو مقدور لنا في عالم الغيب.

الصفحة الرابعة

العودة من مشارف الموت

كنا في السيارة إلى مطار فرانكفورت حين عرض شريف مرة أخرى البقاء في مدينة «إسن» للراحة ولو ليومين قبل السفر؛ وذلك بعد مشاهدته مُعاناتي في السير والركوب، ولكني رفضت رفضا قاطعا، وطلبت أن تتوجه السيارة إلى مطار فرانكفورت مباشرة؛ وبالتالي أخذنا نبحث في البداية عن دواء السيولة الضروري الذي سأحتاج منه كميات إضافية في مصر، حيث أتناوله يوميًّا، وفعلا كتبت لي إدارة المستشفى روشتة لصرفه، ولكن المشكلة كانت أن معظم الصيدليات مغلقة يوم السبت، ولكن بعد قليل من الوقت وجدنا واحدة مفتوحة، ونزلت سلمى لإحضاره، وللدقة الألمانية المحمودة فقد قامت الصيدلانية بختم الروشتة بعدد العلب التي أخذناها، حتى نستطيع أن نصرف منها إذا احتجنا غيرها من أي مكان في ألمانيا، وبعد الانتهاء من هذه

المهمة بدأنا الرحلة الطويلة إلى المطار.

ولا أستطيع أن أصف لكم معاناتي خلال الرحلة، فهناك آلام لا أفهمها، وإحساس قاسٍ بالغثيان، وتقلصات بالمعدة مستمرة طوال الرحلة؛ ولذلك كانت حالتي هي ما يوصف بالعامية «ربنا ما يحكم على حد»، ولأني فشلت في النوم بسبب ذلك، فإن الرحلة بدت وكأنها ستستمر إلى الأبد، وبعد حوالي ثلاث ساعات وصلنا إلى مطار فرانكفورت وكنا قد طلبنا كرسيا متحركا في اليوم السابق، ولكن تبين بعد الدخول أن المسألة بها إجراءات كثيرة، وأخذت سلمى تجري من هنا إلى هناك لتنتهي من كل شيء، ثم بعد وقت طويل عادت إلينا بالكرسي. بعد ذلك استلزم الأمر الذهاب إلى مكتب ثانٍ لشحن الحقائب ثم الحصول على سيارة كهربائية تأخذنا إلى استراحة السفر، وقد أخذت تلك الإجراءات وقتا طويلا، واكتشفنا بعد ذلك أننا يجب أن نغادر تلك العربة عند كل نقطة تفتيش، ثم نسير على أقدامنا ونعاود انتظارها مرة أخرى في الجانب الآخر.

وصلنا في نهاية الأمر إلى استراحة المسافرين، وهناك صمّم شريف على أنني يجب أن أتناول شيئا عسى أن يُخفف ذلك من شعوري بالغثيان، فأحضر لي كوبًا من عصير البرتقال ومعه قطعة من الخبز الناشف، ولكنني بدلا من أن أتحسن زادت رغبتي في القيء، (وأدركت بعد عودتي للقاهرة واستمرار إحساسي بالغثيان أنني كان يجب أن أتناول بعد جلسة علاج الكيماوي المكثف دواء منع الغثيان الذي كنت أتناوله بعد كل جلسة علاج بالقاهرة)، ولكن ذلك لم يخطر على بالنا حينئذ، وبالتالي ظلت حالتي سيئة حتى صعودنا إلى الطائرة، ولاحظت أن هذه كانت هي المرة الأولى في حياتي التي أتواجد فيها بأحد المطارات ولا أذهب للفرجة وشراء الهدايا للجميع، وهذا بالنسبة لي دليل قاطع على أن صحتي كانت في حالة سيئة، فلم أكن أتصور سابقًا أنني أستطيع العودة من السفر دون إحضار هدايا صغيرة للأحفاد.

عندما حان موعد الصعود للطائرة قرر شريف ذهابي إليها على كرسي متحرك لعدم قدرتي على الحركة، وكانت هذه هي تجربتي الأولى في الجلوس عليه، وكان هناك راكب أمامي، مصري الجنسية، جالسا أيضًا على كرسي متحرك، وكذلك زوجته، ومعهما ابنهما، وأنا عادة أخجل من الجلوس على الكراسي المتحركة، وأشعر أن كل الناس ينظرون لمَن يجلس عليها بشعور من الشفقة عليه، وبينما كنا في نهاية الممر المؤدي إلى الطائرة ننتظر الدخول، وأثناء تحرك كرسي المريض الذي أمامي ليقترب من باب الطائرة حيث تدفعه سيدة من العاملات بالمطار، إذ وقع فجأة على الأرض بوجهه وتناثرت أجهزته الطبية، وطبعا تم رفعه على الفور، وأصاب ابنه (الذي تبين أنه طبيب بشري) الفزع على والده، ولكنهم حملوه إلى الداخل بسلام، أما أنا فقد دخلت إلى الطائرة مستندة إلى ذراع شريف وخائفة من الوقوع أرضا أنا أيضا، ولحُسن الحظ تعرَّف عليّ رئيس طاقم الضيافة والمضيفات في

مصر للطيران ورحبوا بي، واختارت سلمى أن تجلس بجواري، بينما جلس شريف إلى جوارنا عبر الممر.

وقد زادت حالة الغثيان عندي عندما بدأت الطائرة في التحرك، وعندها أحضرت لي المضيفات ينسونًا دافئًا في محاولة لتهدئة معدتي وجعلي أشعر بالتحسن، ولكن هيهات، فحالتي كانت تزداد سوءًا كل دقيقة، وفجأة وأنا جالسة جاءتني حالة قيء مفاجئ لا إرادية لوّثت ملابسي ومقعدي، فشعرت بالإحراج الشديد، بينما ساعدتني سلمى في تنظيف وتطهير وجهي ويدي وملابسي بالمناديل المعطرة التي أحضرَتها المضيفات، وصممْت على تنظيف المقعد والأرض بنفسي؛ من كثرة إحساسي بالذنب والخجل الشديد، وتكررت هذه الحالة أربع مرات أخرى خلال الرحلة، ولكن والحمد لله كانت سلمى تسندني للوصول إلى حمّام الطائرة في الوقت المناسب، ولكن ذلك أجهدني للغاية لأنني كنت أصمم على أن أنظف الحمّام بماء التواليت

الموجود حتى يصبح لامعًا من النظافة؛ حيث كنت لا أود إزعاج باقي الركاب الذين كانوا مندهشين من كثرة ترددي على الحمَّام مما أشعرني بالحرج الشديد.

كانت هذه من أسوأ لحظاتي خلال رحلة المرض بالخارج؛ لأنني أحسست بالبهدلة وصعبت عليَّ نفسي؛ حيث فقدت السيطرة على ما يحدث لي، وأصبحت ضعيفة لا حول لي ولا قوة بعد أن كانت حياتي تحت سيطرتي، أو كنت أظن ذلك، ثم فجأة أصبت بمرض لم أكن أتصور إطلاقا أن أقع في براثنه، وعندما حدث ذلك لم أفهم لماذا أصابني، وظللت أفكر بيني وبين نفسي عن مصيري، وهل يعرف شريف شيئا لا أعرفه ويخاف أن يخبرني لئلا أنهار، وأخذت أتذكر كل قصص السرطان التي سمعتها ومصير أصحابها المحتوم، وأخذت تتراءى لي صور مرضى السرطان التي أراها في الأفلام الأجنبية، وكيف يذوون ويضمحلون بمرور الوقت، بينما يتعذب مَن حولهم بعذابهم الجسدي والنفسي،

وأخذت أفكر، هل ذلك هو قدري الذي لا مهرب منه؟ وماذا سأفعل في القادم من الأيام؟ وكيف سأقاوم وأحتمل؟ وهل هذه المقاومة ستُجدي في قهر المرض، أم أن كل ذلك مجرد تضييع للوقت، وأن السطور الأخيرة في حياتي قد كُتبت بالفعل؟ ظلت هذه الأفكار تراودني حتى وصلنا بعد ساعات طويلة صعبة إلى مطار القاهرة.

وتوقعت أن أجد في انتظارنا ابنتي مها، وأخذت أفكر كيف ستتصرف في أولادها حتى تستطيع أن تأتي إلى المطار، ومع مَن ستتركهم في هذا الوقت من المساء، وكانت هي قد اتفقت مع شركة الاستقبال الخاصة بالمطار حتى تسهل علينا الإجراءات، وفعلا وجدنا مندوبا للشركة في انتظارنا، وكرسيًا متحركًا لأجلس عليه، وفي هذه المرة أيضا كنت محرجة من استخدامه، ولكنني استسلمت لعدم قدرتي على السير معتمدة على نفسي بسبب ساقيّ اللتين لم تكونا قادرتين على حملي، ودخلنا صالة الانتظار إلى أن ينتهوا من

استلام الحقائب، وعندما دخلت الحمّام هناك، ووجدت به شطاف الماء، شعرت بالراحة، بالرغم من أن هذه تفاصيل بسيطة نسبيًا، ولكنني أتصور أن كثيرين يفتقدونها عند السفر للخارج! المهم، سندتني سلمى في الوصول للحمَّام ثم ساعدتني بإمساك ذراعي لأعود إلى صالة الانتظار.

ما لفت نظري حينئذ أنه منذ دخولي المستشفى لم أكن أرى نفسي في مرآة كاملة الطول على الحائط، فلم أدرك مدى التغير في وزني، رغم أنني عرفته من عملية الوزن التي يقوم بها مَن بالمستشفى، ولكنني لم أدرك تأثير ذلك على مظهري الخارجي، الشيء الوحيد الذي لاحظته عند خروجي من المستشفى هو أنني لبست البالطو لأول مرة بعد ٤٢ يوما، فلاحظت أنه قد أصبح واسعا جدًّا، والمرة الأولى التي رأيت صورتي الكاملة كانت في مطار القاهرة. المهم أنه بعد قليل من الانتظار حضروا لإخبارنا بأنه قد تم إحضار الحقائب، وكل شيء جاهز للخروج، فاتجهنا للباب الخارجي،

وبدأت عيناي تمتلئان بالدموع رغما عني؛ تأثرا بأنني أعود للقاهرة في هذه الحالة المرَضية المتدهورة، جالسة على كرسي متحرك، وأيضا تأثري بأنني سأرى مها ابنتي وأحفادي الثلاثة وشقيقاتي العزيزات وزوجَي ابنتيَّ سامح وعلاء قريبا.

وذهلت عند اقترابي من أبواب الخروج الزجاجية في المطار، حين رأيت ابنتي الحبيبة مها واقفة تلوح من ورائه، ومعها حفيدي الحبيب علي ذو السبع سنوات يلوّح لي، إضافة إلى أخواتي زينب، ومها وابنتها نهى، ومنال وابنتها مديحة، كلهم يلوحون لي من وراء الزجاج وهم يحملون الورود والبالونات التي تحمل عبارات الترحيب، وهنا انهرت في البكاء وأنا محاطة بهذه المشاعر الدافئة من الجميع، وحمدت الله على عودتي إليهم أخيرا، واحتضنت وأنا جالسة ابنتي مها وعلي، ثم أحاطتني أخواتي الحبيبات اللاتي انحنين لتقبيل يدي، وهذا لم يحدث بيننا من قبل، وكان مقصورا على الوالدة والوالد رحمهما الله، ولكنه كان في هذه

اللحظة تعبيرا صادقا عن المحبة الغامرة بيننا وفرحتهم برجوعي إليهم بعد هذا الغياب الطويل، وازداد تأثري وحزنت لأنني لا أستطيع الوقوف لتبادل السلام مع الجميع بسبب ضعفي، وكان الجو باردا ليلا خارج مطار القاهرة في الأسبوع الثاني من ديسمبر، فطلبت مني أخواتي الإسراع في الذهاب إلى المنزل حتى لا أصاب بالبرد؛ نظرا لضعف مناعتي، على أنا أراهم غدا، وفعلا ركبت السيارة التي يقودها شريف وبجانبه سلمى، بينما جلست مها وعلي إلى جواري في الكنبة الخلفية لمزيد من الراحة بالنسبة لي، وبدا الطريق طويلا حتى منزلنا بالمعادي في القاهرة؛ نظرا لإجهادي الشديد وغثياني المستمر منذ ساعات.

عندما وصلنا أخيرا إلى باب المنزل، كان كل ما أفكر فيه هو صعود السلالم للطابق الثاني والاستلقاء في سريري، وهنا ظهرت مشكلة خطيرة وهي عدم قدرتي على الصعود، فساعدتني البنتان على ذلك خطوة خطوة حتى وصلنا إلى غرفة

نومي، وانشغل شريف في الإشراف على حمل الحقائب للدور الثاني، بينما ساعدتني البنتان على ارتداء ملابس النوم العادية لأول مرة منذ ٤٢ يوما والاستلقاء على فراشي الذي بدا لي منخفضا جدًّا مقارنة بسرير المستشفى، واتصل شريف بطبيبي حتى نعالج مشكلة الغثيان، فتساءل الدكتور تامر لماذا لم نستخدم الدواء الذي كنا نستخدمه بعد كل جلسة في القاهرة، واندهش من إصراري على السفر بعد جلسة العلاج الكيميائي المكثفة بألمانيا بيومين فقط، وقال إنني كنت أحتاج لفترة من الراحة بعد تلك الجلسة، وشرح له شريف أنني صممت على ذلك.

وبذلت البنتان أقصى جهد لراحتي في غرفة نومي ووضعتا حلقات فريندز (Friends) الكوميدية التي أحبها، حتى تساعدني على النوم، وأخذت أدويتي المقررة والدواء المنوم الذي كنت أتناوله في المستشفى ونمت نوما متقطعا في ليلتي الأولى في سريري الخاص بمنزلي، بعد غياب طويل،

واستيقظت أكثر من مرة متسائلة أين أنا، في ألمانيا أم عدت إلى القاهرة! وكنت أشعر بالارتياح الداخلي عندما أتحسس ملاءات سريري، وقمت أكثر من مرة للذهاب إلى الحمّام مستندة إلى الحوائط بسبب خطواتي المرتعشة، ثم أعود للفراش وأشاهد حلقة كوميدية لاستدعاء النوم.

في اليوم التالي استيقظت أيضا غير مدركة أين أنا، وفي أي سرير أرقد، وعندما أدركت أنني في منزلي ساورني شعور مريح، وتصورت أن أيام العذاب والإجراءات الجراحية قد انتهت بلا رجعة، وأنني يجب، كما قال الدكتور الألماني الشاب، أن أتذكر أن مشكلتي الخطيرة وهي إصابتي بهذا النوع القاتل من السرطان ما زالت قائمة ويجب أن أواجهها، وكان قد بقي لي أسبوعان قبل جلسة العلاج الكيميائي التالية ويجب قبلها أن نحسم أمرنا فيما إذا كنا سنتبع الطريقة الألمانية من أخذ ٣ جرعات مكثفة في جلسة واحدة، وبالتالي تتبقى لي جلستان مكثفتان فقط، بين كل منهما ثلاثة أسابيع،

أم سنعود إلى النظام القديم الذي يستلزم أخذ جلسة كل أسبوع، وبهذه الطريقة يتبقى لي ست جلسات.

بعد ساعات قليلة أخبرتني البنتان اللتان حضرتا مبكرا أن غرفة المعيشة القريبة من غرفة نومي قد امتلأت بالأحباء؛ مها وزوجها عاطف، وابنتهما نهى مع ابنتها ليلة وزوجها حسين، ومنال وزوجها نبيل وأبنائهما عصام ومديحة، وشقيقتي زينب، طبعا إلى جانب سلمى وزوجها علاء وحفيدي فريد، ومها وزوجها سامح وحفيديَّ علي وشريف، وهذه لحظة انتظرتها طويلا، وتشوقت لحدوثها لأنها تعني أنني قد أصبحت بين الصحبة التي أحبها وأطمئن إليها وأسعد بها، وأنني بذلك سأحصل على الدعم المعنوي الذي أحتاجه بشدة في تلك الأيام وسأسمع الكلمات التي تشد من أزري وتمنحني الثقة اللازمة لاستئناف كفاحي ضد هذا المرض الذي يحاربني في صمت داخل جسدي.

قمت من الفراش بمساعدة البنتين لتغيير ملابس النوم بملابس أخرى استعدادا للقاء، وللمرة الأولى بعد مرور شهرين تقريبًا، وعندما نظرت لوجهي في مرآة الحمّام؛ الذي يدخله ضوء شمس القاهرة، هالتني كمية الشعر التي بدأت في التساقط من مجرد تمرير الفُرشاة في رأسي، وكان ذلك نتيجة لأخذ الجلسة المكثفة للعلاج الكيماوي في ألمانيا دون ارتداء غطاء الثلج الذي كنت أستخدمه في القاهرة، حيث أفاد الألمان أنهم لا يستخدمون هذه التقنية التي أكرهها شخصيا رغم فوائدها في حماية الشعر من السقوط.

وتحاملت على نفسي للسير من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، ودخلت عليهم مشحونة بالعواطف الجياشة وتمتلئ عيناي بالدموع من التأثر لرؤية الجميع بعد هذه المدة الطويلة، ونزلت دموع أخواتي إشفاقا على مظهري الضعيف بعد فقدان أكثر من ١٤ كيلو منذ لقائنا الأخير، ومن طريقة سَيري البطيئة واضطراري للاستناد على ذراع

شريف لمنع تعثري وحمايتي من السقوط؛ إذ كانت مشيتي ليست متزنة بعد، نتيجة للعلاج والإجهاد، وأعطى عاطف ملاحظاته بشأن عدم تقبيلي على الوجه تحسبا لنقل أي عدوى ولو بسيطة نتيجة لضعف مناعتي، وفعلا التزم الجميع بذلك وقبّلت أخواتي يدي بمشاعر جميلة، بينما قبّل الباقون رأسي، وكانت جلسة مليئة بالشجن والدموع لأنني كنت أتأثر عند الرد على الأسئلة التي تتعلق بفترة المضاعفات التي حدثت في المستشفى، وكانت شقيقاتي ينظرن إليّ بتعاطف شديد غير مصدقات أنني قد عدت بالفعل إلى القاهرة بسلامة الله.

استمرت هذه الجلسة الدافئة المليئة بالمشاعر لفترة طويلة، ولكنني كنت أحس أنني في عالم آخر، أشاهد الجالسين حولي وكأنني في فيلم سينمائي ليس لي دور فيه، وإنما أقوم بدور المتفرج الذي لا يشارك في الأحداث، وأستمع إلى النصائح دون القدرة على المشاركة في الحديث كما كنت قبل السفر، ولكنني ظللت أومئ برأسي تصديقا على كل

ما يقال مع ابتسامة محايدة في بعض الأحيان ودموع ساخنة في أحيان أخرى، وعند مغادرة الأحباء ساعدتني البنتان في العودة إلى فراشي ومراجعة جرعات الأدوية، وقام شريف بطلب الأجزخانة ليطلب الأدوية الناقصة بعد التشاور مع الدكتور تامر النحاس.

وهنا وجدت سلمى وزوجها علاء يقفان بجانب الفراش وعلى وجهيهما ابتسامة جميلة ليمنحاني أجمل مفاجأة؛ بأنهما ينتظران مولودًا جديدًا، ونزلت دموع الفرحة من عينيّ، وقبّلتهما بسعادة، داعيةً الله سبحانه وتعالى أن يُنعم علينا بحفيدة جديدة، وأخذت أدعو الله في سِري أن يُطيل عمري حتى أراها وأحضر ولادتها في غرفة العمليات كما فعلت مع جميع الأحفاد، وظلت تلك هي دعوتي الأولى منذ ذلك اليوم إلى أن أشرقت الأميرة الصغيرة على حياتنا بسلامة الله بعد ثلاثة أحفاد من الذكور.

ونِمت في تلك الليلة سعيدة لأول مرة منذ شهور.

بينما أستمع مغلقة العينين إلى صوت أحد الأفلام الأجنبية ليُسليني، وأحمد الله حمدًا كثيرًا على هديته الغالية.

في الأيام التالية على الوصول من الخارج سارت الأمور على نمط واحد؛ نوم قليل ليلا وصعوبة في النوم على أي من الجانبين بسبب الآلام المبرحة، واستيقاظ مبكر، وتناول الأدوية، ولكن مع استمرار فقدان الشهية للطعام أيا كان، مع وجود حالة أخف من الغثيان نتيجة لتناول الأدوية المخصصة لذلك، وبعد ضغط ومحاولات كثيرة من شريف والبنتين بدأت أنتقل من رقدة الفراش إلى رقدة الكنبة في غرفة المعيشة التي تطل نافذتها على الحديقة بعيدا عن الشارع، والحقيقة أن شريف قد بذل أقصى جهده لمحاولة تحقيق الراحة لي في رقدتي بداية من وضع الوسائد وراء ظهري وحتى رفع قدميّ للأعلى لتخفيف آلام الجرح.

واستمرت البنتان في القدوم يوميا مع أولادهما

للجلوس معي بعد انتهاء عمليهما، وكذلك واظبت شقيقاتي على زيارتي يوميا ومحاولة رفع معنوياتي، حيث إنني كنت ما زلت أحس بنوع من الانفصال عن العالم الحقيقي حولي، فبعد العملية وتعقيداتها والإقامة الطويلة في نفس الغرفة بالمستشفى بدأت أحس بعد العودة إلى القاهرة بغربتي عما حولي، وكأني أشاهد الأحداث دون أن أساهم فيها، ولم تعد لديّ رغبة في الحديث، وكنت أجلس في معظم الأحوال صامتة وأتحرك ببطء وكأنني شبح، خاصة بعد فقدي حوالي ١٤ كيلو جرامًا من وزني، كما يبدو أن إزالة المناطق المصابة بالسرطان داخل جسدي قد تركت الفراغ الذي تحدثت عنه الطبيبة البريطانية داخل منطقة البطن، والذي برغم عدم إدراكي له من الناحية الحسية فإنه كان يعطيني إحساسًا نفسيًّا غريبًا، وفي ذات الوقت كنت أحس باضطرابات غير مفهومة داخلي بررها البعض باستمراري في أخذ جرعة كبيرة من المضادات الحيوية لفترة تزيد على الشهرين بصفة

مستمرة.

وجاء موعد الجلسة التالية من العلاج الكيميائي، وذهبنا إلى الدكتور تامر النحاس بعد غياب شهرين تقريبًا، وقد قابلَنا بالترحاب المعتاد والابتسامة المتفائلة، واستمع إلى تفاصيل قصتي عن الجراحة، وقد كان شريف على اتصال مستمر معه للتشاور ونحن في ألمانيا، وتناقشنا في أسلوب استئناف العلاج الكيميائي حيث أخبرناه بتفضيلنا الطريقة الألمانية بأن آخذ الجلسات الست المتبقية في جلستين فقط، كل جلسة منهما تضم ثلاث جلسات مكثفة، واتفقنا على ذلك بالفعل، كما أبدى الدكتور تامر ملاحظته على فقداني للوزن، ونصح بمحاولة تناول قدر أكبر من الطعام الصحي لمكافحة أثر العلاج على جسدي، وأكد مرة أخرى على أهمية شرب كميات كبيرة من المياه، وطمأنني على أن التقارير والأشعات التي أحضرناها من ألمانيا تدل على أن العملية قد تمت بنجاح، وأن المضاعفات التي حدثت هي سوء حظ لا أكثر.

وعندما ذهبنا إلى غرفتي المعتادة لتلقي العلاج أتتنا إحدى طبيبات التغذية لقياس الوزن وكتلة العضلات في الجسم، حيث أفادت أن الدهون في الجسم في المعدل المقبول، ولكن المشكلة كانت في العضلات التي فقدت أكثر من ٥٠٪ من كتلتها، وهذا ما يسبب إحساسي بالضعف وعدم القدرة على السير أو الحركة، ولذلك كان يجب أن أمشي على الأقل لمدة ٣٥ دقيقة يوميا، وأتناول غذاء صحيا مليئا بمضادات الأكسدة والألياف والبروتينات، وكتبت لي إضافة إلى ذلك مكملا غذائيا شبيها بما يأخذه الأطفال، وقد مرت الجلسة كالعادة، ولكن تأثيرها عليّ كان بالغ السوء في الأيام التالية بسبب ضعفي وتكثيف علاج ٣ جلسات في جلسة واحدة.

واستمرت رقدتي لأيام طويلة في المنزل مع محاولات غير ناجحة سواء لتناول الطعام أو المشي على الجهاز الرياضي المخصص لذلك، وظلت معنوياتي منخفضة بسبب عدم القدرة على التحرك

بسهولة، ولكنني كنت أحمد الله يوميا وأشكره على نجاتي من العملية والعودة إلى منزلي بين مَن أحبهم، وفي وسط كل ذلك بدأت تأتيني نوبات دوار وفقدان توازن شديدة، فأصبحت غير قادرة على رفع رأسي من على الوسادة، وإذا حركتها وأنا راقدة يمينا أو يسارا أحس بدوار شديد وكأن الغرفة تنقلب بي رأسا على عقب، فأضطر إلى إغماض عينيّ عند أي حركة ولو كانت بسيطة، وبالتالي كان لا بد أن يسندني أحد عند القيام لحفظ توازني، وقد كتب الطبيب دواء لمعالجة هذه الحالة المزعجة التي استمرت لأيام كثيرة لأسباب غير محددة سوى كونها الآثار الجانبية السلبية للجراحة والعلاج الكيميائي معًا.

بدأت الأيام تمر بتثاقل شديد حتى نهاية ديسمبر ٢٠١٦، وكأن هذه السنة الثقيلة المحزنة ترفض أن تغادرني بكل السوء الذي حدث لي فيها، وأصبح برنامجي اليومي هو التنقل بين الفراش وبين الكنبة في غرفة المعيشة حيث أداوم النظر إلى الأشجار

بأوراقها الخضراء والعصافير الصغيرة تتنقل على أغصانها، وأحيانا يحالفني الحظ وأجد أمام عينيّ هُدهدًا جميلا يبعث على التفاؤل، وفي هذا الوقت من السنة، وبينما تهتز أوراق الأشجار تحت تأثير رياح الشتاء كنت أتذكر نهايات الأفلام العربية القديمة حينما يخبر الطبيب عائلة فاتن حمامة أنها ستعيش إذا صمدت حتى بداية الربيع.

ظللت أنظر إلى نفسي وإلى المناظر المتكررة من النافذة وانفصالي عن العالم الخارجي وكأنني في كبسولة زجاجية تتحرك في مدار منفصل عن العالم الواقعي، فأنا لا أخرج إلى الشارع ولا أشاهد الناس يسيرون ويركبون المواصلات أو يجلسون في الكافتيريات، بل أجلس في مكاني ساكنة ضعيفة ليس لديّ شهية لتناول الطعام ولا للقيام بأي نشاط، وكأني مستسلمة لمصير محتوم لا أستطيع الوقوف في وجهه، وليس لديّ الطاقة لمقاومته، وفاض بي من تناول العقاقير التي أضيفت لها مقويات جديدة ودواء آخر لرفع الحالة المعنوية بينما فقد الطعام

والشراب أي طعم، بل أصبحت بفمي مرارة مستمرة.

تذكرت هنا أن الكثير منا قد لا يستطيع تحقيق كل أحلامه الكبيرة بشأن حياته الشخصية أو مسيرته المهنية، بسبب ظرف أو آخر، ولكننا جميعًا لدينا أحلام تتدرج في الحجم لتصغر رويدًا رويدًا حتى تصل إلى خط الدفاع الأخير عن تصالحنا الشخصي مع ذواتنا والحفاظ على توازننا النفسي بغرض دعم قدرتنا على الاستمرار دون الانهيار بشكل أو بآخر، وخط الدفاع هنا هو منطقة «المُتع الصغيرة» المقدور عليها؛ فنجان كاكاو ساخن، فيلم رومانسي أو أكشن، طعمية سُخنة وعيش صابح وكُباية شاي بلبن، لقمة القاضي على أصولها غرقانة في الشربات بتاعها، قعدة أمام البحر ساعة الغروب والسرحان في اللاشيء، دردشة مع الأصدقاء وضحك من القلب، فيلم عربي قديم، كتاب جديد، أغاني أم كلثوم وعبد الحليم، موسيقى محمد فوزي، الجلسة أمام النيل ومراقبته طويلًا في تدفقه نحو المصب، حفلة للموسيقى العربية، دفن

القدمين في رمال الشاطئ الرطبة تحت نقحة الشمس بعد يوم طويل، مباراه كرة للنادي الأهلي أو الفريق القومي، شوية بطيخ ساقع وحتة جبنة بيضاء، كوب ماء ساقع بعد صيام يوم حار في الصيف، صوت البنات المُشرق على الهاتف، سعادة الأحفاد ببرامج الأطفال، الدخول من حر الشارع فى أغسطس إلى برودة الغرفة المكيفة، دُش منعش تحت مياه متدفقة، غُطس فى ماء البحر الصافي أو فى البيسين إن وجد... إلخ إلخ، هذه جميعًا مصادر جميلة وصغيرة ومتنوعة للبهجة الوقتية في حياتنا اليومية، وبغيرها تُصبح الحياة جافة ويصعب احتمالها بمتاعبها الرئيسية ومشاكلها المتكررة، وجميع هذه المُتع مع اختلاف أولوياتها وأهميتها وتأثيرها في مسار حياتنا، فإن لها سحرها الخاص وتألقها وفقًا للظروف المختلفة، ولكننا جميعًا مطمئنين لوجودها بشكل أو بآخر، وأنه يمكن الاعتماد عليها لتغيير مسار اللحظة الراهنة إذا كانت ثقيلة على النفس ويصعب احتمالها، وسوف تدرك

أهمية كل هذه النعم الكثيرة في اليوم الذي تعجز فيه عن فعلها ولا تستطعمها ولا تتطلع إليها، وتدعو الله أن يُنعم عليك بالقدرة على القيام بأبسطها، وهذا ما يَحول دونه المرض.

في تلك الأيام أصابتني حالة شديدة من التعرق في شعر الرأس في عز الشتاء، وفي البداية افترضت أنها مجرد عارض مؤقت من أثر الجلسات وسيزول، ولكنه استمر وزاد حتى أصبح العرق يُغرق الوسادة ويحتاج الأمر إلى وضع منشفة عليها حتى تمتصه طوال الليل، وبحثت مها في صفحات الخبرات المتراكمة لمريضات السرطان فوجدت أن بعضهن يستخدمن المراوح الكهربائية بجانب الفِراش، بينما وصف البعض الآخر وجود نوع من الوسائد المبردة للتغلب على هذه الظاهرة المزعجة، فبينما يرتعش الجسم من البرودة في عز الشتاء يتصبب العرَق من الرأس في تناقض يثير الدهشة، والسرطان هكذا يفاجئك بأعراضه الجانبية كل يوم، ومعظمها ليس له علاج ناجع، وإنما تضطر

للاستسلام له حتى يختفي في وقته المحدد ليظهر غيره في صورة جديدة.

وبالتجربة والقراءة، فإن هناك أعراضًا عامة للسرطان كفقدان الوزن، والتعب والإرهاق العام، وفقدان الشهية، والتعرق؛ خصوصًا أثناء الليل، بينما الأعراض العضوية فتتمثل في ظهور كتلة صلبة أو تغيرات في شكل سطح الجلد الخارجي، إضافة إلى أعراض تدل على الانتشار؛ كحدوث تضخم في الغدد الليمفاوية المختلفة في الجسم أو في الكبد أو كوجود ألم في العظام، ولكنني، على سبيل المثال، لم أعانِ من أيٍّ من هذه الأعراض قبل اكتشافي المرض بالمصادفة من خلال تحليل دلالات الأورام، ولكني لاحظت بعد ذلك بعض الضعف في الإبصار والإرهاق المستمر عند الحركة وصعوبتها في بعض الأحيان، وهذا مستمر حتى الآن.

أخذت أُصبر نفسي بأنني بمرور الأيام سأسترد قوتي وأنتقل إلى مرحلة أخرى أعود فيها إلى

شخصيتي التي أعرفها ويحبها مَن حولي، فكنت كل صباح أردد بداخلي إن هذا يوم جديد وربما يجلب خيرًا لا أعلم عنه شيئا، وفي أحد تلك الأيام المتكررة، التي كانت حرارتي فيها تتأرجح صعودا وهبوطا لسبب غير واضح بالرغم من استمراري في أخذ جرعات مكثفة من المضادات الحيوية، دخلت الحمّام صباحا لأجد ملابس النوم ملوثة بالدماء والصديد، وعندما نظرت إلى مكان العملية وجدت ما يشبه ثقبا صغيرا تتدفق منه هذه الإفرازات، وبطبيعة الحال أصابني رعب شديد لعجزي عن تفسير ما يحدث لي بعد انتهاء الجراحة بفترة طويلة.

أجرينا التحاليل اللازمة وذهبنا إلى أحد كبار الجرّاحين الذين أثق فيهم وأرتاح لهم؛ وهو الأستاذ الدكتور الجرّاح عادل حسني الذي أنقذ حياتي سابقًا عند إصابتي بجلطة الوريد المعوي العلوى بالمعدة، وقد قام بتنظيف الجرح في عيادته وأضاف مضادًا حيويًا جديدًا لمدة عشرة أيام، ومع

ذلك فقد استمرت الحرارة في الارتفاع خلال الأيام التالية، حيث تبدأ متوسطة الارتفاع في الصباح وحتى الظهيرة، وبعد ذلك يزيد ارتفاعها حتى تصل إلى ٣٩ درجة مئوية ليلا، لدرجة أنني أصبحت أخشى قياس الحرارة كي لا أصدم بارتفاعها، وبعد أن مرت فترة العشرة أيام دون انخفاض درجة الحرارة؛ رغم الغيار مرتين يوميا على الجرح الجديد، زارني د. عادل حسني بالمنزل لمراجعة حال الجرح ثم قرر إدخالي غرفة العمليات لتنظيف هذا الجرح، مع إعلامنا بمخاطرة بطء التئام الجرح بسبب تناولي العلاج الكيميائي، وقد أخبرنا أنها يمكن أن تتم ببنج موضعي، ولكنني رفضت تمامًا وأكدت على أنني لست على استعداد أن أتحمل أي قدر من الألم بعد كل ما مررت به، وصممت على البنج الكلي، ووافق الدكتور عادل على ذلك استجابة لرغبتي.

واتجهنا إلى مستشفى السلام بالمعادي، وكنت أتألم لدرجة أنني ارتديت البالطو على ملابس النوم

لعدم قدرتي على تغيير ملابسي، وجلست في صالة استقبال المستشفى حتى انتهاء إجراءات الدخول وأنا لا أصدق أنني سأدخل غرفة العمليات مرة أخرى حتى ولو كان لجراحة بسيطة، فقد كرهت المستشفيات وروائحها ومناظر الأدوية والبلاطي البيضاء، ناهيك عن غُرف المرضى. صعدت للغرفة المخصصة لي، وبعد أن أجرت الممرضات الكشوف اللازمة قبل العملية ارتديت رداء غرفة العمليات، وأخذتني الممرضات إلى جناح العمليات انتظارا لدخولي للجراحة، وهناك فوجئت بعد قليل بدخول شريف وأحد أقاربه من أطباء التخدير بالمستشفى وقد أتيا لطمأنتي، وبعد خروجهما أخذت أتأمل منظر النيل الواسع من النوافذ المتسعة وأدعو الله أن يخرجني من غرفة العمليات على خير.

* * *

ما لاحظته هنا، في واحدة من أفضل مستشفيات القاهرة إذا كنا في مقارنة مع ألمانيا (بالرغم من

اعتيادي على الوضع في القاهرة وتقبلي له سابقًا) أن مسألة التمريض بها كثير من الجوانب التي نحتاج لرفع كفاءتها بصورة عاجلة؛ فاستخدام أطقم التمريض لأجهزة التلفون المحمول في غرف الانتظار أو الإفاقة داخل جناح العمليات يُنظر إليه بوصفه شيئًا اعتياديا وغير مستهجن، كما أن دخول أفراد الأمن لمنطقة جناح العمليات لطمأنة أهل المريض من خلال التحدث مع الممرضات لا يلفت نظر أحد كتصرف خارج عن اللوائح والنظم، وبما أن المريض في مصر، عكس ألمانيا، يدخل إلى جناح العمليات ثم غرفة الجراحة مستيقظًا وواعيًا لكل ما يحدث حوله، فهو يشاهد كل ذلك بنفسه ويتعود عليه بعد فترة، وربما يضحك منه دون اعتراض عليه، ناهيك عما نعرفه جميعًا من ضرورة «مكافأة» ممرضات الغرف مع كل حركة، وهذا ينطبق على جميع مستشفيات مصر لأنه أصبح ثقافة مجتمعية متوافقًا عليها بين الأطراف المعنية، ويمثل تعديلها تحديًا حقيقيًا لإدارة أي مستشفي في مصر، بالرغم

من أن معظمها يُعلق لافتات تمنع ذلك قطعيًا، ولكن كما هي العادة، فالغُرف والمصالح الشخصية المتشابكة أقوى من القانون، بدليل أن الممرضات الأجنبيات الموجود بعضهن في الكثير من المستشفيات لا يقبلن تلك «المكافأة»، وإن كان انضباطهن قد بدأ يتأثر سلبيًا بما يدور حولهن!

من جهة أخرى تجد الأطباء في إنجلترا وألمانيا قد أشادوا بجميع الفحوصات والأشعات والتحاليل وبروتوكولات العلاج التي وضعها الأطباء المصريون، وأنا هنا بالطبع أتحدث عن حالتي بالذات، ولكن مجرد الأداء الممتاز للأطباء النابهين في مصر لا يكفي بمفرده لتطوير المنظومة الطبية بشكل متكامل دون أن تكون العناصر الأخرى على نفس المستوى من المهنية والكفاءة، وأنا بطبيعة الحال لست من المتخصصين في هذا المجال، ولكن انطباعاتي هي نتيجة لتجاربي الشخصية كمريضة، وللفترة التي قضيتها وأنا أعمل في إحدى المؤسسات العلاجية.

* * *

بعد انتهاء العملية استيقظت كالعادة في غرفة الإفاقة بجناح العمليات، ثم تم نقلي إلى غرفتي بمصاحبة شريف، حيث كانت ابنتاي وأحفادي وشقيقاتي في انتظاري بها، وبعد ابتسامي لهم عند رؤيتهم استغرقت في النوم بسبب تأثير البنج الكلي، وعندما استيقظت كان بعضهم ما زال موجودًا، وقد قضيت الليلة بين قياس المؤشرات الحيوية ومرور الممرضات والطبيب المناوب، وعندما استيقظت صباحًا أخبرت شريف أنني أريد المغادرة في أسرع وقت ممكن والعودة إلى المنزل في محيطي الآمن، وفعلا بعد مرور الطبيب المساعد للدكتور عادل حسني وإعطاء التعليمات بشأن كيفية التغيير على الجرح غادرنا المستشفى إلى المنزل بأمل كبير في انخفاض الحرارة بعد تنظيف مكان الجرح من التلوث.

استمررنا بعد العودة إلى المنزل في التغيير على

الجرح بعناية ودقة، وصمم شريف على القيام بهذه المهمة بنفسه، ورفض الاستعانة بممرضة حرصًا منه على الالتزام الدقيق بمواعيد التغيير كما حددها الطبيب، ثلاث مرات في اليوم، كما كان هناك مضاد حيوي قوي يجب أن آخذه في محلول يعلق على عمود معدني وأتناوله من خلال أنبوب بلاستيك متصل بالبورتوكاس، فأحضر شريف ما يستلزم ذلك في المنزل وتولى حقني به مرة يوميا. وبالرغم من كل هذه الجهود لخفض الحرارة لمدة عشرة أيام أخرى، وكنا قد دخلنا في العام الجديد (٢٠١٧) فإننا فوجئنا بظهور فتحة أخرى، تحت الثقب الأول بنفس المكان، وبالتالي أصبحت المشكلة أكثر تعقيدا، واستمرت درجة الحرارة مرتفعة في عز الشتاء، وكان ذلك أمرا مزعجا جدًّا، إضافة إلى الجرعات المكثفة من المضادات الحيوية، ولذلك قرر الدكتور عادل دخولي غرفة العمليات للمرة الثانية بعد مرور أقل من أسبوعين على المرة الأولى بهدف تطهير الجرح وفتحه بدرجة أكبر؛ لتنظيف

الثقيبين معا من التلوث، وفعلا تم ذلك. وكان القلق هنا هو إمكانية انتشار التلوث في الشبكة السابق تركيبها منذ سنوات في البطن بسبب فتق أجرينا له عملية جراحية، ثم قام الجراح الألماني بقص هذه الشبكة أثناء الجراحة الأخيرة، وكان التلوث قد امتد إلى أطراف هذه الشبكة المقصوصة في الجرح المفتوح.

وبعد الخروج من المستشفى استأنفنا التغيير على الجرح مرتين يوميا، واستمر ذلك منذ يناير ٢٠١٧ وحتى يوليو من نفس العام، إلى أن قارب الجرح على الالتئام في شهر أكتوبر، وقد أكد د. تامر النحاس أن العلاج الكيميائي الذي أتلقاه يبطئ إلى درجة كبيرة من التئام الجروح؛ ولذلك يجب أن أتحلى بالصبر انتظارا لذلك، وقد نصح الأصدقاء بالكثير من الوصفات المجربة للتعجيل بالتئام الجرح الذي كان منظره مخيفا لكبر حجمه وعمقه الذي يكاد يسع قبضة اليد، ومن هذه النصائح وضع ملعقة صغيرة من العسل الأبيض النقي في داخل

الجرح؛ لأن العسل يكوّن بيئة ضد الميكروبات، وأعتقد أن ذلك قد ساهم فعلًا في الإسراع بالالتئام بعد هذه الأشهر الطويلة جدًا.

وأعترف هنا أنني في تلك الأيام كدت أفقد الأمل في استئنافي للحياة الطبيعية، حيث كنت أخرج من مشكلة طبية لأقع في مشكلة أخرى، حتى آمنت أنني قد دخلت في سلسلة من التعقيدات الطبية التي تقود الواحدة منها إلى الأخرى في دائرة مغلقة لن أخرج منها أبدا بسلام، فقد أصبحت أدخل وأخرج من المستشفيات دون إرادتي، مُسلّمة أمري لله، وفقدت القدرة والرغبة في مناقشة الأطباء، وأحسست كأنني أركب طوفًا خشبيًا سابحًا على سطح المياه في محيطٍ أمواجه أحيانًا هادئة وأحيانًا أخرى هادرة بحيث تهدده بالغرق، وأنا على سطحه لا حول لي ولا قوة.

فقد كنت أدخل غرف العمليات وعلى وجهي ابتسامة شاحبة، وأستمع لنقاش الممرضات وصغار

الأطباء حول إجراءات التجهيز والعمليات انتظارا لقدوم الجراح، ثم يتم تخديري، وهذه عادةً أفضل أوقاتي؛ لأنني بعدها أفقد وعيي حتى ينتهي كل شيء وأعود لغرفتي لأفتح عينيّ على وجوه الأحباء المبتسمة، والمشجعة، وقد تكررت هذه العملية مرتين بعد وصولي إلى القاهرة؛ بسبب تلوث الجرح، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعايش فيها تجربة الحياة لشهور طويلة بجرح كبير مفتوح، كلما نظرت إليه أحسست بالخوف من شكله، وتساءلت هل سأُشفى منه في يوم من الأيام؟! وكيف سيلتئم وهو بهذا الطول وهذا العرض؟! ولكن هذا ما حدث ببطء عبر الشهور الطويلة. والجانب المَرِح في الموضوع، إذا كان المَرَح واردًا هنا، هو أن هذا الجرح المرعب الواقع في منتصف المعدة قد أصبح محور اهتمام الأحفاد وسؤالهم اليومي عما إذا كانت «الواوا» عند «تيتا» قد خفَّت، وهم لا يرون منه سوى البلاستر الذي يغطيه.

استمر شريف في التغيير على الجرح يوميا

بأقصى عناية واهتمام، وكأنه طبيب بارع، وفي هذه الفترة آلمني حال ابنتيَّ اللتين كانتا تذهبان من منزليهما إلى عمليهما، ثم تأتيان ورائي إلى غرف العمليات والرعاية المركزة قَلِقتَيْن على صحتي وداعمتين لحالتي النفسية، في حين كانت الهواجس تمزقهما حول مستقبل حالتي الصحية، دون أن تعترفا بذلك أو تُظهرا قلقهما لي؛ تجنبا لإزعاجي، فما ذنبهما في هذه المعاناة المؤلمة، وهذا الجو الكئيب الذي تعيشان فيه؟! لقد كنت دائمًا أحاول أن أبعث البهجة فيمن حولي، والآن أصبحت مصدرا للحزن دون أن تكون لي حيلة في ذلك، وإنما هو القدَر الذي لا مهرب منه مهما حاولنا!

ولكن حتى خلال الألم والمعاناة كان الأحفاد الأحباء قادرين على خلق الضحكات بملاحظاتهم الموجعة في براءتها، ففي هذه الفترة و عند استئناف الجلسات العلاجية دون ارتداء بونيه الثلج كما كان يحدث في الجلسات السابقة للجراحة، استمر تساقط الشعر حتى خلا رأسي تماما منه،

وأصبحت محرجة من منظري حتى أمام المقربين، وعندها بدأت في التدرب على ارتداء باروكة الشعر عند ذهابي للعلاج أمام رواد المركز الطبي لخجلي من منظر رأسي الذي ليست به شعرة واحدة، وكنت ألصقها بلاصق داخلي لونه أبيض لعدم وجود شعر على رأسي يمكن أن تركب فيه الأمشاط الصغيرة الخاصة بالباروكة.

ولسذاجتي تصورت أنني يمكن أن أخفي ذلك عن أحفادي! ففي يوم من الأيام كنت أتأهب للخروج مع ابنتيّ والأحفاد الذين طلبوا أن يأكلوا آيس كريم، فدخلت إلى غرفتي للبس الباروكة، وعندما خرجت إلى غرفة المعيشة قال حفيدي علي: تيتا.. هناك شيء أبيض على رأسك، فظننت أنها قطعة من الورق الذي يلعبون به، وقلت له ذلك، فقال لي: لأ يا تيتا دي تحت شعرك، فابتسمت حينئذ حيث أيقنت أن الباروكة قد تحركت إلى الخلف كاشفة عن اللاصق الأبيض، فقلت له إنني مريضة بمرض بسيط، وبسبب العلاج أفقد شعري.

كما كنت أيضا في الزيارات المنزلية أخجل من زوجَي ابنتيَّ عندما بدأ الشعر في السقوط حتى اختفى تماما، ومن المعلوم أن منظر الرجل عندما يفقد شعره يختلف شكلا وتأثيرا على الآخرين عن منظر المرأة، فكنت أحاول أن أغطي رأسي الخالي من الشعر بأي شيء دون نجاح، والوحيدات اللاتي كنت لا أخجل أمامهن هن ابنتاي وشقيقاتي، وضحكت كثيرا ذات يوم عندما نظر إليَّ الحفيدان الصغيران وهما في حضني وقالا متتاليَين: «فين شعرك يا تيتا؟»، ببراءة تليق بعمريهما الصغير ورؤيتهما للأشياء، ولذلك كانت تبدو مسألة الظهور بشكلي الحقيقي مسألة في غاية الصعوبة لأنني كنت أخشى رد فعل الناس واندهاشهم من شكلي، أو حتى عدم التعرف على شخصيتي، وهذا اختبار يهزكِ بعمق، خاصة إذا كان عملكِ له علاقة بالناس.

ولا شك أن تلك الأسابيع كانت قاسية جدًّا، وبدوت خلالها وكأنني أخشى الخروج من منطقتي

الآمنة في المنزل، وأتهيب النزول إلى الشارع ومواجهة الناس وكأنني أتجنب اضطراري للرد على أسئلتهم حول سبب اختفائي الفترة الماضية، وما هو مرضي، وكيف أصبت به، وهل نجح علاجي، وهل أنا قادرة على العمل، وهل يمكن الاعتماد عليّ في قيامي بوظيفتي على الوجه الأكمل، أم أن المرض قد أعجزني عن ذلك؟! وكنت أخشى كل هذه الأسئلة وأخجل من الإجابة عليها وكأنني قد ارتكبت ذنبًا بإصابتي بهذا المرض الخبيث، وأقلق للغاية من رد فعل الناس تجاه أي تغيير في مظهري الخارجي أو سقوط شعر حاجبَيّ وما شابه، ولذلك فإن هواجسي في هذه الفترة لم تتعلق بالجوهر فحسب من خلال أدائي المهني، وإنما تعلقت أيضًا بما يظهر على شكلي الخارجي؛ ولذلك بدأت في التراجع للخلف لا إراديًا؛ محاوِلة التقوقع في المنزل تجنبا لتحقق أيٍّ من هواجسي المتعددة.

وما زاد من سيطرة تلك الحالة على تصرفاتي هو أنني بعد أن بدأت المرحلة الثانية من العلاج

الكيماوي، شجعني طبيبي الخاص وعائلتي على أن أواجه نفسي وأعود إلى نشاطي المعتاد في مجلس النواب. كنا في بداية شهر فبراير ٢٠١٧، وقررت النزول لعملي ومواجهة الناس، وفي صباح أحد الأيام ارتديت ملابس ثقيلة ومعطفا؛ نظرا لبرودة الجو، وحذاء مريحًا منخفضا للمساعدة على حفظ التوازن، واتجهت إلى مجلس النواب، وسار كل شيء على ما يرام حتى وصلت إلى باب الدخول المعتاد، ونزلت بتفاؤل حذر من السيارة مستندة إلى ذراع السائق؛ لأن حركتي كانت ما زالت مهتزة نتيجة للعلاج وضعف العضلات، واتجهت نحو سلم الدخول؛ وهو مكون من ثلاث درجات فقط، فصعدت الدرجة الأولى، ثم الدرجة الثانية، وعندما حاولت رفع ساقي اليمنى لوضعها على الدرجة الثالثة والأخيرة خانتني عضلات ساقي فوجدت نفسي بدون إنذار أسقط على الأرض على ركبتيَّ الاثنتين، ويداي تستندان على السلمة الثانية لحماية وجهي من الاصطدام بالأرض، حدث كل ذلك

في ثانية واحدة لم أستطع فيها أن أسيطر على هذا السقوط المفاجئ الذي أثبت بشكل قاطع أنني لا أستطيع التحكم في حركتي، وأن ساقيَّ أضعف من أن تحملا جسدي المتهالك الضعيف.

تسابق الواقفون عن قرب، بقلوب المصريين المتعاطفة، لمساعدتي على الوقوف بعد معاناة، وبطبيعة الحال فقد أصابني الإحباط بعد فشلي في المحاولة الأولى للخروج وحدي، فعدت إلى المنزل منكسرة الخاطر بعد هذه التجربة التي لم أواجه مثلها من قبل؛ فقد كنت دائمًا قادرة على إدارة حياتي، معتمدة على نفسي، ولم يخذلني جسدي بهذه الطريقة قط، وبعد ذلك اليوم أدركت أن المسألة أكثر تعقيدا مما ظننت، وأن العقاقير التي تعمل داخل جسدي وتدمر الخلايا السرطانية ومعها خلايا أخرى سليمة تؤثر على هذا الجسد سلبيا بأكثر مما كنت أتصور، وقد بدأ ذلك يظهر عليَّ في الحركة ومظاهر أخرى، مثل آلام مبرحة بعظام الظهر وورم في القدمين، مع إحساس بالتنميل

المستمر والألم عند ارتداء الأحذية ومحاولة السير.

هنا ساورني نوع جديد من القلق والهواجس يتعلق بنظرة الآخرين لي ممن يعرفونني عن بُعد، هل سينظرون لي على أنني مريضة ميئوس من شفائها، وبالتالي عديمة القيمة ولا يجب الاعتماد عليها في أي عمل! خاصة وأن مجلس النواب قائم على النشاط الفردي للنائب وقدرته على تقديم مشروعات القوانين واستخدام أدواته التشريعية والرقابية بكفاءة، ومتابعة الأحداث ودراستها وفهمها، وخشيت أن معرفة الناس بمرضي الخطير قد تؤدي إلى تفسير خاطئ بشأن إمكانياتي وقدراتي الشخصية؛ مما يحرمني من ثقة الزميلات والزملاء في قدرتي على مواكبة أعمال المجلس والمشاركة فيها بحماس وإخلاص.

ولكن الحق يقال إنه بعد عودتي التدريجية للحضور إلى مجلس النواب تصميما على أداء واجبي المهني لاحظت بصفة عامة أن النائبات

والنواب كانوا متعاطفين معي دون الدخول في التفاصيل، وإنما اعتمادا على استنتاجاتهم الشخصية من فترة الغياب والتغيرات في مظهري العام، ولم أسألهم بالطبع عن التغيرات التي لاحظوها، خاصة أنني كنت أرتدي الباروكة، وبالتالي فربما تكون ملاحظاتهم، وكلمة حمدًا لله على السلامة، أو كلمة سلامتك، نابعة من مظهري النحيف أو وجهي الشاحب أو غيرهما، المهم أن كل الأعضاء كانوا في غاية التهذيب دون التطرق صراحة إلى حقيقة مرضي، وكأن هناك اتفاقا ضمنيا بيننا؛ مفاده أننا نفهم ما أصابكِ، ولكن لا نريد جرح مشاعركِ أو الإثقال عليكِ بالسؤال عن التفاصيل، ولا نرغب في إحراجكِ بتساؤلات مباشرة عن أمور لا تريدين الإفصاح عنها.

وهنا تذكرت أنه في دور الانعقاد الأول وقف المجلس حِدادًا على وفاة أحد الزملاء لوفاته بعد صراع مع السرطان، وراودني تساؤل هل سيقف المجلس حِدادًا بعد وفاتي، وهل سيكون ذلك قريبا،

وماذا سيُقال عني يا ترى بعد رحيلي؟! ولكنني قلت لنفسي لا تستسلمي يا أنيسة، وإنما يجب أن تقاومي بقدر رغبتكِ في الحياة وأنتِ راغبة في ذلك قطعًا.. وسأنتصر على المرض الخبيث بإذن الله؛ فهذا ما أتمناه وتدعو لتحقُّقِه ابنتاي وشقيقاتي، وأنا لن أُخيب أملهم، ويجب عليّ أن أبذل أقصى طاقتي لأُسعدهم وأسعد معهم كلما استطعت ذلك، وعندما يساورني التشاؤم وأحس بالضعف أحدِّث نفسي قائلة أنتِ قادرة يا أنيسة على المقاومة ولا يليق بكِ أن تنسحبي في صمت دون معركة مع ذلك المرض، بل يجب أن تفعلي ما هو مفروض تجاه نفسكِ وتجاه أحبائكِ؛ فالحياة نعمة كبيرة يجب علينا التمسك بها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ومع كل ما أشعر به استمررت في تناول العلاج الكيماوي كما يقضي به البروتوكول الموضوع، وعندما انتهت الجلسات الست الباقية بدأت في تناول محاليل ما يسمى بالجرعات الوقائية، والتي يبلغ عددها ١٧ جلسة؛ واحدة كل ثلاثة أسابيع، ومن

المُقدّر لها أن تنتهي في يناير ٢٠١٨؛ إذا امتد العمر حتى ذلك التاريخ بإذن الله تعالى، وأنا حاليا مستمرة في تلقي ذلك العلاج، وأتناول سبعة أنواع من العقاقير يوميا، ولكنني لم أسترد طاقتي بعد، وعندما أقوم بمشوارين في اليوم الواحد أشعر بإجهاد شديد وأضطر للراحة في المنزل بعدهما، ولكنني أحمد الله عندما أنظر إلى الوراء وأتذكر أنني بدأت هذه الرحلة في أغسطس ٢٠١٦، وقد مضى أكثر من عام تحسنت كثيرا خلاله، خاصة أنني أجريت تحليل دلالات الأورام بعد عودتي بثلاثة أشهر فوجدت أنه للمرة الأولى قد انخفض إلى المعدلات المقبولة، وهذا التحليل بالذات كنت أخشاه بشدة لأنه دليل نشاط الخلايا السرطانية.

عندما بدأت أشعر بتثاقل قدميّ والإحساس بتنميل وألم في الأصابع وباطن القدمين، وأخذَت الأحذية تؤلمني في ارتدائها والسير بها، أخبرتني شقيقتي مها أن عاطف زوجها قد عانى من نفس هذه الأعراض واحتاج إلى تناول أدوية للتخفيف

منها، ولكنها ما زالت مستمرة حتى الآن، وبالفعل فقد اتصلت بالدكتور تامر النحاس وكتب لي نفس الدواء (Lyrica) الذي يتناوله عاطف، وهذه الحالة أحيانا تشتد حدتها، وأحيانا تخف لأسباب لا أعرفها، ولكنني تعلمت أن أعراض العلاج الكيميائي تختلف من شخص إلى آخر، ويجب علينا قبولها وتعلُّم التعامل معها؛ لأنه ليست هناك خيارات أخرى.

اكتشفت خلال السنة الماضية أن عدد المُصابات بالسرطان من جميع الأعمار أكثر مما كنت أتصور بكثير، ومن جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية، حيث تضاف حوالي ١٠٠ ألف مريضة سرطان جديدة سنويًا إلى عدد المُصابات في مصر، وبعد معرفة التكلفة الباهظة للعلاج من هذا المرض الخطير عن تجربة شخصية أصبحت أكثر تصميمًا على المعاونة في توفير مستشفيات العلاج المجاني لمن لا يستطيع تحمل تكلفته، فهؤلاء يكفيهم ما يتحملون من آلام جسدية ومعنوية، فعلى الأقل نعفيهم من عبء تكلفة العلاج التي لا يستطيعون

دفعها بأي حال، ومعلوم أن هناك مستشفيات شهيرة تقدم العلاج المجاني، مثل ٥٧٣٥٧ لعلاج سرطان الأطفال، ومستشفى بهية لسرطان السيدات، والمعهد القومي للأورام... وغيرها، لكن لا يزال العدد غير كافٍ لتلبية احتياجات العلاج؛ لمحدودية عدد المستشفيات المتخصصة في السرطان فقط.

وتتوقع منظمة الصحة العالمية ارتفاع عدد حالات الإصابة بمرض السرطان من ١٤ مليونًا حاليًا إلى حوالي ٢٤ مليون شخص سنويًا بحلول عام ٢٠٣٥. وكما ذكر لنا البروفيسور «دي بوا» في ألمانيا سابقًا، فإن دراسات متعددة في مختلف المواقع الطبية تقول إن الأسرة والعلاقات الاجتماعية، وما لهما من تأثير نفسي وعاطفي على المريض، قد تقللان من احتمالية انتكاسة المريض، كما تساعد عوامل مثل الدين والتعليم في تقبُّل المريض لمرضه أو حتى تقبُّل قُرب حلول أجله.

كما برزت علوم جديدة مثل علم نفسية مريض

الأورام (Psycho-Oncology) لتُرشد الأطباء والجراحين لتحسين التعامل مع المريض وإبداء التفهم والتعاطف مع كل حالة، ومردود ذلك على صحة المريض النفسية والعاطفية، وترفض تلك الدراسات مصارحة مريض السرطان بالحقيقة الكاملة لإصابته، أو بتردي حالته، بينما تؤيد إعلام المريض بحالته بصورة بطيئة وغير مباشرة لتجنب إصابته وأهله بالذعر.

وتوجد بالدول المتقدمة منظمات عديدة تقدم الكثير من المساعدات لمرضى السرطان، وقد يتمثل ذلك في تقديم الاستشارة والنصيحة والمساعدة المالية، أو توفير أفلام ووسائط للتعريف بالمرض، وتلك المنظمات إما حكومية وإما غير حكومية من منظمات العمل الأهلي، وعملها هو مساعدة المريض لتحدي وتخطي مرض السرطان. وبينما كل ذلك صحيح فإنني شخصيًا بعد قراءة العديد مما هو مذكور عالميًا على المواقع المختلفة حول أنواع السرطان وسيناريوهات التعامل معها، قد أصابني

في كثير من الحالات الخوف والاكتئاب مما قد يحدث لي، وبالتالي توقفت عن قراءة كل ما يكتب وركزت على العلاج الذي أتناوله، واحترت كثيرًا حول هذه الطريقة في تناول الأمر، هل أنا على صواب، أم يجدر بي متابعة التطورات المنشورة حول علاج مرضي لأساعد نفسي في التغلب عليه وفقًا لأحدث الاكتشافات العلمية؟ والحقيقة أنني لا أعرف.. وربما أخاف من ذلك!

وحاليًا، وبرغم كل الأدوية الداعمة التي أتناولها، وبرغم عودتي إلى بعض، وليس كل، نشاطي في حياتي المعتادة، فإنني كثيرا ما تصيبني ليلا الكوابيس التي تتعلق بفشل العلاج أو عدم استطاعتي الوصول إلى المركز الطبي في موعد جلسة العلاج الكيميائي، أو إعادة مشهد إنهاء عملي مع المؤسسة، وغيرها من أحداث عام ٢٠١٦؛ وذلك بالرغم من أنني عادة لا أحلم، وإذا حلمت فلا أتذكر أحلامي على الإطلاق كما ذكرت سابقا، ولا أعرف إذا كان ذلك من أثر الأدوية أو القلق، أو بسبب

في كثير من الحالات الخوف والاكتئاب مما قد يحدث لي، وبالتالي توقفت عن قراءة كل ما يكتب وركزت على العلاج الذي أتناوله، واحترت كثيرًا حول هذه الطريقة في تناول الأمر، هل أنا على صواب، أم يجدر بي متابعة التطورات المنشورة حول علاج مرضي لأساعد نفسي في التغلب عليه وفقًا لأحدث الاكتشافات العلمية؟ والحقيقة أنني لا أعرف.. وربما أخاف من ذلك!

وحاليًا، وبرغم كل الأدوية الداعمة التي أتناولها، وبرغم عودتي إلى بعض، وليس كل، نشاطي في حياتي المعتادة، فإنني كثيرا ما تصيبني ليلا الكوابيس التي تتعلق بفشل العلاج أو عدم استطاعتي الوصول إلى المركز الطبي في موعد جلسة العلاج الكيميائي، أو إعادة مشهد إنهاء عملي مع المؤسسة، وغيرها من أحداث عام ٢٠١٦؛ وذلك بالرغم من أنني عادة لا أحلم، وإذا حلمت فلا أتذكر أحلامي على الإطلاق كما ذكرت سابقا، ولا أعرف إذا كان ذلك من أثر الأدوية أو القلق، أو بسبب

لضعف العضلات بعد العملية، ولكنه لن يستطيع أن يتخذ بشأنه أي إجراء جراحي إلا بعد انتهاء علاجي بالكامل وتخلُّص جسدي تمامًا من آثار العلاج الكيميائي الذي يَحول دون التئام الجروح، وبالتالي يجب أن ننتظر حتى منتصف عام ٢٠١٨ كي نستطيع علاج هذا الفتق الذي يكبر تدريجيًا بالتدخل الجراحي، وأنا الآن أضطر يوميًا إلى ارتداء حزام طبي ضاغط لهذا الغرض.

على الجانب الآخر، فإنني لولا ضرورة تناولي للأدوية يوميا، لكنت قد تناسيت أحيانًا أنني مُصابة بنوع خطير من السرطان، فأنا أستمتع باللعب مع أحفادي وأستمر في الأحاديث الشيقة مع ابنتيّ، وأناكف زوجي في السياسة والاقتصاد، وأضع خططًا مستقبلية للسنوات الخمس التالية، وأنا أعرف في أعماق قلبي أنني غالبًا لن أعيش حتى أراها تتحقق! وفي لحظات الضعف والخوف أشدد على زوجي بضرورة التأكد من وفاتي قبل دفني لئلا أكون وقتها في غيبوبة ثم أستيقظ لأجد نفسي

محبوسة تحت الأرض وحدي في الظلام! وطبعا أبتسم ضاحكة بعد قول ذلك، إلا أن شريف يؤلمه جدًّا مثل هذا الكلام.

لكنني عندما أخاف ليلا بعدما ينام الجميع أُطمئن نفسي بأنني بقدر ما سأفتقد من الأحبة في هذا العالم، فإنني سألتقي في العالم الآخر بالوالدين الحبيبين اللذَيْن أفتقدهما في كل لحظة، وأتشوق إلى حُضنيهما وقُبلاتهما، وأطمع أن ألقاهما في الجنة بإذن الله، وتظل تتلاعب بي الأفكار وأنا أحاول النعاس دون جدوى، فأقضي بقية الليل أُقلب القنوات بين الأفلام العربية والأجنبية، مستأنسة بصوت التلفزيون الخفيض كي لا أواجه مخاوفي وهواجسي في غرفة صامتة ساكنة ليس بها صوت؛ مما يقلقني بشكل أكثر.

وفي هذه الأيام تقلقني مسائل أخرى؛ مثل هل سأستعيد قدرة قدميّ على الحركة بسلاسة، أم أن الآلام ستتزايد وسيحدث تدهور آخر كما يحدث في

بعض الحالات التي أسمع عنها، أم أنها ستظل كما هي، أو ستتحسن بقُدرة قادر؟ هل ستلازمني آلام عظام الظهر التي ظهرت بعد الجراحة في نوفمبر ٢٠١٦، أم ستختفي قريبا برحمة الله؟ هل سأستطيع الحفاظ على وزن معقول، أم سيزيد وزني بسبب عودة الشهية مما سيضر بحالتي الصحية؟ هل استسلامي أحيانا للراحة الاسترخاء على فراشي أو الكنبة سيؤدي إلى العذاب الذي يمكن أن أشقى به في محاولة إيقاظ عضلاتي الضعيفة مرة أخرى؟ وبرغم كل هذه الأسئلة الصعبة إلا أنني أدرك أنه يجب الاستمرار في المقاومة والحفاظ على روح معنوية مرتفعة؛ لأن أحبائي لديهم ثقة بي لا أستطيع أن أخونها باستسلامي.

في معظم الأحيان، ومنها وأنا أكتب عن هذه التجربة التي لم تنتهِ بعد، أحس أنني أكتب عن شخص آخر أو امرأة أخرى ليس لي بها أي صلة؛ لأني عندما لا أحس بالآلام أنسى ما بداخل جسدي من خلايا خبيثة، وأكتب عن ذلك وكأنني أشاهد

قصة خارجية لا تخصني، ولكنني أشاهدها كشخص غريب ليس له علاقة إلا التعاطف والشفقة تجاه صاحبة القصة المَرضيّة، وأنا أعتقد أن ذلك نوع من الحماية الإلهية لمشاعر المريض الذي لا يستطيع تحمل الحقيقة القاسية ومواجهتها، وبالتالي فإن جزءًا من عقله الباطن يتعامل مع القصة وكأنها لا تخصه؛ حتى يستطيع أن يواصل حياته اليومية؛ وهذه نعمة من عند الله وتعالى.

وفي تلك الأيام أصبح يسيطر على ذهني سؤال واحد، وهو كيف يقتل السرطان المريض؟ ما الذي يحدث بسبب السرطان في جسد المريض فيؤدي إلى وفاته؟ ولم تكن هناك إجابات واضحة على هذا السؤال، وكل ما استقر في ذهني بناء على تجربتي وإحساسي الشخصي هو أن السرطان يقتلنا لإن العلاج الكيماوي يؤثر سلبا على الخلايا السليمة؛ وبالتالي فإن بعض أجهزة الجسم تكون أكثر تأثرا بسبب ضعفها مثلا، فبمرور الوقت تتهالك مما يؤدي إلى الوفاة، والله أعلم

الصفحة الأخيرة

بأمر الحُب

أتذكر منذ سنوات طويلة أن عائلة الرئيس «جون كينيدي» الذي كان قد تم اغتياله في مدينة دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية ونحن أطفال صغار كانت محل اهتمام الإعلام لسنوات طويلة، وكان طفلاه «جون» و«كارولين» محبوبَين بسبب مأساة عائلتهما، وصورة «جون» الطفل وهو يؤدي التحية العسكرية لجثمان والده قد أصبحت من أيقونات الميديا العالمية التي أدمَت قلوب الكثيرين، وعندما أصبحا شابّين ملء السمع والبصر فقدا والدتهما الشهيرة «جاكي كينيدي - أوناسيس»، وبعدها بسنوات فقدت «كارولين» أخاها «جون» الوحيد المتبقي من عائلتها في حادث تحطم طائرة مأساوي كان يقودها مع خطيبته وأصدقاء له، وأتذكر جملة قالتها بعد ذلك في برنامج المذيعة الشهيرة «أوبرا وينفري» مفادها أننا يجب أن نحرص دائمًا على

إخبار أحبائنا كم نحبهم كل يوم، فلا أحد يضمن وجودنا أو وجودهم في اليوم التالي.

ولذلك فإنني كنت حريصة دائمًا أن أفعل ذلك مع ابنتيَّ وزوجي؛ للدرجة التي كانوا يمزحون بشأنها من أنني أخبرهم يوميا بحُبي لهم وأسألهم كم يحبونني، ويمزحون بشأن هذه الأسئلة، ولكنني لم أندم لحظة على ذلك، فإن مشاعري تجاههم تكفي العالم بأسره وتفيض، وأندم أحيانا أنني في سن الشباب لم أخبر والدي ووالدتي الحبيبين، رحمهما الله، بالقدر الكافي كم أحبهم، ولم أُظهر لهما كثيرًا مدى تقديري لكل ما فعلوه من أجلنا وكل ما تعلمناه منهم من قِيم وأخلاق، ربما كان ذلك لأننا لا نعرف قيمتهم الحقيقية وما فعلوه من أجلنا إلا عندما ننجب؛ فندرك عندئذ كم أحبنا والدانا وضحّيا من أجل سعادتنا!

وأحمد الله حمدا كثيرا على نعمة وجود شقيقاتي الثلاث المُحبات بجانبي دائمًا، وبالرغم من

أنني شقيقتهن الكبرى، ودائمًا ما كنت أحس بمسئولية تجاههن بعد وفاة والديّ، إلا أنهن في الحقيقة كن يحتملن أحيانا انشغالي بسبب عملي وارتباطاتي، ويسألن عني دائمًا، فأنا أحبهن من أعماق قلبي، وعائلاتهن العزيزة هي جزء من عائلتي الصغيرة، وكذلك أنجالهن الأعزاء وأحفاد شقيقتي مها الأحباء، أما أحفادي علي وفريد وشريف، وداليدا الجميلة التي أشرقت على حياتنا في أغسطس ٢٠١٧ وبوصفها الحفيدة الأولى التي أنعم الله بها علينا؛ فقد أضفت لمسة أنثوية جميلة على زمرة الفرسان الثلاثة من الذكور، وجميعهم قطعة من قلبي، وأبتسم عندما أتذكرهم حتى في أحلك اللحظات، وأتمنى أن يتذكروا جدتهم الطيبة المحبة المبتسمة، وأن تخبرهم البنتان الحبيبتان؛ صديقتاي المفضلتان اللتان أستشيرهما وتشاوراني في كل شيء، كم أحبتهم جدتهم، وحمِدَت الله في كل لحظة على وجودهم في حياتها.

لذلك أرجو ألا تؤجلوا إلى الغد إخبار مَن حولكم

بمشاعركم المتدفقة تجاههم، فالأيام غير مضمونة، واليوم الذي يمر لا يُعوض، بل إن اللحظة لا تتكرر مرة أخرى، وأنا أعلم أنكم ستقولون مثلي «بلى.. نحن نعلم ذلك بالفعل»، نعم قد تعلمونه ولكنكم أحيانا تلهيكم مشاغل الحياة عن أن تنفذوه، فأتمنى ألا تهملوا ذلك، فالتعبير عن الحب لا يكلفكم شيئا، ولكنه يسعدكم ومَن حولكم بأكثر مما تتصورون، فلا تنتظروا حتى يصيبكم الندم إذا رحل الأحباء، لا قدر الله، قبلكم دون أن تُعبروا لهم عن مدى حبكم لهم، فالحب والمشاعر الصادقة تجعل العالم جميلا حتى في أوقات الألم والحزن، فما بالكم بأوقات الصحة والسعادة؟!

وكما قال جميع الأطباء داخل وخارج مصر؛ فالحالة المعنوية هامة جدًّا، وتلك تعتمد على ما تحدثنا عنه من قوة العلاقات العائلية الدافئة ومشاعر الصداقة المخلصة وإحساسكِ برعاية ومحبة كل مَن حولكِ، وأثر ذلك الإيجابي على عودتكِ لحياتكِ بأسرع وقت ممكن وفقا لقدرتك

على التحسن ومقاومة الإحباط ومحاولة الخروج مع الأحباء، ثم العودة إلى نشاطكِ وحياتكِ المعتادة سواء المهنية أو الاجتماعية أو غيرها، والتغلب على الشعور بالخجل والإحراج، والخوف من الإفصاح عن إصابتكِ بهذا المرض وكأنه ذنبكِ، وهذا كله طبيعي، ويضاف إليه الخجل من تغير الشكل نتيجة لفقدان الوزن، أو الأسوأ اختلاف الشكل نتيجة لسقوط الشعر؛ مما يؤدي أحيانا إلى عدم تعرف البعض عليكِ أو ظهور الاندهاش على وجوههم عندما يقابلونكِ للمرة الأولى بعد العلاج.

ولكن في الحقيقة فإن كل ذلك لا يجب أن يؤثر على أحد من مريضات السرطان، فكما قال لي مَن حولي فإن أنيسة ستظل في جوهرها هي أنيسة، أما التغير الوقتي في شكلها الخارجي فلن يؤثر على مشاعر مَن يحبها بصدق، لأنكِ ستصلين في نهاية الأمر إلى مرحلة من الثقة في النفس، تجدين نفسكِ في لحظة منها ترفضين ارتداء الباروكة، وتصبح مواجهتكِ للمجتمع المحيط بشعركِ القصير

ووجهكِ المبتسم المشرق هي جزءًا من معركتكِ ضد المرض في رسالة واضحه بأنكِ ما زلتِ هنا واقفة بشجاعة ولم تستسلمي أو تنهاري، بل تستمرين في دعم عائلتكِ كما تدعمكِ هي.

هذه خلاصة الأمر فيما يتعلق بالأحباء، أما فيما يخص المرض نفسه، فنتيجة للمعلومات التي سمعتها طوال السنة الماضية أستنتج أنه لا أحد يعرف على وجه التحديد لماذا نُصاب بالسرطان فجأة! هناك بالطبع عوامل مساعدة مثل التدخين وغيره، ولكن لا أحد يعرف كيف يبدأ المرض، كما أنه لا أحد يعرف إلى الآن لماذا قد يعود المرض بعد أن تُتبع جميع الإجراءات العلاجية والاحترازية، فكلُه مُقدر لكِ، وليس لكِ في حقيقة الأمر حيلة في شيء من ذلك، وإنما تُسلمين أمركِ لله. وبعد هذه الفترة العصيبة التي مررتُ بها فإن أهم ما تعلمته هو أن ما يخيفكِ حقيقة هو أنكِ تواجهين المجهول، فالناس؛ كما قال الإمام علي بن أبي طالب، أعداء ما جهلوا.

أما ما يؤلم قلبكِ حقيقة فهو معرفة أنكِ مفارقة أحبابك، وأنكِ لن تشاركيهم لحظاتهم السعيدة القادمة، فلن تحضري تخرج الأحفاد وزواجهم، ولن تصبحي جزءا منهم بعد الآن، وما يقلقكِ هو تفكيركِ، هل استفدتِ من النعمة التي أعطاها لكِ الله تعالى أثناء وجودكِ على هذه الأرض، وهل عاملتِ الآخرين بما تحبين أن تُعامَلي به، وهل أحسنتِ إلى المحتاج، وهل كنتِ رفيقة بالضعفاء، وهل عبّرتِ عن حبكِ وعواطفكِ لمن تحبينهم، أم أجّلت ذلك لوقت تصورتِ أنه قادم ثم خدعتكِ الأيام ولم تُتح لكِ ذلك؟ وهل تركتِ ذكرى طيبة يفخر بها الأبناء والأحفاد في مستقبل الأيام أم لا؟ فكلنا زائلون، ولكن المهم كيف سيتذكرنا الآخرون!

إذن ما هو المتاح لكِ في مثل موقفي؛ حيث فوجئتِ بإصابتكِ بهذا المرض الخطير، ثم أخذتِ العلاج الكيميائي، ثم أجريتِ الجراحة، ثم استكملتِ العلاج الكيميائي، ثم تسيرين الآن في مرحلة الـ ١٧

جلسة التي تؤخذ واحدة كل ثلاثة أسابيع فيما يُسمى بالجرعات الوقائية (Maintenance)، وبالتالي تكون رحلتكِ قد استغرقت ما يقارب العامين، ثم وفقا لمجمل كلام الأطباء يكون أمامكِ عامين تقريبًا فيما يمكن تسميته «فترة سماح»، ثم يُكتشف بعدها ما إذا كنتِ ستُصابين بالمرض، لا قدر الله، مرة ثانية أم لا، وهذه إن حدثت وفقا لكلامهم فستكون المرة الأخيرة والقاضية، أم أنكِ ستكونين من النسبة المحدودة التي يُنعم الله عليها بالشفاء، فماذا يمكنكِ أن تفعلي أثناء كل ذلك؟

أمامكِ هنا خياران؛ إما أن تدخلي كما حدث لي بعد الجراحة في مرحلة اكتئاب واستسلام، وتدور كل أسئلتك لنفسك وللمحيطين بكِ حول سؤال واحد تختلف صِيَغه من شخص لآخر، ولكن جوهره واحد، وهو لماذا حدث ذلك لي أنا بالذات؛ فأنا لم أؤذِ أحدًا، فلمَ أصابني هذا المرض المخيف الذي يبدو أنه لا نجاة منه؟ وتظلين، كما حدث لي، تنظرين من نافذة غرفتكِ غير قادرة على الحركة

لشهور طويلة لا تتغير فيها المناظر أمامكِ، وتفقدين قدرتكِ على الابتسام والبهجة، وتشعرين أنكِ تسقطين في بئر عميقة من عدم الرغبة في فعل أي شيء، فما هي الفائدة من بذل الجهد إذا كانت النهاية محتومة لا فكاك منها؟

وهذا صحيح في واقع الأمر، فالنصيحة تبدو سهلة عندما نكون خارج الموقف، وكما يقال، فإن «اللي على البر عوَّام» ويصبح عالِما ببواطن الأموز وأستاذًا في النصائح، وفي العادة لا يستمع إليه أحد لأنه كما يقول المثل الشعبي الشهير «اللي إيده في الميه، غير اللي إيده في النار» ويُعاني من لسعها وألمها، ولكن في ذات الوقت ما هو الخيار المتاح في مثل هذه المواقف العسيرة التي قد تبدو مغلقة أو مسدودة كما يحدث أحيانا في لعبة الدومينو؟

هناك خيار يبدو فيه الاستسلام أيسر من المقاومة المُجهدة بدنيًا ونفسيًا، كما أنها غير مضمونة النتائج؛ وبالتأكيد فإن هذا خيار قائم،

ولكن هناك خيارًا آخر أكثر تفاؤلا واتفاقا مع الرغبة البشرية في التفاؤل والحياة والنجاح، وهو شحذ الهمة واستجماع الإرادة لمكافحة سوء الظروف أو قسوة المرض والتغلب على ذلك للوصول إلى بَر الأمان، خاصة أنه في مثل هذه الأحوال يكون القرار ليس فرديا لكِ وحدكِ بالرغم من معاناتكِ الشخصية، بل إنه يصبح بذات القدر متعلقا بمن حولكِ ممن يحبونكِ وتتعلق حياتكِ ونجاحكِ وشفاؤكِ بهم، مَن تَودين إسعادهم أو رعايتهم، أو يحزنكِ خيبة أملهم فيكِ أو فراقهم؛ ولذلك فإن قراركِ في واقع الأمر يفقد تعدد خياراته ولا يصبح المتاح أمامكِ سوى خيار المقاومة والتغلب على المِحن والخروج من المآزق الصعبة والمؤلمة للحفاظ على نفسكِ أو من تحبين، ولكن تثور أحيانا في ذهنكِ أسئلة أخرى قد تبدو للبعض فلسفية، مثل ما فائدة كل هذا الكفاح والجهد والصراع مع الظروف أو مع المرض، إذا كانت المسائل تتساوى في نهاية الأمر، وإذا كان كل ما نفعله لن يغير من

المكتوب قيد أنملة مهما بذلنا من جهد أو أنفقنا من مال؟

وإجابتي على ذلك باختصار أننا قد خُلقنا في هذه الحياة لكي نعيش كل لحظة فيها بحلوها ومُرها، بكل ما تأتينا به الأيام من أفراح وأتراح، من مباهج وآلام، من صدمات محزنة ومفاجآت سعيدة، فهي رحلة طالت أم قصرت مكتوب علينا القيام بها، باذلين كل الجهد للاستمتاع بأفضل ما فيها، مثلما يتعين علينا احتمال كل ما قد يؤلمنا خلال أيامها بنفوس راضية شاكرة متأملة في حكمة الله في كل شيء، فقدرة الإنسان على التحمل أغوارها عميقة، وقدرته على الصبر لا يعلم حدودها إلا الله تعالى، الذي له الأمر من قبل ومن بعد، وبناء على ذلك فنصيحتي، إذا جاز لي ذلك، لأقراني من المصابات بهذا المرض الخطير الذي نفزع من مجرد ذكر اسمه، أنه ليس هناك شيء مؤكد يدل على النجاح أو الفشل في القضاء على المرض، ولا يستطيع أحد أن يخبرنا بذلك، لكن من المؤكد أنني كمريضة، وبعد

عام تقريبا من اكتشافي للمرض، أشعر أنني أفضل كلما أجبرت نفسي على الخروج ولقاء الناس واستئناف نشاطي المعتاد قدر ما أستطيع، وفي نفس الوقت، فإن مشاعر المريضة مثلي تظل تتأرجح طيلة الوقت صعودا وهبوطا أملا ويأسا نتيجة لتأثير الأدوية ثقيلة الوطأة، إلى جانب إجهاد العلاج الكيماوي المُستمر للجسد البشري الضعيف، ويحتاج الأمر إلى أخذ أدوية لدعم الحالة النفسية، فالجسم يحدث داخله كثير من التفاعلات التي لا يدركها المريض، ولكنها تنعكس على مزاجه النفسي وعلى معنوياته وعلى معاناته الجسدية.

ولكن الإنسان بطبيعته قادر على المقاومة والتشبث بالحياة، فلا يجب علينا رفع الراية البيضاء أمام هذا المرض الشرس مهما بدت الأحوال سيئة في نظرنا، فنحن نعيش مرة واحدة، وفرص الاستمتاع بنعم الله متاحة دائمًا ، حتى في أبسط الأشكال، مثل الجلوس أمام أمواج البحر والتأمل فيها، أو الاستمتاع إلى زقزقة العصافير وهي تطير

من حولنا، أو النظر إلى ألوان الزهور المُبهجة، والفراشات تقف عليها، متعجبين من قدرة الله، أو مشاهدة الأحفاد الصغار يتقافزون في مرح من حولك، وكما يقال «لا حيلة في الرزق ولا شفاعة في الموت»، فلنرمِ حمولنا على الله ولا نهدر الحاضر الذي نعيشه خوفا من المستقبل الذي نجهله.

وأنا لن أخفيكم سرًّا عندما أقول إن المشكلة لا تنحصر في السرطان فقط، ولكن هناك أيضًا الآثار الجانبية السابق ذكرها، والتي منها تأثير العلاج الكيميائي على التئام الجروح، وفقدان الشهية، وآلام العظام، واضطرابات المعدة، ومضاعفات القدمَين، كلها تمر مع الوقت، وتتعود على التعامل معها بصبر وتحمل، فلا حيلة لك في ذلك سوى قبول المقادير، وإذا أهدرت اللحظات الثمينة من عمرك شاعرًا بالإحباط والظلم فلن يغير ذلك من الأمر شيئا على الإطلاق، ولكن الأفضل أن نحاول الاستمرار ولا نيأس؛ فلربما يكون مكتوبًا لنا الشفاء ونحن لا ندري، فلماذا نهدر اللحظات الغالية من هذه

الحياة في الترقب والخوف بدلا من التفاؤل والإقبال على الحياة؟!

وأن أنصح الجميع ونفسي بالتمسك بالأحلام الشخصية، حتى وإن بدت بعيدة التحقق، فأنا مثلا أحلم بالانتقال إلى منزل يجمعني بابنتيّ وأحفادي في مكان واحد؛ بحيث أستمتع برؤيتهم يوميا، وأظل بينهم حتى الرمق الأخير، ولا أريد أكثر من ذلك، فهذا بالنسبة لي هو جوهر الحياة الحقيقي، وهذا التمسك بالأحلام الجميلة، حتى ولو بدت بعيدة المنال، يعطينا دفعة للأمام وطاقة إيجابية تجعل الحياة أكثر إشراقا وجمالا، فتمسكوا بالأحلام، وتحدثوا عنها مع أحبائكم كأنها ستتحقق غدا، واشغلوا أنفسكم بتفاصيلها التي تتمنونها، فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وهو دائمًا الرحمن الرحيم، تدعونه فيستجيب لكم.

ولا أخدعكم هنا وأقول إن لحظات الاكتئاب قد اختفت من حياتي، فهذا غير صحيح، فأنا ما زلت

أبكي في كثير من الأحيان لأنني لا أريد أن أفارق ابنتيّ وأحفادي، ولا أريد أن أختفي من حياتهم، وأخاف أن أنتقل إلى عالم آخر لا أعرف عنه شيئا وأنا وحدي، وأنا أحدثكم بصراحة، فأنا أعرف ديني جيدا وأؤدي واجباتي، وآمل أن يتقبل الله مني، ولكني مع ذلك أخشى المجهول والموت، والوحدة، والحساب والعقاب؛ فإن بني آدم ضعيف، وروحه مثقلة بالذنوب، ولا يفكر أثناء حياته إلا في مسائل هامشية، ولا يتصور أن تصيبه إحدى نوائب القدر على حين غرة؛ ولذلك لا يكون مُستعدا لتحمُّل عواقبها المفاجئة، ولكنني في نفس الوقت أفكر في أنني بعد الموت سأقابل والدي ووالدتي اللذين أفتقدهما جدًّا، وأحلم بأن أنعم بصحبتهما.

ولكن ما يخيفني أحيانا هو فكرة تكرار المرض بعد فترة العلاج، فلا أتصور أنني سأحتمل هذه الفكرة؛ لأن عواقبها مجهولة، ولا أحد يريد الحديث عن احتمالاتها، سواء من الأطباء أو من عائلتي، وكلما سألت على استحياء عن عواقب ذلك تكون

الإجابة النمطية «إنتِ زي الفل، عملتِ الجراحة وبتتعالجي وهتختفي تماما إن شاء الله»، فلا أحد يريد التطرق للحديث عن هذه المنطقة التي تبدو وكأنها«محظورة»، وكأن الجميع متفق على عدم الاقتراب منها؛ وبالتالي فإن هناك مجهولا ينتظرني في مكان ما، ولكن لم يتم الإفصاح عنه حتى الآن، وهو متروك لحينه، كما يقال؛ لأكتشفه بنفسي إذا، لا قدر الله، كان مكتوبا عليّ مواجهته، والحق يقال، فأنا أيضًا أخشى الضغط كي أحصل على الإجابات الصريحة التي قد أكون غير قادرة على احتمال مواجهة حقائقها أو قسوتها.

أما ما يفزعني حقيقة، فهو أن تطول فترة المرض وتؤدي إلى التدهور أو البهدلة، أو أن يضيق بي مَن حولي، أو أن أصبح عبئا بدنيا أو نفسيا عليهم، أو لا سمح الله أن ينشغلوا عني عندما يصبح مرضي مسألة مزمنة فيتحول إلى جزء من الحياة اليومية لا يستحق الانتباه أو الرعاية اللصيقة التي يحيطونني بها بخالص الحب والحنان، وأنا أدرك

بداخلي أن هذه هواجس غير صحيحة، ولكنني في لحظات الضعف الصحي يطرأ على بالي دائمًا الأسوأ وليس الأفضل، فلنحذر جميعا كمرضى الاستسلام لهذه الهواجس المحبطة التي يمكن أن تبتلعنا في دوامات الحزن والقلق وفقدان الأمل.

ولنواجه الحقيقة التي لا مفر منها، وهي أننا جميعا زائلون، وأن الحياة لا تتوقف على أحد مهما كانت أهميته وقيمته، وإلا لكنا جميعا قد انتهت حياتنا مع فراق الأحباء، ولكننا نستمر لأن هذه إرادة الله تعالى، ويبقى لنا من الأحباء الذكريات الغالية والسيرة العطرة والشجن النبيل في القلب، وآلام الفراق التي تخف شيئا فشيئًا، حتى تُصبح كالجرح العميق الذي يتحول مع الزمن إلى ندبة لا تزول ولا تؤلم إلا إذا ضغطت عليها بالذكريات، سواء السعيدة أو الحزينة، وهذا الذي أتمنى بقاءه بعد رحيلي المحتوم، بعد وقت قليل أو كثير؛ وهو أن يتذكرني أحبائي بأنني كنت أحبهم من أعماق قلبي، وأغدق عليهم من مشاعري المتدفقة، وأحقق لهم مطالبهم،

أملًا في أن يقولوا دائمًا إنني كنت مصدرا للبهجة في حياتهم، وأن يتذكروا أوقاتنا الجميلة معا بما فيها من ابتسامات ومرح ولحظات سعيدة، فهذا ما أتمنى أن يتذكروني به.

إذن فالأمر في النهاية سواء؛ فلنركز على لحظات السعادة حتى ولو كانت قليلة ومتناثرة، فهي غالية وتمر بسرعة البرق، ولذلك تبدو الصور الفوتوغرافية والفيديوهات المصورة شيئا جميلا للاحتفاظ بالذكريات، وللنظر إليها بعد مرور الوقت لاستحضار الزمن الماضي، وأنا أضع صور والدي ووالدتي في كل مكان، سواء في غرف الاستقبال أو غرفة المعيشة، وأكلم أحيانا صورهما، وأحكي لهما الأخبار، وأبتسم في وجهيهما المحببين إلى قلبي، وأتذكر بفخر ما أنجزاه، وأحكي لأحفادي عنهما؛ كما أتمنى أن تخبر ابنتاي أولادهما عني ذات يوم إن شاء الله.

ومن جانب آخر أكثر إيجابية، فإن خوفكِ من

الموت مع تقبلكِ لحدوث ذلك ورضاكِ بما يقسمه الله لكِ يكون له أثر إيجابي؛ فالرضى هو لمن يرضى؛ ولذلك فإن إحساسكِ بضيق الوقت المتاح والمتبقي لتحقيق آمالكِ من المفترض أن يدفعكِ إلى بذل مزيد من الجهد، سواء لإنجاز مهامكِ أو للاستمتاع بحياتكِ التي مهما طالت فهي في النهاية قصيرة، فربما يجعلكِ ذلك تقررين أن تفعلي أشياء جديدة، أو تفتحي صفحات جديدة، أو تطرقي مجالات مختلفة تسعدكِ أكثر، لم تكوني لتفكري أن تقومي بها حفاظا على الصورة النمطية التي يتوقع الجميع منكِ أن تتصرفي وفقا لها حتى يتقبلكِ المجتمع المحيط بكِ، خصوصا عندما تُحسبين على فئة الشخصيات التي قد يعرفها قطاع أكبر من المعارف أو الأشخاص.

وبالنسبة لي، فأنا خارج مهامي الوظيفية والمهنية أحب الكتابة، وأستمتع بها، وأكتب دوريا مقالات سياسية واجتماعية في مطبوعات مختلفة، وكنت منذ فترة أفكر في بدء الكتابة عن ذكرياتي

مع حفيدي الأول علي بلقطات كوميدية عن مناقشاتنا معًا ووجهات نظرنا المختلفة للأمور، ولكني كنت أؤجل ذلك مرة بعد الأخرى لعدم وجود الوقت الكافي، ومنذ أُصبت بهذا المرض بدأ زوجي يتحدث بإصرار عن ضرورة البدء في كتاب عن تجربتنا مع السرطان وكيف تغلبنا عليه! وظل يتحدث عن ذلك بصفة مستمرة منذ اليوم الأول وحتى يومنا هذا، وأظن أنه كان مدفوعا أساسا بتشجيعي على تخطي مِحنتي الصحية واحتفاظي بروح المقاومة في وجه هذا العدو الغادر.

ومن قراءاتي المتنوعة منذ الصغر حول السِّيَر الذاتية محليًا وإقليميًا وعالميًا وأنا أخشى الكتابة عن حياتي الشخصية؛ لأنها مسألة صعبة وكاشفة وتتطلب قدرا لا يستهان به من الشجاعة والصراحة والشفافية، وكنت دائمًا أعتبر أن مَن تصدوا لهذه التجربة تمتعوا بشجاعة أدبية تستحق الإعجاب؛ لأنه ليس من السهل أن تكشف خبايا نفسك ومشاعرك وخصوصيات حياتك أو حياة عائلتك

أمام الآخرين، أو الغرباء، كما نسميهم في ثقافتنا العربية، بما فيها من جوانب القوة والضعف على حد سواء، فهذه مسألة شديدة الحساسية وتدخل فيها حسابات عائلية معقدة وإرث ثقافي متراكم عبر القرون وصور مصنوعة للشخصيات العامة كأنهم ملائكة مُحصّنون ضد الخطأ والمرض؛ ولذلك فمَن تصدَّى لهذه المهمة بالمصداقية المطلوبة عدد قليل من الكُتاب والسياسيين في عالمنا العربي، وقد واجهوا كنتيجة لذلك موجات عاتية من الانتقادات والتسفيه والتشويه والتشهير، وكأن الرأي العام في منطقتنا قد تعوّد على اعتقاد أن الشخصيات الشهيرة مُنزهة عن الانحراف السلوكي أو السقوط في براثن المرض، ويريدونهم دائمًا في هذه الصورة المثالية التي لا يرضون عنها بديلًا لدرجة أن يُعادوا أحيانًا مَن يحطم هذه الصورة الذهنية حتى لو كان الشخص نفسه في محاولة لأن يقول الحقيقة (to come clean)؛ ولذلك فكثير من الشخصيات العامة يفارقون عالمنا هذا دون أن يفصحوا عن تجاربهم

الخاصة خوفا من الهجوم أو التجريح المهين.

ويزداد الأمر تعقيدا بالنسبة للنساء في هذه المنطقة من العالم؛ فمشاعر النساء وتجاربهن منطقة شديدة الخصوصية وممنوع الاقتراب منها أو الإشارة إليها، وإذا تم فتحها يحدث ذلك بحذر شديد، فنادرًا ما نجد كاتبات من النساء يتحدثن عن حياتهن العائلية، أو الخاصة، بصراحة أمام رأي عام يستهجن ذلك بشدة وقسوة، ويعتبره خروجًا عن الأعراف والتقاليد المجتمعية، وكأن النساء مخلوقات فضائية منعزلة عن الحياة المفتوحة للآخرين، وبالتالي فالمرأة عادة ما تحتفظ بمعاناتها الجسدية والنفسية في دوائر عائلية ضيقة مغلقة تحيط بها أسوار الكتمان والسرية، كما أن ثقافتنا العامة تقوم على مسئولية المرأة عن مساندة زوجها وأطفالها وتحمُّل مهام المنزل والعلاقات الاجتماعية، وغالبا لا أحد يريد أن يسمع عن مرضها ومعاناتها، لأن ذلك سيعني تعطيل الحياة العائلية، أو إعادة توزيع مسئولياتها الكثيرة على مَن حولها،

ولن يتحمل أحد القيام بذلك، وبالتالي فالمرأة مطلوب منها الاستمرار في أداء مهامها وواجباتها مهما كانت ظروفها، وعليه فإن سقوطها في براثن المرض أمر لا يحب أحد الحديث عنه أو عن عواقبه، وأجرؤ على الادعاء أن الأفضل بالنسبة للكثيرين، إذا قُدر للمرأة أن ترحل عن الحياة، أن تفعل ذلك في صمت وهدوء دون أن تزعج محيطها، وأعلم أن كلماتي ربما تبدو شديدة القسوة في نظركم، ولكن هذه هي الحقيقة القاسية بالنسبة لملايين من النساء في الطبقات المتوسطة أو الفقيرة اللاتي لا يتمتعن بالإمكانيات المادية، ولا تحيط بهن ثقافة مجتمعية تُثمن دورهن المحوري وترعاهن الرعاية الصحية والاجتماعية اللائقة، فطوبى للنساء اللاتي يكافحن لأجل عائلاتهن، وفي الكثير من الأحيان يصيبهن المرض ويقضي على حياتهن دون حتى أن يعرفن ذلك.

وأنا لا أدّعي هنا أنني بكتابي هذا أفعل شيئا غير مسبوق؛ حيث إنني لا أكتب سِيرتي الذاتية، ولكنني

أتحدث عن فترة معينة محددة الزمن من عمري تتعلق بتجربة خاصة مع مرض خطير شجعني مَن حولي بحب وإصرار أن أكتب عنها، وراودني إحساس قوي بالرغبة في وصفها لغيري من النساء وتشجيعهن على الحديث عن مرضهن الخطير، وعدم الحرج والخجل مما يصيبهن نتيجة هذا المرض المميت والغامض حتى الآن.

فمَن تُصاب بهذا المرض لا تعاني فقط بدنيا، ولكن أيضًا نفسيا، فالمجتمع لا يتعاطف معها بالدرجة الكافية ولا يتحدث عن خطورة سرطانات النساء بما تستحق من اهتمام وعناية، ومعلومات الرأي العام حول خطورة أنواع السرطان التي تصيب المرأة محدودة للغاية، ومراكز السرطان المتخصصة في علاج النساء لا تزيد حتى الآن عن مستشفى واحد متخصص في مصر؛ هو «مستشفى بهية»، وكأن التمييز وعدم المساواة بالنسبة للمرأة ينسحب أيضًا إلى أمراض النساء وليس وظائفهن فحسب، وأنا شخصيا كان كل ما أسمع عنه هو

سرطان الثدي عند النساء، ولكنني حتى إصابة أختي منال به، لم أكن أعرف عنه أي تفاصيل تدُل على ارتباط حدوثه بأي نوع آخر من أمراض السرطان التي تصيب النساء كما اكتشفت فيما بعد.

ويضاف إلى ذلك أن الغالبية العظمى من النساء يشعرن بالحرج عند الحديث عن إصابتهن بالسرطان؛ لأنه كثيرًا ما يكون في «أجزاء حسّاسة» من جسد المرأة، والإشارة لها تعتبر نوعًا من الموضوعات المحظورة بالنسبة للمجتمعات الشرقية المحافِظة؛ وبالتالي فإذا تحدثت أي مصابة بالسرطان عن مرضها فهي ليس فقط تعرب عن نقطة ضعف لديها، وإنما أيضًا تضطر للحديث عن جزء حسّاس من جسدها، وصدقوني فإن هذا لا يتعلق بثقافة طبقات معينة، ولكنه يسبب الحرج لجميع النساء في هذه المنطقة من العالم؛ لأننا لم نتعود هذا الإفصاح عن تلك الموضوعات؛ وبالتالي فهو يُشكل عبئًا نفسيًا ثقيلا على نفوسنا جميعًا حتى مع أقرب الأقربين.

وبالتالي فنحن نحتاج، ليس فقط إلى مستشفيات متخصصة في سرطان النساء، وإنما أيضًا إلى مراكز متخصصة في الدعم النفسي للمريضات اللاتي أحيانًا يهجرهن الأزواج لأسباب اقتصادية أو معنوية فتتضاعف مُعاناتهن مع المرض، كما أننا نحتاج إلى نشْر مراكز توعية بأعراض المرض المبكرة في المراكز والقرى البعيدة عن العاصمة والمدن الكبرى، إلى جانب توفير مراكز الكشف المبكر عن المرض وتزويدها بالأجهزة الطبية باهظة التكلفة، وحيث إن الكثيرين يتحمسون لعمل الخير ويرغبون في التبرع لتخفيف آلام الآخرين، فلا جدال أن معاونة المُصابات بهذا المرض ماديًا ومعنويًا هي من القضايا النبيلة التي تستحق التبرع؛ وذلك لمردودها الإيجابي على المجتمع بأسْرِه حيث إن الأم هي عمود الأسرة وروحها النابضة.

ليس هذا فقط، بل إن تكلفة علاج هذا المرض

الخطير والذي تزداد أعداد المصابات به عاما بعد الآخر، تكلفةٌ باهظة لا تستطيع معظم المريضات تحملها ودفعها، وبالتالي فهن إما ينتظرن دورهن في العلاج المجاني حيث القوائم الطويلة جدًّا للعلاج بالمستشفيات العامة، أو لا يتعالجن على الإطلاق، ونسبة لا يُستهان بها من المصابات أحيانا لا يعلمن أساسا بمرضهن؛ لأنهن لا يستطعن تحمل تكلفة إجراء الأشعات والفحوص اللازمة والتي تتكلف آلاف الجنيهات؛ ولذلك فإنني دعوت داخل مجلس النواب وخارجه أن يتحمل نظام التأمين الصحي تكلفة الكشف المبكر عن المرض للنساء المصريات مرة كل عام للمساعدة في مكافحة المرض.

والجوانب النفسية والمعنوية الخاصة بالسرطان لها تأثير سلبي خطير على المرأة، فمسألة سقوط الشعر والحاجبين تجعل من الصعب على النساء مواجهة مَن حولهن برءوس خالية من الشعر، خاصة إذا كن لسن محجبات، فيلجأن إلى استخدام الشعر الاصطناعي (الباروكة) مثلما فعلْت للذهاب إلى

مجلس النواب خشية مواجهة الزميلات والزملاء بمظهر مختلف غير معتاد، وكذلك عندما أظهر في برامج التلفزيون خوفا من دهشة الناس واستغرابهم من مظهري الجديد، أو استهجانهم له، أو إثارة أسئلة مُحرجة حوله.

ولكنني بعد مرور ثمانية أشهر على اكتشافي للمرض وستة أشهر على إجراء الجراحة، شعرت فجأة أنني قد ضقت بالباروكة ذرعا، وأنني لم أفعل شيئا أخجل منه، ولم أكن أنا السبب في إصابتي بالمرض لأشعر بالذنب أو أختفي عن المجتمع الذي يعرفني، وأنه كفاني المحاولات المستمرة لأغير من شكلي ومظهري بشكل صناعي لإخفاء أنني مريضة بالسرطان، وكأنني مطالبة طوال العمر بإثبات أنني في أحسن صحة وأفضل حال حتى يتقبلني مَن حولي. في ذلك الأسبوع كنا قد فقدنا أحد أصدقائنا الأعزاء، ولم أتمكن من الذهاب إلى قاعة العزاء بسبب الظروف المَرضية، وبمجرد تحسني صحيا قررت الذهاب مع شريف لزيارة زوجته العزيزة

بالمنزل بعد التأكد من وجودها وحدها مع أبنائها، ولذلك قلت لشريف إن المسألة لا تتطلب ارتداء الباروكة، خاصة أن بيتهم لا يبعد عن بيتنا سوى بضع دقائق.

وللمرة الأولى جرؤت على الخروج من باب المنزل دون باروكة، وبشعر أسود قصير جدًّا قد بدأ ينبت على رأسي، ووصلنا إلى هناك وصعدت الطابقين بصعوبة، حيث كان تنفسي صعبا، وعندما وقفنا عند باب الشقة المقصودة مددت يدي ودققت الجرس، وفُتح باب الشقة العريض عن آخره لأجد صديقتي واقفة بترحيب ولكن كان وراءها الكثير من الوجوه المألوفة، واضطربْت للحظة محاوِلة التراجع إلى الخلف ولكن يد شريف المتوقّعة لرد فعلي كانت في ظهري تمنعني من الرجوع، وتقدمت إلى صالة المنزل لأجد معظم أصدقاء المعادي هناك؛ فقد عرفوا بقدومي من صاحبة المنزل وصمموا على انتظاري لرؤيتي!

وشعرت بخجل لم أستطع التخلص منه، لدرجة أنني ابتسمت ابتسامة خجولة ومرّرت يدي على شعري في إشارة واضحة إليه، وقلت آسفة على حضوري بهذا الشكل، ولكنني لم أكن أظن أنني سأراكم هنا جميعا، وقد بادر الجميع على التأكيد بأنني أبدو جميلة، وأن مظهري على ما يرام، ثم كانت إحداهن أكثر لطفا فقالت إن مظهري بالشعر القصير هو مظهر باريسي أنيق، وإنني أُذكرها بإحدى الممثلات الشهيرات التي قامت بدور مجندة بالجيش كانت قد قصت شعرها تماما لتبدو مثل زملائها الرجال، وبطبيعة الحال شكرتها على مُجاملتها اللطيفة، ولقد سعدت لأنني تغلبت، في خطوة أولى صغيرة، على خوفي من رد فعل الآخرين تجاه مظهري.

وبالتالي استجمعت شجاعتي وقررت أن أواجه نفسي وأظهر على استحياء في لقاءين أو ثلاثة مع أصدقاء مُقربين بدون الباروكة كلما سنحت الفرصة، وكان اللقاء الأول في يوم الاحتفال بعيد شم

النسيم، وكنا معتادين أن نزور صديقَيْنا المقربَيْن مُنى الجمال وإسماعيل السباعي منذ سنوات بعيدة، ونقضي هذه المناسبة في حديقتهم الجميلة في جوٍّ من البساطة والود الخالصين، وكان يوما حارًّا وأحسست أنني لن أحتمل الباروكة في ذلك الجو الخانق، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ ثمانية أشهر التي أخرج فيها من المنزل لمقابلة الأصدقاء منذ علمي بالمرض في أغسطس ٢٠١٦.

قبل خروجي بقليل ساورتني هواجس القلق؛ فقد بدأ شَعري في النمو بعد سقوطه تماما خلال المرحلة الثانية من العلاج في بداية عام ٢٠١٧ كما ذكرت سابقا، ولكن بعد بداية العلاج الوقائي بدأ الشعر ينمو على استحياء ليماثل في طوله شعر الرجال، ولذلك عندما نظرت لنفسي في المرآة، بعد ارتداء ملابس ملونة تليق بالمناسبة الربيعية، أصابني القلق من درجة قِصر شعري وشكلي به، وأنا التي كان شعري الأسود الفاحم يصل إلى كتفيَّ، فأخذت صورة لنفسي وأرسلتها لابنتيّ وشقيقاتي متسائلة

إذا كان مناسبا أن أخرج بذلك الشكل، خاصة أن تلك المناسبات عادة ما يكون فيها عدد لا بأس به من الأصدقاء، وتلقيت الردود المشجعة منهن جميعا أن شكلي جميل ويجب أن أذهب بهذا المظهر دون تردد، وبالفعل نزلنا من المنزل في طريقنا إلى العزومة، وكلما اقتربنا من المكان ارتفع صوت دقات قلبي وازداد خوفي من مواجهة الموقف.

عندما وصلنا، نزلت ببطء من السيارة، مترددة في الدخول من باب الحديقة، ملتصقة بشريف، حتى يدرك مَن يستغرب شكلي أنني أسير مع شريف، فيعرف أنني أنيسة ولكن بمظهر مختلف، وفعلا عندما دخلنا أتت منى مضيفتنا مُرحبة ومنبهة الحاضرين لدخولي، وبينما ظهر الاندهاش على وجه البعض إلا أن الترحيب العام من الجميع كان كبيرا، ومن الواضح أنهم جميعا كانوا على علم مسبق بمرضي وكانوا متوقعين ما حدث لي من تغيرات مثل فقدان الوزن وسقوط الشعر، وبعد مرور الوقت اقترب البعض وشجعني على الحديث

عما حدث لي، لأكتشف أن إحدى صديقاتي الجالسات بجانبي قد مرت حديثا أيضًا بتجربة سرطان الثدي، ولكنها تعافت والحمد لله.

قضيت يوما جميلا لأول مرة منذ شهور طويلة، واستمررنا جالسين نتحدث حتى المساء، وبين الحين والآخر ينبهني شريف أننا يجب أن نكتفي بهذا القدر ونعود للمنزل لتجنب أي انعكاس سلبي على صحتي بسبب هذه الجلسة الطويلة، ولكنني كنت سعيدة برؤية الأصدقاء بعد شهور طويلة من الغياب، ولذلك ظللت أُماطل في المغادرة، وعندما غادرْنا في النهاية كنت أشعر بالإجهاد الشديد، وبمجرد وصولنا للمنزل انهرت على فراشي وظللت لأيام طويلة لا أستطيع استعادة طاقتي بسبب الإجهاد، ولكنني لم أندم على خروجي؛ فقد سَعِدت برؤية الأصدقاء واستمتعت بالأحاديث المتنوعة معهم.

أما مناسبة الخروج الثانية فقد كانت في شهر

مايو ٢٠١٧، في غداء سيدات عند شقيقتي مها، وقررت أيضًا الذهاب بشعري القصير أمام هؤلاء السيدات اللاتي أعرف بعضهن ولا أعرف البعض الآخر، وقابلتني شقيقتي عند الباب لتشد من أزري في المواجهة التي أخشاها، وقدمتني بالاسم للجميع، ولاحظت أن الجميع يفهم من مظهر الشعر القصير جدًّا سبب ذلك، ويبتسمن ابتسامات التشجيع، أما الصديقات منهن فقد قلن نفس الكلمات المُجامِلة التي لاقيتها من قبل.

وهنا أؤكد أنه كما يقول الحديث الكريم «الكلمة الطيبة صدقة»، فإن المرأة بطبيعتها تتأثر بالكلمة المُشجعة والمجامِلة التي ترفع من معنوياتها؛ لأن تغير مظهرها الخارجي نتيجة المرض يهز ثقتها بنفسها، فتحتاج دومًا إلى الشعور بتقبل المحيطين بها لمظهرها المختلف، وبأنهم ما زالوا يحبونها بنفس الطريقة، وبذات القدر، وأنا أحث المحيطين بمريضة السرطان أن يُكثروا من كلمات الود والحب والمجاملة لمريضتهم الغالية، وخاصة أن ذلك لن

يكلفهم شيئا سوى كلمات بسيطة تنزل بردا وسلاما عليها وتسعدها، وتشعرها أنها ما زالت محور اهتمام أحبائها، وتدفعها للعودة إلى حياتها الطبيعية واستئناف نشاطها، والاستمرار في المقاومة، وإثبات أنها ما زالت تقف على قدميها بكبرياء وثقة.

ودليل ذلك أنني كنت في البداية أركز جُل اهتمامي على معرفة نسب الشفاء وأسعى إلى مَن يطمئنني إلى أنني سأكون في «الفِرقة الناجية»، ولكنني الآن أقول إنني يجب أن أسعى لأكون من الناجين لأنني أريد ذلك وأحتاجه، أريد أن أشاهد أحفادي يكبرون وابنتيّ تسعدان مع زوجيهما، وأن أحضر زواج عصام ومديحة ابنَي منال شقيقتي، وأرى مزيدًا من الأحفاد لشقيقتي مها، وأتمنى الصحة والسعادة لشقيقتي الثالثة زينب، وعندما يحين أجَلي أدعو الله أن أموت واقفة كالأشجار المُثمرة دون أن أُرهق أحدًا معي من الأحباء، وأبتهل إلى الله أن أُغادر هذه الحياة وأنا محتفظة بكرامتي الإنسانية، أو كما كانت تقول والدتي الحبيبة «بدون

بهدلة»، فمصيرنا جميعًا الموت إن عاجلا أو آجِلا، ولكننا نأمل أن يُحسن الله ختامنا ونلتقي بجميع الأحباء الذين غادرونا في الجنة ونعيمها بإذن الله.

وفي نفس الوقت فقد علمتني هذه التجربة أن نِعَم الحياة وهداياها كثيرة جدًّا، ولكننا لا نحس بقيمتها إلا عندما يصيبنا المرض ونحرم من بعضها، فحينئذ نقول لأنفسنا لماذا لم نتمتع بها بالشكل الكافي، ولِمَ لم نحمد الله عليها كثيرا كثيرا؟! ولكننا من ناحية أخرى نُقدر ما تبقى لنا من هذه النِّعَم، التي يجب علينا أن نستمتع بها ونعيش الحياة برضى وامتنان، وحقيقة فإن الصحة هي أكبر النعم، فبدونها لا نستطيع الاستمتاع بأي نِعم أخرى، وكما يُقال «الصحة تاج على رءوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى»، وكان والدي الحبيب يستخدم هذه العبارة كثيرا.

وأحب أن أذكر هنا أنني كنت منذ طفولتي أحب النهايات السعيدة التي كانت تنتهي بها القصص

الخيالية التي كنت أُطالعها؛ حيث كانت الأميرات السجينات يُنقذهن الفارس النبيل في النهاية من الأشرار، وعندما شَببت عن الطوْق أصبحت أحب الأفلام التي تنتهي أيضًا بنهايات سعيدة، وأبكي حتى الآن في كل مرة مع الأفلام ذات النهايات الحزينة التي يفترق فيها الأبطال أو يموتون، مهما يكن عدد مرات مشاهدتها، فهل يا تُرى ستنتهي قصتي بنهاية سعيدة، أم أن المكتوبَ لها نهاية مُحزنة؟

لا شك أن كل شيء مقدور لنا جميعا، ويجب أن نتقبله بنفس راضية، ولكنني أرغب في توجيه رسالة إلى كل سيدة مُصابة بالسرطان، ومنهن شقيقتي منال، مفادها أن لا تخافي ولا تجزعي فأنتِ بالقَطع بطلة حتى من قبل أن تُصابي بالمرض الخبيث، فقد كنتِ وستظلين دائمًا عمود الخيمة بالنسبة لأسرتك، وسواء كنتِ مريضة أو مُتمتعة بالصحة، فأنتِ الأم الحانية والجدة المُحبة والزوجة المتفانية، وستظلين دائمًا كذلك مهما ساءت

الظروف، أما الشابات الجميلات المتألقات اللاتي شاء الله أن يُصبن بهذا المرض الخبيث مبكرًا، فأنتن بإذن الله قادرات على مُغالبته والانتصار عليه، فالمستقبل ما زال أمامكن، وطُرق العلاج الجديدة تُكتشف يوميا، ونحن الجيل الأكبر سنقدم لكُن دائمًا كل الدعم المعنوي المطلوب لكي ننتصر جميعا في هذه المعركة المستمرة ضد السرطان.

إن كلمة السر في كل هذه القصة هي «الحب»، فأولا وقبل أي شيء آخر لا بد من إيمانكِ بأن الله يحبكِ وسيكتب لكِ الأفضل برحمته سبحانه، وثانيا حُبكِ أنتِ للحياة ورغبتكِ في المقاومة وعدم الاستسلام لعوامل الإحباط التي ستصيبكِ قطعًا بسبب العلاج، وثالثًا الحب الذي يربط بين أفراد عائلتكِ، فهذا هو الخيط الصلب الذي يعزز تمسككِ بالحياة لتعيشي فترة أطول وسطهم، ويضاف إلى ذلك حُب الأصدقاء الأوفياء الذين يُحيطونكِ بالأجواء الإيجابية دائمًا.

إنني لست طبيبة كما يظن كثير من الناس، ولذلك لا أستطيع أن أُعطي نصائح طبية عن هذا المرض العضال، ولكنني أستعرض معكُن تجربتي كامرأة أُصيبت من دون مقدمات بالسرطان، ولم تكن تعرف عنه الكثير، وتنقل لكُن في هذه الصفحات مشاعرها بأكبر قدر من الصدق؛ وذلك بغرض التنفيس عما بداخلها لتشاركنها هذه المشاعر بحُلوها ومُرها، بلحظات اليأس فيها ولحظات الأمل على حد سواء، وتسطرها كما حدثت بهدف أن تُشجع البعض من المريضات على المقاومة؛ أملا في الشفاء الذي هو بيد الله وحده، كما آمل في تكوين نوع من الرابطة بين مريضات هذا النوع الخطير من سرطانات النساء؛ فيتبادلن الخبرات حول تجاربهن واحتمالهن النبيل للألم مع استمرار رعايتهن لعائلاتهن.

فمثلا مريضات سرطان الثدي، تربط بينهن الشريطة الوردية؛ علامة مُكافحة سرطان الثدي، فهل تربط بين مريضات الأنواع الأخرى من

وطول الوقت وتكرار الشكوى من نفس الآلام والآثار الجانبية التي لا يحس بوجعها المدمر سوى المريضة، ولكن هذا ليس صحيحا، فمن يحبونكِ بصدق ستستمر مشاعرهم الدافئة تجاهكِ بنفس الزخم، وانشغالهم المحدود طبيعي؛ لأن عائلاتهم لها التزامات يومية ضاغطة، كما أنكِ ستنشغلين أيضًا بمرور الوقت بمحاولة استعادة نشاطكِ للارتباط بالحياة التي تدور من حولكِ، وستعتادين الذهاب إلى جلسات العلاج دون الحاجة إلى وجود كل العائلة بجانبكِ، فهذا سيصبح إجراءً نمطيًّا بما يصاحبه من آلام واضطرابات.

ولا بد أن أذكر هنا موقف الصديقات اللاتي لم يتوقفن عن السؤال المنتظم والزيارات الدورية، خاصة بعد عودتي من ألمانيا؛ لأنهن لم يكُن يعلمن قبل ذلك، وكانت زيارة المقرَّبات منهن بلسمًا لجروح الروح، ولحالة رثائي لنفسي، وللصدمة الملازمة لأسئلتي المكررة: لماذا أنا؟ ماذا فعلت لأستحق ذلك؟ وكيف سأخرج من هذا الوضع الصعب المعقد؟

وأثناء ذلك كانت هناك صديقات العمر دائمات السؤال عني يوميًا، بل كان بعضهن، مثل منى الجمّال، يحاولن مساعدتي على تناول الطعام، وكانت تُصمم أسبوعيًا على إرسال أطعمة شهية أحبها إلى منزلي، وهي طاهية ماهرة لا يُشق لها غُبار، وكنت، وما زلت، أسعد جدًا بهذه اللفتة الرقيقة المحببة، رغم أن العلاج يترك بفمي مرارة، وفي كثير من الأحيان لا أستطعم أي شيء مهما بدا شهيا، ولكن المهم هنا المشاعر، وهذا ما يرفع من معنوياتي، ومثل هؤلاء صديقات لا تعوضهن الأيام، وأتحدث أمامهن بصراحة وأفضفض بكل همومي ومخاوفي؛ لا حرمني الله منهن.

إذن، فإن نصيحتي أن ترفعي رأسكِ بثقة وتحدٍّ يا زميلة الكفاح العزيزة في عالم السرطان، فلن يصيبكِ إلا ما هو مكتوب لكِ، وما دام الأمر كذلك فحاولي أن تستمتعي وتحتفلي بكل دقيقة متبقية لكِ في هذا العالم وسط أحبائكِ، ولتُحددي أولوياتكِ وأمنياتكِ، وتُصممي على تحقيقها حتى لو

ظن المحيطون بكِ أن ذلك ليس ملائما، وتذكري أنكِ قد أتيحت لكِ فرصة لا تسنح للكثيرين ممن تشغلهم ظروف الحياة وتسرق منهم أيامهم، ثم ينتقلون إلى العالم الآخر قبل أن يسعفهم الوقت لتحقيق أحلامهم الحقيقية التي ربما لم يُفصحوا عنها أبدا، انتظارا ليوم غير معلوم، ولم يحالفهم الحظ ليأتي ذلك اليوم قبل حلول القدَر المحتوم.

ومن وجهة النظر هذه فإن حظنا سعيد؛ بسبب معرفتنا بمرضنا الخطير الذي يجعلنا دائمًا نتحسب أن يكون يومنا الأخير قد اقترب؛ مما يجعلنا أكثر جرأة في التفكير الواقعي فيما نريده حقيقة من هذه الحياة في الأيام والسنوات المتبقية لنا، هل نريد أن نغير حياتنا اليومية ونسعى وراء أحلامنا التي لم نفكر في تحقيقها حتى الآن لعدم اتفاقها مع طرق التفكير المجتمعية النمطية؟ فهل مثلا لديكِ موهبة الرسم وتتمنين أن تُصبحي رسامة شهيرة؟ هل صوتكِ جميل وتتمنين أن تُغني؟ هل ترغبين في كتابة مذكراتك وتترددين في القيام بذلك؟ هل

تحبين الورود وتمنيتِ طيلة حياتكِ أن تفتحي محلًّا للزهور؟ هل لديكِ موهبة التمثيل وترغبين أن تُجربي حظكِ؛ فربما تصبحين نجمة شهيرة؟ أو هل كنتِ سيدة عاملة طيلة حياتكِ ولكنكِ الآن ترغبين في الاعتزال وقضاء الوقت في القراءة والاستماع للموسيقى أو مشاهدة الأفلام؟ هل لديكِ أُذن موسيقية وترغبين في تعلُّم العزف على إحدى الآلات؟ هل تودين تغيير مجال عملكِ لأنكِ لا تُحبينه، ولكنْ فرضته عليكِ ظروف الحياة ومتطلباتها؟

إذا كانت أحلامكِ الحقيقية شيئًا من ذلك أو غيرها، فاسعي وراءها؛ فهذه الحياة لن تتكرر مرة أخرى، فانتهزي هذه الفرصة السانحة واذهبي وراء أحلامكِ إذا استطعتِ ذلك، وأسعدي نفسكِ أثناء علاجكِ من المرض؛ لأن ذلك سيُسعد أيضًا مَن حولكِ، ويجعل الحياة أكثر إشراقًا رغم الظروف.

فجدير بالذكر هنا أن إحدى الممرضات في

أستراليا قد كتبت كتابًا أحدث ضجة عالمية؛ لأنه نقل تجارب شخصية عاشتها الممرضة مع كبار السن من المرضى الذين كانوا بالمستشفى التي تعمل بها، وأطلقت على كتابها اسم «الندم»، ومحور الكتاب يدور حول أكثر خمسة أشياء نندم عليها عندما نكبر، أو عندما يصيبنا مرض خطير، واستندت الممرضة في كتابها على سؤال العديد من المرضى قبل وفاتهم عن أبرز الأشياء التي ندموا على فعلها أو عدم فعلها لو عادوا إلى سن الشباب أو صحتهم، والملاحظ وجود خمس رغبات اشترك في ذكرها معظمهم قائلين:

(١) تمنيت لو كانت لديّ الشجاعة لأعيش لنفسي ولا أعيش الحياة التي يتوقعها أو يريدها مني الآخرون. فقد عبّر معظمهم عن ندمه على إرضاء الغير، كرؤسائهم في العمل، أو الظهور بمظهر يُرضي المجتمع أو يرْضي مَن يعيشون حولهم.

(٢) تمنيت لو أنني خصصت وقتًا أطول لعائلتي

وأصدقائي بدلًا من إضاعة العُمر كله في روتين العمل المُجْهِد.

(٣) تمنيت لو كانت لديّ الشجاعة لأُعبّر عن مشاعري بصراحة ووضوح. فالكثيرون كتموا مشاعرهم لأسباب مثل تجنّب مصادمة الآخرين أو التضحية لأجل أناس لا يستحقون.

(٤) تمنيت لو بقيت على اتصال مع أصدقائي القدامى، أو جدّدت صداقتي معهم؛ فالأصدقاء القدامى يختلفون عن بقية الأصدقاء، كوننا نشعر معهم بالسعادة ونسترجع معهم ذكريات الطفولة الجميلة، ولكننا للأسف نبتعد عنهم في مرحلة العمل وبناء العائلة حتى نفقدهم نهائيًا، أو نسمع بوفاتهم فجأة.

(٥) تمنيت لو أنني أدركت مبكرًا المعنى الحقيقي للسعادة، فمُعظمنا لا يُدرك إلا متأخرًا أن السعادة كانت حالة ذهنية لا ترتبط بالمال أو المنصب أو الشهرة، وأنها كانت اختيارًا يمكن نَيْله بجهد أقل

وتكلفة أبسط، ولكننا نبقى متمسكين بالأفكار التقليدية حول تحقيقها.

جمال هذا الكتاب يكمن في لفت الأنظار إلى ضرورة تعلُّم دروس المرض العضال والشيخوخة في سن الشباب، وقبل وصولكِ لمرحلة تعجزين فيها عن تعويض ما فات من حياتكِ.

كما استفدت من د. حنان الشناوي؛ ابنة خالتي العزيزة، وهي طبيبة نابهة تُحدثنا من القلب حول موقف مريضات السرطان اللاتي يجب أن يُركزن على ما يبعث في النفس السعادة، وأننا يجب أن نحدد يوميًّا أولويات مهامنا، وأن نقوم بما له أهمية قصوى فحسب، ولا نخجل من أن نعتذر عن المهام التي لا نستطيع القيام بها، وعندها قد نفقد الناس الذين يحتاجوننا لأغراض نفعية، ولكن سيقترب منّا آخرون نكتشف محبتهم المُنزهة عن الأغراض؛ فنحن في هذه المرحلة نعيش يومًا بيوم، وبالقطع لن نعود كما كنا فيما يتعلق باللياقة الجسدية، ولكن

لياقتنا الذهنية ستسمح لنا بالاستمرار في تحقيق ما نأمل فيه. ويجب، رغم صعوبة الاقتناع بذلك، أن نعتبر السرطان صديقًا نحمله على ظهورنا رغمًا عن إرادتنا، ويجب أن نراعيه ونفعل ما يستلزم التعايش معه؛ فالمعركة مستمرة في داخلنا حتى لو لم نشعر بها.

كما أن هذا المرض الخطير يساعدنا في إلقاء الضوء على ما قد نفقده في الحياة؛ وبالتالي نعتني به أكثر، ويكشف لنا تقصيرنا في القيام بمهامنا وواجباتنا؛ وبالتالي يُنبهنا لتدارُك ذلك قبل فوات الأوان، كما نصحتني الدكتورة حنان بأن مريضات السرطان اللاتي قدّمن الكثير في حياتهن، يجب أن يُفكرن الآن في أنفسهن أولًا، ويجب أن يُحببن أنفسهن، ويقُمن بما يحقق لهن الرضى والسعادة؛ فأنيسة مثلًا تستحق أن تُحبها أنيسة، وتعطي أولوية لرغباتها وأحلامها.

أنا مثلا الآن أريد أن أكتب أكثر؛ فالكتابة تسمح

لي بالحديث إلى نفسي والحديث للآخرين، وأن أختار موضوع الحديث دون محاذير أو تحفظات، وأفكر في أن يكون كتابي التالي حول أحفادي، وتجربتي في كوني جدة؛ فهذا كتاب سأستمتع بكتابته وكأنني أحكي قصة للأحفاد الأحباء، وسوف أتركه كذكرى مَرحة لهم ولجميع الجدات.

كما أتطلع لأن أُعيد طباعة كتاب والدي «شهادتي» عن حياته المهنية، وأُضيف له فصولًا جديدة عن محاضر مجلس الوزراء؛ التي أسعدني الحظ بالحصول عليها، والتي تُغطي فترة حاسمة من تاريخ مصر، وما قاله فيها، موثقًا حول مواقفه المُشرفة والشجاعة في النقاش حول شئون الوطن وقراراته، يدعو للفخر بلا شك، وهذا أقل واجب أستطيع أن أقوم به تجاهه مقابل كل ما قدمه لنا ولوطنه.

كذلك فإنني أسعى لبذل قصارى جهدي لأعاون مشاريع رعاية الصحة الخيرية، وخصوصًا في مجال

علاج السرطان، وبالأخص للنساء، كما أتمنى أن أسافر إلى أماكن لم أرها من قبل إذا سمحت مواردي المالية بذلك، وأتمنى أن أُخصص وقتا أطول للإجازة مع العائلة والأحفاد؛ فهذه لحظات لا تُعوض ولا تتكرر، وسأعطيها أولوية قبل أي شيء آخر. هذه هي كل أولوياتي في المرحلة القادمة الحاسمة، والتي أتمنى أن يطول العمر بي لكي أحقق بعض هذه الأمنيات.

في جميع الأحوال فإنني لن أستسلم، ولن أرفع الراية البيضاء أمام هذا المرض مهما كانت خطورته؛ فأنا لم أشبع من أحفادي بعد، ولم أحتضن وأُقبل ابنتيّ بما فيه الكفاية، وأحزن على ما سيفوتني من مُتع كثيرة كنت أدخرها لرحلاتنا المُقبلة معًا، ولا أرغب في أن أختفي الآن من حياتهم، فحياتي هي حياتهم، والعمر ليس له قيمة بدون وجودهم حولي ومعي، وأتمنى أن لا أرقد في فراش مستشفى عندما تقترب نهايتي لأي سبب؛ وإنما أُختطف من وسطهم على حين غرة حتى لا يتعذبوا بعذابي، وألا

يبكوني قبل أن أرحل فعليًا حزنًا على حالي المتدهور، فأنا لا أحتمل عجْزي وحمْلي من مكان إلى آخر، أو أن أضطر إلى قضاء حاجتي في سرير طبي، وإنما أبتهل إلى الله أن أستمر مُعتمدة على نفسي، وأن يصاحبني الأمل حتى النهاية، وأن لا أفقد مَرحي أبدًا، وأدعو الله أن يُحسن ختامي، وأن يكون آخر ما يتذكره أحبائي عني هو وجهي المُبتسم وضحكتي المُشرقة؛ فهم يستحقون ذكرى جميلة عني، أما ألم الفراق فكلنا سنتعذب به عندما يحين الوقت مهما امتد بنا العمر، ونحن جميعًا نحني رءوسنا لما تقضي به العناية الإلهية، فلنحاول أن نستمتع بالحياة ونساعد الأخريات على ذلك، ما دام فينا قلب ينبض ومشاعر نبيلة تتعاطف مع الآخرين وتحس بآلامهم وتتمنى لهم الخير والصحة، فالمعركة مع السرطان لم تُحسم بعد، وبإيماننا بقُدراتنا الذاتية، وقوّتنا في مواجهة التحديات، وغريزتنا البشرية التي تدفعنا للكفاح حتى في أحلك الأوقات.. سننتصر بإذن الله.